Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

روجيه لوطورنو

فاس قبل الحماية

الجزء الثاني

دار الغرب الإسلامي

Bibliotheca Alexandrina
0128427

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

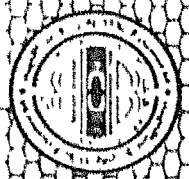

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فاس قبل الحماية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جميع الحقوق محفوظة
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

دار الغرب الإسلامي
ص.ب: ١١٣/٥٧٨٧
بيروت - لبنان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

روجي لوطورنو

فاس قبل الحماية

الجزء الثاني

ترجمه إلى العربية

محمد حجي
دكتور دولة في الآداب والعلوم الانسانية

محمد الأخضر
دكتور دولة في الآداب والعلوم الانسانية

دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

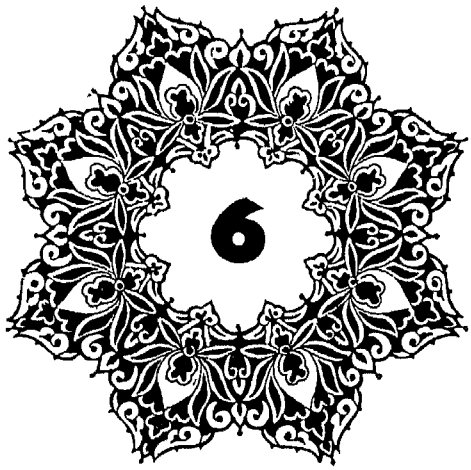

الكتاب السادس

الحياة الفكرية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن فاساً بالإضافة إلى كونها مدينة صناعة وتجارة ، هي أيضاً مدينة معرفة ، وإن كانت أقل قِدماً من منافستيها القاهرة وتونس(*) ، إلا أن الجامعة الإسلامية بفاس معاصرة مع ذلك لجامعتنا السربون وقد تنافس الشعراء في مدح علم فقهائها . وكان دائماً بجانب الوسط الصناعي والتجاري وسط فكري مركزه جامعة القرويين .

(*) العكس هو الصحيح ، والحجج التاريخية عديدة ثابتة دامغة . انظر ـ مثلاً ـ الكتاب الذهبي لجامعة القرويين في ذكراها المائة بعد الألف (245 - 859/1379 - 1960) نشر وزارة التربية الوطنية المغربية ، مطبعة فضالة ، المحمدية 1960ـ بحوث عديدة لكبار العلماء من الشرق والغرب ـ (مترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

جامعة القرويين [1]

في أي تاريخ بالضبط يمكن التحدث عن جامعة فاس ؟ من الصعب الجواب عن هذا السؤال بدقة . إذا كانت الرواية الإسلامية ، التي يقصها **روض القرطاس وزهرة الآس** ، تبين بالضبط التاريخ الذي أسس فيه جامع القرويين ، فإنها ساكتة عن الزمان الذي أُضيفت فيه الجامعة إلى الجامع . من المحتمل أن دروساً ألقيت في القرويين في وقت مبكر جداً ، ومن المحتمل كذلك أن جامع القرويين لم يكن وحده الذي ألقيت فيه الدروس لمدة طويلة ؛ ذلك أن وجود مدرستين أخريين بجانب الجامع الكبير بفاس الجديد يثبت ـ على ما يبدو ـ أنه كان بفاس حتى ثلاثة مراكز للتعليم ، بل وحتى أربعة ، إذا نحن فرضنا ، كما هو المحتمل ، أن « مدرسة أبي عنان » ـ كما يقول ليون الإفريقي ـ أي المدرسة البوعنانية ، كانت مستقلة ذاتياً زماناً طويلاً . لكن جامع القيروان تغلب عليها في النهاية ، واستطاع أن يختص لنفسه بالتعليم

---

(1) انظر عن هذه الجامعة ، الكتاب الآنف الذكر لدولفان ، وبيريتي، **مدارس فاس** ،ص. 346 - 356 ، وأوبان ، المرجع المذكور ؛ ومولييراس ، المرجع المذكور ، (هنا وهناك) ؛ وب . مارتي ، **مغرب الغد** ، من ص 1 إلى 81 ؛ وف . فابر، **في المغرب الجديد : دور جامعة إسلامية** ، في : **حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي** ، عدد 51 ، 1938 ، ص. 195 - 207 . بالإضافة إلى ما استفدته من قراءة بعض الملخصات لمركز الدراسات العليا الإدارية الإسلامية المخصصة لجامعة فاس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العالي في فاس . وقد تحقق ذلك في دولة السعديين ، كما يدل على ذلك توسيع خزانة الجامعة الذي قام به السلطان السعدي أحمد المنصور ، في أواخر القرن السادس عشر[2] . فلما أقيمت الحماية ، كانت قد مضت إذن ثلاثة قرون على الأقل منذ أن احتل علماء جامع القرويين الصف الأول في الحاضرة وشكلوا شبه طائفة ، هي طائفة الفقهاء .

التنظيم العام : كانت جامعة فاس جامعة دينية أساساً ، على غرار سائر الجامعات الإسلامية التقليدية ، تستهدف تلقين المؤمنين معرفة أتمّ ما يمكن للحقائق التي يجب الإيمان بها ، والسلوك الذي يتعين اتخاذه بارتباط مع هذه الحقائق . فإذا كانت تدرس بها مواد لا صلة مباشرة لها بالإلهيات كالنحو ، والمنطق ، والهندسة ، مثلاً ، فلأن هذه المواد كانت تساعد على إدراك أحسن للحقائق الجوهرية ، أو على القيام بالفرائض بكيفية أحسن ؛ لكنهم لا يعيرونها قيمة باطنة .

وإليكم ، حسب پيريتيي[3]، لائحة العلوم التي كانت تدرس بجامعة القرويين في السنوات الأولى من القرن العشرين .

1 ـ الحديث ، وكان يدرس كل يوم في أشهر رجب ، وشعبان ، ورمضان . وكان الكتاب الرئيسي المستعمل هو صحيح البخاري[4] .

2 ـ أصول الفقه ، وكانت تدرس في العشي ، وبذلك تعتبر مادة ثانوية .

3 ـ الفقه ، وكان يدرس في الصباح ، وتدعى هذه هذه المادة أحياناً بالبحر ، لأنها لا حدود لها كالبحر . وكانت أهم المؤلفات المستعملة هي

---

(2) يدل كون ثلاث مدارس مرينية ـ الصفارين ، والعطارين ، والمصباحية ـ شيدت حول جامع القرويين ، على أنها كانت بعدُ متفوقة في منتصف القرن الرابع عشر .

(3) المرجع المذكور ، ص . 334 وما بعدها .

(4) يذكر پ . مارتي (المرجع المذكور ص. 56) علاوة على صحيح مسلم ، موطإ الإمام مالك وشمائل الترمذي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مختصر سيدي خليل ، **ورسالة** ابن أبي زيد القيرواني ، و**المرشد المعين** لابن عاشر ، **وتحفة** ابن عاصم .

4 ـ النحو . وكان يُلقن في المساء ، من طرف أساتذة مبتدئين بصفة عامة ، حسب كتابين تقليديين ، هما **الآجرومية** ، وهو مؤلف كلاسيكي لابن آجروم ، **والألفية** (وهو مؤلف لابن مالك يشتمل على ألف بيت كما يدل على ذلك اسمه) .

5 ـ البيان ، والمعاني والبديع[5]،وكان الذين يقومون بتلقينها من الأساتذة الأجلاّء .

6 ـ المنطق ، وكان قليل الرواج بفاس .

7 ـ العروض ، وكان يدرس يومي الخميس والجمعة .

8 ـ الحساب ، وكان يدرس خارج الجامعة ، في أحد مساجد حي البليدة ، وهو جامع الارنجة .

9 ـ التوحيد ،وهو علم مندرج في الفقه، ويدرس **بالرسالة** وابن **عاشر** .

10 ـ القضاء والأحكام ، وهو علم مندرج كذلك في الفقه ، ويدرس **بالتحفة** و**لامية الأفعال** لابن مالك[*] .

11 ـ الأدب ؛ في القديم كانت تشرح مقامات الحريري بفاس ، لكن هذه العادة اضمحلّت ، واصبح كل التعليم الأدبي عبارة عن دراسة لقصيدتي **البردة** والهمزية ، مع شروحهما . وكان ذلك التعليم يُلقَى كل مساء خلال الخمسة عشر يوماً التي تسبق المَولد النبوي ؛ وكانت تسمى هذه الدروس المولديات[6] .

---

(5) يدل كل اسم من هذه الأسماء الثلاثة في الواقع على فرع من فروع البيان ، هي : العرض ، والابتكار ، والتعبير . ولفظ البلاغة هو الذي يدل عامة على البيان . انظر مارتي ، المرجع المذكور ص.58 .

(*) كذا بالأصل ، وهو تخليط ، إذ المقصود لامية الزقاق (مترجم) .

(6) وحسب پ . مارتي (المرجع المذكور ص.52 - 60) يجب أن تذكر أيضاً الفرائض وفلسفة النحو (الوضع) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت تلقن بفاس علوم أخرى ، لكنها اضمحلت شيئاً فشيئاً، كالتفسير الذي انقطع تعليمه في دولة سيدي محمد بن عبدالرحمن[7]. ويمكن أن يذكر أيضاً من بين العلوم الميتة : التنجيم[8] ، والكلام ، والتصوف الذي اضمحل منذ 1906 ، واللغة ، والتصريف ، والتاريخ الذي ربما لم يدرس قط بفاس ، والجغرافيا ، والطب ، والجدول . ويبدو أن الكيمياء لم تدرس قط بصفة رسمية ؛ ونظراً لكونها مكروهة في السُّنة ، فإنها كانت من نصيب اليهود .

وكانت العلوم الآنفة الذكر تشكل البرنامج ، إنْ صحَّ هذا التعبير ، للجامعة وهو لا يمت بصلة إلى ما نقصده بهذا اللفظ في مؤسساتنا للتعليم العالي ، لأنه لم يكن محدداً من طرف السلطة الجامعية بالنسبة لكل درس ولكل سنة دراسية ، ولكنه مبين في خطوطه العريضة ، بحسب تقاليد قديمة ، وهي تقاليد إسلامية جارٍ بها العمل في المجال الإسلامي كله ، وسنة مغربية كانت تعطي الأولوية للفقه .

لم تكن السلطة الجامعية إذن تنشغل بالبرامج . ومن جهة أخرى ، لم تكن جامعة القرويين منظمة على غرار الجامعات الأوروبية ، ولا حتى على غرار جامعات إسلامية أخرى كجامعة تونس[9] . كانت تحت مراقبة قاضي الجماعة بفاس، وهو الذي كان يعين الأساتذة ويعرضهم على موافقة المخزن[10]

---

(8) كان عالم فاسي وحيد قادراً على استعمال الأسطرلابات ولوحات اللوغاريتم هو : السيد محمد الغزاوي ، لكنه لم يكن يدرسها .

ملاحظة :

ليس هذا صحيحاً . ويكفي ذكر الشيوخ الذين أخذ عنهم سيدي محمد العلمي الفلكي الشهير هذا العلم بفاس (مترجم) .

(9) انظر عن إعادة تنظيم جامعة الزيتونة ، المشرف ، إصلاح التعليم بالجامع الكبير (الزيتونة) بتونس ، في مجلة الدراسات الإسلامية ، 1930 ، جزء 4 ص.441 - 415 .

(10) إن المؤلفين الأوروبيين الذين تعرضوا لهذه المسألة قبل الحماية غير متفقين مطلقاً حول الحصة الراجعة لكل من القاضي والمخزن في تعيين الأساتذة ، بينما توضح المذكرة حول التعليم بالمغرب (وثائق القسم السوسيولوجي . مذكرة مجهولة المؤلف عن التعليم ،ص. 38 من النص المطبوع على الآلة الكاتبة) بأنهم كانوا يعينون من طرف القاضي ، لكن=

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما أسلفنا[11] ؛ كما أنه كان يراقب نشاطهم ، لا سيما في ميدان الفقه ، وبالتالي كان هو الذي يدير ميزانية الجامعة ، بما له من إشراف على إدارة الأوقاف ، لأن هذه الميزانية لم يكن يمونها غير الأحباس . والحاصل أننا نرى أن استعمال كلمة « رئيس الجامعة »[12] ليس مبالغاً فيه قطعاً ، لكننا نقدر مع ذلك الفارق الكامل بين قاضي فاس ومدير جامعة أوروبية .

لم يكن يساعد القاضي ، في مهامه الإدارية ، لا هيئة إدارية (كالكتابة) ولا نواب مكلفون بالنظام العام للجامعة (حراس) ولا مجلس استشاري مماثل لمجلس الجامعة . فكان تنظيم المؤسسة الموقرة إذن مصغراً بقدر الإمكان ، كانت الإدارة المالية مسندة إلى مصلحة أحباس القرويين ، وحراسة الطلبة الداخليين إلى قيمين سأتحدث عنهم فيما بعد[13] .

كان العمل بالسنة الدراسية غير معروف ، فجل الطلبة الجدد يأتون في الخريف ، بعد انتهاء أشغال الحقول[14] ، إذ كان الكثير منهم يفِدون من البادية ، لكن أي شيء لم يكن يمنعهم ـ مبدئياً ـ من المجيء في أي وقت من السنة . لم يكونوا يطالبون بأي تسجيل ، لأن التعليم مجاني ، وإنما يتقدمون فقط إلى الأساتذة الذين كانوا يريدون حضور مجالسهم . كما أن مدة

= باقتراح من المخزن ، وذلك من عهد مولاي الحسن . ويبين بيريتي (المرجع المذكور ، ص.315 - 316) أن تعيينهم يتم على ثلاثة أشكال متتالية : كان القاضي يعينهم بدون تدخل المخزن ، إلى دولة مولاي الحسن ؛ ثم قام القاضي بالتعيينات بأمر من المخزن ؛ وأخيراً ، وابتداء من 1906، وهو تاريخ وفاة آخر قصاة الحماعة، عين المخزن الأساتذة بظهير(انظر نموذجاً للظهير عند بيريتي ، المرجع المذكور ، ص . 321) وتطابق المعلومات الشفوية التي جمعتها هذه الكيفية الأخيرة لتقديم الأشياء .

(11) انظر ما سبق ، الكتاب 4 ، الفصل 1 .

(12) بيريتي ، المرجع المذكور ، ص. 315 .

(13) من المعلوم أن جامعة فاس أعيد نظامها ، منذ إقامة الحماية . فقد أنشئ لهذا الغرض ، منذ سنة 1914 ، مجلس للإصلاح ، برئاسة وزير العدل ، مع فرع محلي بفاس ، عوّضَ رئيسُه القاضيَ في دوره « كرئيس للجامعة » . وظهير 1933 هو الذي منح الجامعة نظامها الحالي .

(14) دولفان ، المرجع المذكور ، ص. 88 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدراسات لم تكن محددة : تقتضي العادة متابعة الدروس طوال خمس سنوات على الأقل[15] ، لكن الكثير من الطلبة كانوا يتجاوزون هذا الأجل ، بل كان منهم حتى الطلبة الدائمون . لا وجود لأي امتحان يقر الدراسات ؛ فكل مَن آنس من نفسه أنه حصل على رصيد كاف يطلب من أساتذته إجازة تشهد بأنه درس (كتب) المؤلفين الفلانيين ويعرفها تمام المعرفة .

كانت الدروس تعطل في بعض المناسبات[16] : ففي شهر رمضان كانت تعوض بقراءة الحديث بجامع القرويين وبزاوية سيدي قاسم بن رحمون . وفي شهر صفر وبداية ربيع الأول كانت بعض الحصص تخصص لشرح **الهمزية** ، يقوم بذلك قاضي فاس .

وكان الطلبة يستفيدون من عطلة ثلاثة أسابيع بمناسبة الأعياد الثلاثة الكبرى[17] ، وثلاثة أيام من أجل عيد عاشوراء وشعبان[18] ، ويوم واحد للعيد الصيفي : العنصرة ، في 24 يونيو من السنة اليوليوسية . ومن جهة أخرى كانت الدروس تتوقف في كل أسبوع ، يوم الخميس بعد الزوال ويوم الجمعة بكامله ، وثلاثة أيام بمناسبة وفاة أستاذ عادي ، وسبعة أيام بمناسبة وفاة « أستاذ كبير » ، وشهراً بمناسبة احتفال الطلبة في الربيع . وأخيراً ، كانت تنقطع الدروس ، إذا مات السلطان ، إلى أن يُبايع خلفه[19] .

---

(15) نفس المرجع في نفس الصفحة .

(16) **مذكرة حول التعليم العالي** ، الآنفة الذكر ، ص. 42 - 49 . انظر أيضاً بيريتي المرجع المذكور ، ص. 299 وما بعدها .

(17) وحسب پ . مارتي (المرجع المذكور ، ص. 50) كانت هذه العطل خمسة وعشرين يوماً بالنسبة للمولد النبوي ، وخمسة عشر يوماً بالنسبة لعيد الفطر ، وشهراً بالنسبة لعيد الأضحى .

(18) يذكر ، مارتي (نفس المرجع) عطلة خمسة أيام بمناسبة عاشوراء ، ولا يقول شيئاً عن شعبان .

(19) بيريتي ، المرجع المذكور ، ص. 301 . وكان القاضي أيضاً يدرس هو الآخر ويحدد التاريخ بالضبط لابتداء العطل وانتهائها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نرى بالتالي أن طلبة فاس لم يكونوا يعملون أكثر من ثلثي السنة ، كتلاميذ مؤسساتنا للتعليم العالي تماماً ، إلاّ أن فترات العطل لم تكن فارغة كل الفراغ ، إذ كانت تستعمل لدروس عرضية ، مثل الرياضيات .

كان كل نهار مقسماً إلى ستة أجزاء تتمدد أو تتقلص حسب الفصول ، لأن تحديدها لم يكن معتمداً على تقسيم اصطناعي للزمان ، ولكن على جريان الشمس . فكان الميقات ، في اعتدال الربيع [أو الخريف] ، هكذا : يبدئ الدرس الأول بعد صلاة الصبح[20] ؛ والثاني (بين الأول والثاني) حوالي الساعة السابعة صباحاً ؛ والثالث (الثاني) حوالي الثامنة والنصف ؛ والرابع (الثالث) حوالي العاشرة؛ والخامس (الزوال) حوالي الحادية عشرة والنصف، والسادس (الظهر) حوالي الواحدة بعد الزوال. وكانت الدروس تتوقف عشية مع صلاة العصر[21] . كانت الساعات الأربع الأولى مخصصة للفقه ، والساعتان الأخيرتان للمواد الأخرى[22].ويستريح التلاميذ بضع دقائق بين كل درس وآخر .

الأساتـــذة : لم يكن تعيين الأساتذة من طرف المخزن يتم نتيجة مباراة أو إمتحان ، لأن هذه الطريقة كانت مجهولة[23] ، ولكن حسب المسطرة

---

(20) عند الشروق ، أي عندما تبزغ الشمس في الأفق ، بعد صلاة الصبح .

(21) وحسب بيريتي (المرجع المذكور ص.299) كان بعض الأساتذة المتطوعين يدرسون بين العصر والمغرب . بالإضافة إلى أنه ، في شهر صفر وحتى عيد المولد النبوي (12 ربيع الأول) كان القاضي نفسه يشرح الهمزية ، بين العشاءين (المغرب والعشاء) على ضوء الشموع وقناديل الزيت .

(22) مذكرة غير منشورة حول التعليم ، وب . مارتي ، المرجع المذكور ، ص.51 . ولا يذكر بيريتي (المرجع المذكور ص.299) سوى خمسة أقسام . وعلاوة على هذا كانت تنظم محاضرات ذات طابع إرشادي بعد صلاة العشاء في عدة مساجد ، ولم تكن موجهة خصيصاً للطلبة .

(23) إلا أن تعيين أساتذة القرويين ، حسب دولفان (المرجع المذكور ص. 71) كان يتم بعد امتحان عمومي إلى دولة مولاي عبد الرحمان (1822) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التالية : كل طالب حامل لإجازة مسلمة من أساتذته[24] كان له الحق في أن يدرس بجامعة فاس . وكان يُدعى عادة فقيهاً ويقوم بالتدريس في إحدى زوايا قاعة الصلاة التي لم تكن بعدُ مشغولة ، دون استلام أي راتب من الدولة ، ولا أية أجرة من الطلبة ؛ وكان بإمكانه الحصول على شيء من المال بإعطائه دروساً خصوصية في جامع أو مسجد[25] .

وبعد أن يكون قد درَّس بعض الوقت بهذه الكيفية، قائماً بشبه تدريب بيداغوجي ، يكون بإمكانه أن يَلتمس تعيينه كأستاذ رسمي (مدرس)؛ ولهذا الغرض كان يطلب « شهادة من عدة علماء ، يصرحون فيها بأن درس الفقيه يحضره ناس كثيرون حتى تحول إلى كرسي[26] » ؛ كانت تلك هي الشهادة التي لا بد إذ ذاك من تبليغها إلى السلطان، إما بواسطة صديق ذي مرتبة عالية، وإما بإضافة «قصيدة استعطاف» وتوجيهها إلى أحد الوزراء ليحصل على رعايته . فإذا ارتأى السلطان أن التعيين ملائم ، وجه إلى القاضيين ظهيراً على هذا الشكل : « إلى قاضيينا الأرضيين ، فلان وفلان ، رعاكما الله والسلام عليكما ورحمة الله تعالى وبركاته ، أما بعد : فإن الطالب فلان (الاسم الشخصي والعائلي) من جملة الذين يستحقون مرتبة كذا ، نظراً لمثابرته في تدريس العلم الشريف ، وقدرته على تعليم الطلبة بجامع القرويين عمَّرها الله . وعليه ، فنأمركما أن تأمرا ناظر أحباس القرويين بأن يدفع له مبلغاً مناسباً ، ولا بد ، والسلام » .

---

(24) وحسب دولفان (المرجع المذكور ص.22) كانت الإجازة على العموم بالصيغة الآتية : « بعد العبارة المتداولة : لقد سلمت لفلان ، الحامل لهذه الشهادة المكتوبة بيميناي ، إجازة لتدريس كل ما حفظه من درسي أو جمعه من كلامي ، وتطلقت على صحيح البخاري ، ومختصر سيدي خليل ، إلخ . . . » . ويذكر نفس المؤلف (ص.101 - 103) نص إجازة لسيدي عبد الرحمن الفاسي . وكانت الإجازة محررة عادة من طرف أستاذ يوقعها هو أيضاً ، بينما يضيف الأساتذة الآخرون عبارة « كذلك » ويوقعون . انظر عن الإجازة و . مارسي . تقريب النووي ، باريس ، 1902 ، ص. 115 وهامش 2 .

(25) پيريتي ، المرجع المذكور . ص.319 .

(26) نفس المرجع ، ص. 320 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومنذئذٍ يصبح المرشح من جملة الهيئة التعليمية للجامعة التي كانت منقسمة إلى خمس طبقات ترتيبية ؛ وللانتقال من إحداها إلى الأخرى، كانت الطريقة هي ذاتها المتبعة للإحراز على منصب أستاذ رسمي : كان السلطان يختم ظهيراً أو كان الصدر الأعظم أيضاً يبعث برسالة الى قاضي فاس ، بناءً على شهادة الأساتذة الرئيسيين . والحاصل أننا نرى أن نظام التوظيف كان هو نظام الطائفة ، بإثبات المخزن .

وكانت رواتب فقهاء فاس زهيدة : ذلك لأنها حددت منذ عهد طويل جداً ولم تتغير قط ، رغم الانخفاضات المتتالية للعملة ؛ وكانت تتراوح بين 15 أوقية و 200 مثقال للشهر[27]. وزيادة على هذه الرواتب الزهيدة ، كان أساتذة الجامعة يتسلمون من الأوقاف تعويضات مختلفة عن المهام الدينية التي كانوا يقومون بها أنفسهم أو بواسطة نائب عنهم في مساجد المدينة وزواياها ، كخطبة الجمعة ، والإمامة ، وقراءة الحزب والشفاء واللطيف والحديث النبوي (كرسي التوريق)[28]. فكانوا يربحون هكذا حتى 1.000 مثقال شهرياً .

بالإضافة إلى أن المخزن كان يقدم لهم كل سنة هدايا عينية ، ككسوة كاملة بمناسبة عيد كبير ، وكمية متفاوتة من القمح حسب الطبقة التي ينتمي إليها الأستاذ :

90 مد لأساتذة الدرجة الأولى

60 مد لأساتذة الدرجة الثانية

---

(27) إن الخمس عشر أوقية التي كانت تعادل ريالاً ونصف ريال في بداية القرن التاسع عشر ، لم تعد تساوي بعد ذلك إلا عُشر الريال ، أي أكثر بقليل من 0,50 فرنك في بداية القرن العشرين ؛ فكانت الـ 200 مثقال تعادل في بداية القرن العشرين نحو 71 بسيطة حسنية .

(28) بيريتي ، المرجع المذكور ص.325 - 328 . ويطلق اسم « كرسي » بفاس على الكراسي ذات المسندات المخصصة للأساتذة الكبار ، وكذا على التي كانت تستعمل لقراءة الحديث النبوي . ويتعلق الأمر هنا بهذه الأخيرة توجد منها ستة بجامع القرويين ، وواحد في كل مسجد من المساجد الرئيسية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

45 مد لأساتذة الدرجة الثالثة

30 مد لأساتذة الدرجة الرابعة

15 مد لأساتذة الدرجة الخامسة[29] .

وكان هذا القمح يُعطى مرتين : الثلثان في بداية الخريف ، والثلث في نهاية الشتاء . وكان المخزن يعطي أساتذة القرويين أيضاً خابيتين من الزيت ، وثمن ثور لعمل القديد المصبر في نهاية الصيف ، وزبدا . وباختصار بعض المواد الأساسية لمعيشة فاسي موسر . وكان السلطان يقدم لهم من جهته صلة نقدية بمناسبة كل عيد من الأعياد الثلاثة :

4 ريالات لأستاذ الدرجة الأولى

3 ريالات لأستاذ الدرجة الثانية

2 ريالين لأستاذ الدرجة الثالثة

1 ريال لأستاذ الدرجة الرابعة

1 ريال لأستاذ الدرجة الخامسة[30] .

وأخيراً كان الأساتذة يسكنون في عقارات حبسية ، أو إن لم تكن دار شاغرة ، كانوا يتقاضون تعويضاً عن السكنى لكنه محسوبٌ ، كما تحسب الرواتب ، وفق الأسعار القديمة ، أي أدنى بكثير من قيمة الكراء الحقيقية[31] .

---

(29) تعطي المذكرة حول التعليم نفس الأرقام ، وأرقام دولفان (المرجع المذكور ، ص 57) هي الآتية :

60 مد للدرجة الأولى

40 مد للدرجة الثانية

30 مد للدرجة الثالثة

10 مد للدرجة الرابعة

(30) حسب پيريتي ، (المرجع المذكور ، ص. 332) انتهى العمل بالصلة منذ ثورة بوحمارة .

(31) يبين پيريتي (المرجع المذكور ، ص.333) أن تعويض السكن كان يتراوح بين 4 و 5 ريالات في الشهر ، في حين كان الكراء المعتدل في بداية القرن العشرين يصل الى 15أو 20 ريالاً في الشهر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبعد كل حساب كان أساتذة القرويين يرون حياتهم المادية مضمونة تقريباً ، بمجرد ما يصبحون أساتيذ كرسي ؛ وإن كانت الموارد المنوطة بوظيفتهم هزيلة إلا أنها تتيح لهم على الأقل عيشةً لائقة . ومن جهةٍ أخرى ، كان الكثير منهم يفتي في مقابل مبلغ يتراوح بين 1 و100 ريال حسب أهمية الفتوى وشهرة صاحبها . كما أن العديد منهم كانوا ينتمون إلى الطبقة الفاسية الميسورة ، ويملكون عقارات في المدينة : دكاكين ، وبساتين ، ومزارع في النواحي ، وباختصار موارد لا بأس بها في الغالب . وأخيراً ، كانت الفوائد المنوطة بوظيفتهم تعطى لهم مدى الحياة، لأن مبدأ التقاعد لم يكن معروفاً؛ فكان الأساتذة الطاعنون في السن الذين لم يعودوا يستطيعون القيام بالتدريس يستقرون في منزلهم ، محتفظين براتبهم ، وبالهدايا المألوفة وبالتمتع بالسكنى .

لم يكن الأساتذة تابعين للمخزن إلا من أجل تعيينهم وترقيتهم ، على أن يبرهنوا في مقابل ذلك ، عن ولائهم له[32] . وفيما عدا ذلك كانت لهم الحرية المطلقة : فلا نظام يفرض عليهم الحصص ولا البرنامج . لكن العادة التقليدية كانت وراءهم تطالبهم على الأقل بدرس في اليوم ، وأن تكون إقامتهم بفاس[33] وأن يحضروا بانتظام ، اللهم إلا إذا كانوا مسافرين أو حاجّين بيت الله الحرام .

أما مادة تعليمهم ، فكانت مسألةً بينهم وبين تلاميذهم . فعندما كان يحتل أستاذ جديد مكانه بالجامعة ، أو يختم أستاذ قديم قراءة كتاب ، كان التلاميذ يتشاورون فيما بينهم وينتدبون بعض زملائهم ليطلبوا من الشيخ أن يتفضل باستئناف تفسير هذا الكتاب أو ذاك . ولم يكن من النادر أن يرى عدد

---

(32) كان العداء الصريح للمخزن قد يتسبب في حذف الراتب (بيريتي ، المرجع المذكور ،ص. 318

(33) دولفان ، المرجع المذكور ، ص.57 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من الأساتذة يدرسون نفس الموضوع في آنٍ واحدٍ . وكان التخصص مبدئياً غير معروف ، إذْ من المفروض أن يكون كل أستاذ قادراً على تلقين أيةِ مادة من المواد الجاري بها العمل . إلا أن المواد التي تعد ثانوية ، كالنحو مثلاً ، كانت تؤول إلى حديثي العهد بالتدريس ، بينما كان الأقدمون يحتفظون بالمواد الأساسية ، وخاصةً الفقه .

وكان أساتذة الطبقة الأولى ، وعددهم 17 في سنة 1904 ،[34] يتمتعون بسمعة كبيرة ، ويدعون « العلماء الكبار » بالإضافة إلى أنه كان لبعضهم شهرة تكميلية ، وهم الذين كان لهم الحق في الحصول على كرسي . فكان جميع أساتذة الطبقة الأولى يتمتعون مبدئياً بهذه المزية ؛ وفي الواقع لم يكن هناك سوى ستة كراسي في بداية القرن العشرين ، وكان سيدي محمد بن جعفر الكتاني هو الوحيد الذي يعتلي كرسياً لشرح **صحيح البخاري** . وحسب بيريتيي الذي يروي هذا التفصيل[35] ، كان هناك ثلاثة أساتذة آخرين في ذلك العهد يتمتعون بهذه المزية ، وهم الفقهاء السيد أحمد بن الخياط ، والسيد محمد القادري ، والسيد التهامي كْنون ، لكن أحداً منهم لم يستعملها احتراماً إنسانياً منهم . ووضع بيريتيي كذلك[36] قائمة بالأساتذة العاملين بجامعة القرويين سنة 1906 ، تضمنت 41 اسماً ، وحسب المعلومات التي استقيتها من الفاسيين الذين كانوا يدرسون ، في ذلك العهد ، بالقرويين ، كان هنالك نحو ثلاثين مشهورين كعلماء حقيقيين بالمدينة .

لا يمكن القول إن هؤلاء الأساتذة كانوا يشكلون هيئة حقيقية ، إذ لم يكونوا مجموعين في منظمة شبيهة بالطوائف الاقتصادية ، وكانوا ، على غرار العلماء في الغالب ، منقسمين على أنفسهم بسبب مشاحنات شخصية لا تغتفر . كما كانت بينهم تحزبات قليلة الاستقرار جداً ينضم إليها هذا أو ذاك

---

(34) أوبان ، المرجع المذكور ، ص . 281 .

(35) المرجع المذكور ، ص. 317 .

(36) المرجع المذكور ، ص. 344 - 345 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حسب نزوته وفائدته الوقتية ، ولم تكن منقطعة الصلة عن تحزبات المجتمع الفاسي . لا يتصرفون كتلة واحدة إلا لتنصيب سلطان جديد ، أو للاستجابة إلى الفتاوى التي كان العاهل يطلبها منهم أحياناً .

وكانت فاس تقدر علماءها أيما تقدير : لا ترى فيهم شيوخاً يستلزم سنهم الاحترام ، ومثقفين ينشرون سمعتها في أقطار المغرب والعالم الإسلامي فحسب ، لكنها كانت تعتبرهم أيضاً كمرشدين روحيين ، وأناس تبحروا في العلم الوحيد الذي يحسب له حسابه ، ألا وهو العلم الصادر عن الله تعالى . فكيف يمكن الاستغراب من كون هؤلاء العلماء يعجبون بأنفسهم ؟ إن عدداً من الرحالة الأوروبيين ، كعلي باي ومولييراس ، وغيرهما عابوا كفايتهم وقالوا إنهم لا يعرفون شيئاً كثيراً ، إذا اعتبرنا كل شيء ؛ وحاولوا حتى أن يحملوهم على تقييم تفاهة معرفتهم ؛ وظن الأول أنه توفق إلى ذلك[37] ، وغضب الثاني لعدم تمكنه من إقناعهم . وكان ذلك دليلاً على عدم الاطلاع على الوسط الذي كانوا على صلة به : فالقرويين ، وفاس ، والمغرب كانت كلها منكمشة على نفسها، بدون أي اتصال تقريباً مع سائر العالم ، مستفيدة بالتنزيل الذي كان عشرات الملايين من البشر يعتبرونه الحقيقة الوحيدة . كان ذلك كافياً لتقوية فقهاء فاس في تأكدهم من تفوقهم ، لا سيما وأن مواطنيهم لم يكونوا يجادلونهم فيه .

إلا أنه لا شك في أن شيوخ القرويين لم يعودوا كما كان سلفهم . فقد عاشوا مدة طويلة جداً في عزلة حتى عن العالم الإسلامي ، كي لا يصابوا بنوع من التصلب . لكنهم كانوا يحتفظون على الأقل بذخر نفيس ، هو سنة التعلق بالأشياء الروحية ، وكرامة لياقات تستوجب الاحترام . وعندما كانوا يحضرون في المواسم العمومية أو الأفراح العائلية ، ملتفين في ثياب شفافة ناصعة البياض ، متزنين في إشاراتهم وحديثهم ، متيقنين من حظوتهم ، كان الناس

---

(37) نفس المرجع ، ص. 129 وما بعدها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يحيطون بهم ، ويقبلون كتفهم ، وينصتون بإمعان إلى كلامهم ، ويسألونهم نصيحةً أو سنداً في النوازل الصعبة . ولم يكن للسلطان الجديد نفسه حكم ثابت إلا بعد أن يكون فقهاء فاس قد اعترفوا بمشروعيته في تصريح علني يقرأ في جميع مساجد المملكة الشريفة . فكانوا إذن يتمتعون في وسطهم الاجتماعي بتأثير كبير جداً .

الطلبة : ـ من المستحيل معرفة عدد الطلبة في أوائل القرن العشرين. فالمعلومات التي لدينا حول الطلبة « الداخليين » غير مضبوطة ، اذ تتراوح الأرقام بين330 و450[38] ؛ ويستحيل بالأحرى الحصول على بيان ولو تقريبي عن عدد التلاميذ « الخارجيين ». فيكون الاقتصار إذن على تقديرات مبهمة جداً. غير أنه حسب شهادة الفاسيين أنفسهم ، يمكن التيقن من أن عدد الطلبة انخفض جداً حوالي نهاية القرن التاسع عشر : ففي بداية حكم مولاي الحسن كان عددهم يناهز الألف[39] ، بينما لم يعد يبلغ سوى 600 أو 700 في أوائل القرن العشرين[40] .

كان هؤلاء الطلبة منقسمين إلى صنفين متميزين بوضوح : الفاسيون ، والغرباء عن فاس (الآفاقيون) . كان الفاسيون ينهون دراستهم الابتدائية بالمدينة ويتابعون عيشهم في أسرتهم ؛ وكانوا ، في الغالب ، شباناً موسرين ينتمون إلى بيئةٍ مشبعة بالتقاليد الفكرية ويحضرون دروس الجامعة، راغبين في أن يعودوا أساتذة فيها ، ويحصلون على وظيف عمومي ، أو على بعض المبادىء الثقافية الضرورية كذلك لمن ينضم الى نخبة فاس قبل الاشتغال بالتجارة . كما كان يوجد بعض أبناء الصناع وأصحاب الدكاكين أو خدام المخزن ممن لاحظ نجابتهم أحد معلمي القرآن أو أصدقاء العائلة ، وكانوا

---

(38) من 330 إلى 390 ، حسب پيريتي، نفس المرجع ص 305) و 450 تقريباً حسب المذكرة حول التعليم .

(39) پ. مارتي ، نفس المرجع ، ص.27 .

(40) يعطي دولفان، نفس المرجع ، ص.22 عدداً يناهز 700 حوالي 1888 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يحاولون الارتقاء في السلم الاجتماعي عن طريق العلم .

وكان الطلبة الآفاقيـون شديـدي الاختلاف ، لا من حيث أصلهم فحسب ، ولكن بالخصوص من حيث الكيفية التي ينظرون بها إلى دراساتهم ومستقبلهم.وإذا كانوا في معظمهم فقراء،فإن تفكيرهم في ارتقاء بعض درجات السلم الاجتماعي أقلُّ من تفكيرهم في الحصول على معاشهم . لذلك كانوا يأتون إلى الجامعة لا للبحث عن العلم ، والارتياح وإمكانيات العمل التي تمنحها ، ولكن للبحث حقاً عن بعض المعلومات البسيطة الضرورية ليزاولوا في قريتهم وظائف معلم القرآن ، أو كاتب عمومي ، أو عدل ، أو كاتب للقاضي أو القائد .

ولانشغالهم بأمور مختلفة الى هذا الحد ، لم يكن الفاسيون والغرباء يحتكون كثيراً بعضهم ببعض ، إذ كان كل شيء يفرق بينهم : التكوين الفكري ، والعادات ، وأسلوب العيش . كان الفاسيون ينظرون إلى أصحابهم القرويين بتسامحٍ ، إن لم يكن بازدراء ؛ وكان الآخرون يحترزون من هؤلاء الشبان الوقحين المستهزئين ويحسدونهم على ألا يكونوا إطلاقاً مهتمين بالخبز اليومي . ولم يكونوا يجتمعون معاً إلا في إبان عيد الطلبة .

كان بعض « الآفاقيين » ممن لهم مال أو أصدقاء ، يجدون حجرة بالمدينة ، لكن جلهم من الفقراء والذين لا صلة لهم بالمدينة ، كانوا ملزمين بالبحث عن ملجأٍ في المدارس . وكانت ست مدارس فقط هي التي ما زالت تستقبل الطلبـة ، هي مدرسـة الصفارين ، والعطارين ، والمصبـاحية ، والشراطين حول جامع القرويين ، ومدرسة باب عجيسة[41] ، وأخيراً مدرسة مولاي عبد الله في الحي الذي يحمل نفس الاسم بفاس الجديد ، حيث كان

---

(41) أوبان ، المرجع المذكور ، مذكرة حول التعليم ، پيريتي ، المرجع المذكور ، ص. 265 - 271 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يجتمع طلاب مبتدئون يتممون حفظ القرآن[42]،قبل متابعة الدروس بالقرويين والدخول إلى مدرسة أخرى .

كانت مدرسة الصفارين تؤوي نحو 60 طالبا ينتمي جلهم إلى سوس ، وزرهون وبني زروال . كما كانت ملجأً للوافدين الجدد الذين يقطنون هناك ريثما يجدون حجرة في المدرسة التي وقع اختيارهم عليها[43] . وكان المدنيون يسكنون مدرسة العطارين ، ففيها شبان من طنجة ، والعرائش ، والقصر ، والقبائل المجاورة ، وكان عددهم يتراوح بين 50 و60 طالباً[44] . ولم يكن يسكن في مدرسة باب عجيسة غير جباله ، ويتراوح عددهم بين 40 و60 طالباً ؛ وكانت أصغر المدارس كلها وأقلها اعتباراً[45] . كما كانت المدرسة المصباحية ملتقى الطلبة من جنوبي غربي المغرب : مراكش والحوز ، وعبدة ، والشياظمة ، ودكالة ، وتستطيع إيواء حتى 140 طالباً . في حين كانت مدرسة الشراطين أوسعها جميعاً حيث يقطن 150 داخلياً ، ويوجد بها الجزائريون ، والفيلاليون ، والريفيون وأهل المغرب الشرقي . وهكذا كان لكل مدرسة زبناؤها وبالتالي مظهرها الخاص . ومع ذلك لم أجد أي بيان يسمح باعتقاد أنه كان أي عداء بينها إطلاقاً ، لأن التضامن بين هؤلاء الغرباء عن المدينة الناتج أيضاً عن دراساتهم وهمومهم المادية ، كان ينتصر على اختلاف مشاربهم .

كل هذه المدارس كانت خاضعة لنفس النظام . « يدير » كل واحدة منها

---

(42) بيريتبي ، نفس المرجع ، ص.286 ، مذكرة حول التعليم . ويشير بيريتبي (ص.278) من جهة أخرى إلى أن عدة حجر بالمدرسة البوعنانية كان يحتلها قدماء الطلاب ؛ ونفس الشيء بالنسبة لمدرسة الصهريج (نفس المرجع ، ص.273 ، لكن هاتين المدرستين كانتا أبطلتا بصفة رسمية . .

(43) انظر السيد الفاتحي التازي ، في وثائق أصدقاء فاس؛ وبيريتبي، المرجع المذكور، ص. 265 .

(44) نفس المرجع ، ص.288 .

(45) نفس المرجع ، ومذكرة حول التعليم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدم وهو بواب في نفس الوقت وخادم وحارس ، يعيّنه الطلاب أنفسهم ويعزلونه ، لكن يعترف به المخزن الذي لم يكن يشترط فيه إلاّ أن يكون أعزب ، ويؤدي له كأجرة من 20 إلى 30 مثقالاً في الشهر ، أي من 7 إلى 10 بسيطات حسنية ؛ بالإضافة إلى أنه كان يسكن في حجرة صغيرة قرب الباب الرئيسي ، ويتسلم بعض الهدايا من الطلبة ، وأرباحاً زهيدة عن توزيع الخبز والزيت الممنوح للإنارة ، وأجرة طفيفة عن الأذان . ومن الأكيد أن مثل هذا المرشد لم يكن ليزعج الداخليين كثيراً[46] .

كان هؤلاء يسكون في حجيرات تقع في الطابق الأول ، وعند الاقتضاء في الطابق الثاني للعمارة ، حول الفناء المركزي ، أو حول الساحات الصغيرة المتلاصقة . كانت هذه الحجرات مبدئياً فردية ، إلاّ أنها في الواقع تؤوي اثنين أو حتى ثلاثة ، رغم ضيقها . كانوا ينامون فيها ، ويعملون ، ويطبخون ، بل ويستقبلون الزوار بها كذلك . وكان الطلبة يجدون بها بعض الراحة ، لشدة ما تعودوا عليه في منازلهم القروية الخشنة . وكانت السكنى بالمجان لأن المدارس ملك للأحباس ؛ لكن استعمال حق المفتاح قد تسرب إلى هنا كغيره من الأماكن، لأن بعض عائلات فاس كانت تنتفع بحجرة تسلمها لمن شاءت من الطلبة ؛ وكانت جل الغرف تسلم ، في مقابل مال ، للمكترين الجدد من طرف سابقيهم ، وذلك بسبب الإصلاحات التي من المفروض أن يكون هؤلاء قد أدخلوها عليها[47] ، والمقدم هو الآخر لم يكن غريباً عن هذه المتاجرة البسيطة[48] .

كانت الأحباس تقدم للطلبة الماء الصالح للشرب ورغيفاً كل يوم ،

---

(46) بيريتي ، المرجع المذكور ، ص.288 .

(47) كانت هذه العادة معمولاً بها أيضاً في المدرسة الإقليمية العليا بباريس بالنسبة لقاعات العمل (غرف)

(48) كان شراء حق المفتاح يساوي من 20 إلى 200 ريال حسب الحالات (أوبين ، المرجع المذكور ، ص.281) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يوزعه المقدم ولو خلال العطلة[49] . وفيما عدا ذلك كان على كل واحد أن يحصل بنفسه على قوته[50] . فمن كانت لهم بعض الموارد كانوا يستحضرون أو يتسلمون من أهلهم المؤن : وهكذا كان أحسنهم حظاً يدخرون للسنة صاعاً من الكسكسو ، و 20 رطلاً من السمن الذائب المحفوظ في قربة ، و 50 كيلو من اللحم المصبر ، وكيساً من التين ، وكيساً من التمر ، وكيساً من الزبيب[51] .

لكن أغلبهم لم يكونوا يتمتعون بمثل هذه الثروات ؛ فكان عليهم إذن إمَّا أن يكتفوا بخبز الأحباس ، وإما أن يجدوا وسيلة للحصول على بعض الطعام . وكان لذلك طريقتان معروفتان جداً عند الطلبة يلجؤون إليهما معاً : الأولى كسب شيء من المال عن طريق القيام بقراءات دينية في أحد المساجد ، أو الزوايا أو بمناسبة وفاة ، أو مزاولة مهنة كاتب لأحد أعيان فاس ؛ والثانية ، وهي الأكثر استحساناً ، تناول طعام من عند أحد أغنياء فاس : كانت العادة تقتضي منذ القديم أن تقوم الطبقة الموسرة بعمل صالح لوجه الله بإطعام طالب أو عدة طلاب ؛ ويذكر[52] أن أحد أعيان فاس الجديد كان يتصدق حتى بثلاثين طبقاً من الكسكسو على الطلبة في كل يوم . لم يكن هؤلاء يتناولون الطعام على مائدة المتبرع ، بل كانوا يستلمون معاشهم اليومي بباب منزله ، كالمتسولين أو الضيوف الغير المعروفين .

---

(49) كان التزويد بالخبز يؤمنه حبس خاص ، هو حبس الخبز . فكانت إدارة الأحباس تتفق مع طحان ليزود يومياً الفرن المعين بالكمية الضرورية من الدقيق ؛ فكان مقدم كل مدرسة يذهب إليه لتسلم خبز مؤسسته . ولم يكن خبز الطلبة ، خلافاً لما كان يخبز بقصد البيع ، خبزاً بائتاً قط .

(50) كان المحزن قديماً يمنح صلة للطلبة بمناسبة الأعياد الكبرى ، قدرها مائة ريال لكل مدرسة . وقد ألغيت هذه العادة حوالي 1900 (مذكرة حول التعليم) .

(51) الفاتحي التازي ، قصة الطالب سيدي العزيز ، في وثائق أصدقاء فاس ، وبودجيت ميكين ، المرجع المذكور ، ص. 307

(52) بيريتيي ، المرجع المذكور ، ص.291 يشير نفس المؤلف إلى أن هذه العادة كانت على وشك الانقراض في بداية القرن العشرين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان طلاب فاس ، على غرار جميع طلاب العالم ، يجدون بين دراساتهم والبحث عن قوتهم ، مزيداً من الوقت للتسلية ؛ فكانوا يجتمعون ليلاً فيما بينهم في حجيراتهم على الضوء المرتعش لشمعة أو مصباح زيتي وهم يتحدثون ويتناولون الشاي ؛ كان موضوع الحديث ، حسب النزوة والأفراد ، هو دروس اليوم أو مناقشة فقهية ، ولكن أيضاً الأساتذة والحوادث الصغيرة بالمدينة ، والمغامرات الغرامية لهذا أو ذاك ، لأن هؤلاء الغرباء الأقوياء لم يكونوا دائماً نماذج للفضيلة . وكانوا ينظمون في فصل الربيع نزهات في بساتين فاس والتلال المحيطة بها ، يستدعون لها أحياناً أستاذاً أو أستاذين[53] ، كما كانوا يستدعونهم في المدارس .

وأخيراً ، كانت هنالك احتفالات جامعية يساهم فيها جميع الطلبة ، الفاسيون وغيرهم على السواء. فإذا ختم أحد الأساتذة شرح **مختصر** سيدي خليل[54] كان الطلبة يرفعونه على أكتافهم ويحملونه بانتصار إلى القاعة الكبرى للمدرسة المصباحية، حيث يأتي الجمهور لتهنئته[55] بعد أن يكون قد قدم له تلاميذه بالباب هدية التمر والحليب ، مثلما تقدم للسلطان عند دخوله إلى المدينة. ومن جهة أخرى ، عندما يكون أستاذ قد أنهى شرح كتاب هام ، كان ينظم حفلة استقبال تسمى الختمة . وبعد تناول الطعام يلقي على تلاميذه محاضرة حول المادة التي ختمها فيقدم له التلاميذ وأعيان المدينة هدايا .

وأكبر احتفال طلابي كان بلا مراء هو حفل سلطان الطلبة الذي كان ينظم في ربيع كل سنة . لا فائدة في الرجوع إلى أصل هذا الاحتفال الذي كتب عنه الراحل پ. دوسينڤال مقالاً نهائياً[56]. ويرجع هذا الأصل إلى ما قبل النصف

---

(53) پيريتي ، المرجع المذكور ، ص. 305 . وكان بعض الأساتذة في القديم ينظمون حتى شبه تفسحات مدرسية ، لكن هذه العادة انقطعت حوالي آخر القرن التاسع عشر .

(54) يذكر پ مارتي (المرجع المذكور) أن أستاذاً قضى ثمانية وعشرين سنة في شرح هذا الكتاب ، وأن آخرين يُنهون شرحه في ظرف سنتين أو ثلاث سنوات .

(55) بيل ، كتابات عربية ، ص. 232 .

(56) پ. دوسينڤال ، أسطورة اليهودي ابن مشعل وحفل سلطان الطلبة بفاس ، في هيسبريس ، =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثاني من القرن السابع عشر . فجل الذين كتبوا عن فاس تحدثوا قليلاً أو كثيراً عن هذا الحفل الذي يثير مجرد اسمه حب التطلع ويذكر بمشاهد رائعة ؛ وقد حضرته بنفسي عدة مرات ، لكن في عهد كان قد فقد، حسب قول من يستطيعون القيام بمقارنات ، الكثير من بهائه .

لم تكن الإعدادات بأقل أهمية من الحفل ذاته . ففي بداية الربيع ، حوالي منتصف أبريل ، بعد إشعار المخزن بلهجة سلطوية مضحكة بعزم الطلبة على تنظيم عيدهم ، كانت وظيفة السلطان تعرض للبيع بالمزايدة . ومن العادة أن يرغب فيها طلاب المدارس فقط ، ولا يشارك الطلاب الفاسيون في المسابقة . لكن أعيان فاس يحضرون وهم الذين يوصون السلطان الوقتي ، إذ من المتفق عليه منذ زمن قديم جداً أن هذا الأخير بإمكانه أن يطلب من العاهل (الحقيقي) أن يمن على هذا أو ذاك ، أو أن يعفو أيضاً عن أحد المحكوم عليهم أو المعتقلين . فإذا كان لبعض أعيان فاس قريب أو محمي في هذه الحالة ، كانوا يعملون على تحقيق انتخاب سلطان الطلبة الذي يطلب في مقابل ذلك العفو المرجو . لذلك كانت المزايدات تتغير من سنة إلى سنة ، حسب عدد وثروة من كان في صالحهم أن يضمنوا نجاح مرشح ما : فقد بلغت المزايدة سنة 1889 حتى إلى 100 ريال[57] ولم تبلغ سنة 1886 إلا 50 ريالاً[58] .

كان المبلغ المحصل عليه يشكل مالاً أولياً لتنظيم الحفلة ، لكنه لم يكن كافياً . فكان الطلبة ينتشرون في المدينة لجمع التبرعات ، وهم يقلدون جباة الأسواق ، والقاضي أو شيخ التجار ؛ كان التجار والأعيان يتبرعون عن طيب

= عدد 5 ، 1925 ، الثلاثة الأشهر الثانية ص. 137 -218 . توجد بهذا المقال ببليوغرافيا كاملة عن الموضوع . وفي علمي لم يكتب شيء منذ ذلك العهد روايات بعناصر جديدة .

(57) طروطر ، المرجع المذكور ، ص. 188 .

(58) تشارمز ، المرجع المذكور ، ص. 303 . وحسب پ مارتي (المرجع المذكور ص.45) ، فإن وظيفة سلطان الطلبة اشتريت بـ 22.500 فرنك سنة 1923 وبـ 13.500 فرنك فقط في 1924 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خاطر، كما كان الطلبة يطلبون من الشخصيات المخزنية وقواد القبائل على شكل رسائل شريفة تلزمهم بدفع مبلغ كذا[59] . وكان الطلبة يلجؤون أحياناً إلىٰ مباريات خارجية : يستأجرون أحد الفاسيين المعروفين بفصاحتهم ويجعلون منه المُنَشِّط لمهزلتهم .

وكانوا يجمعون المال ويعدون جهاز التخييم في نفس الوقت ، إذ كان لا بد من التخييم بضعة أيام على ضفاف وادي فاس في عالية المدينة ، على مرأى من أسوار دار المخزن . وكانت المصالح الاقتصادية للقصر وعامل فاس

---

(59) وفيما يلي نموذج لرسالة من هذا النوع نقلها تشارمز (المرجع المذكور ص. 306 -308) وأطلعه عليها كاتب مغربي من بعثة فرنسا كان قد توصل بها :

« الحسين الغماري ، سلطان الطلبة ـ رعاك الله

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه ! إلى خديمنا الأرضي العالم العلامة سيدي أحمد البدوي ، أمنكم الله ووقاكم من كل شر وحفظكم من كل ضرر !

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، من قبل مولانا أيده الله ونصره وبعد ، فإن مولانا سلطان الطلبة الحائز لكل الفضائل والموزع لكل الخصائل الحميدة ، يأمركم بأن تبلغوا هذا الكتاب إلى السيادات الكريمة المؤيدة بالدين الاسلامي ، المسافرة برفقتكم ، أي الآتية معكم من الجزائر ، أبلغوهم بأن جيشنا السعيد سيعسكر نهار يوم السبت ، إن شاء الله ، على ضفتي وادي الجواهر ، بين سكان بني برغوث وبني بق ، وبني فار .

وقد فرضنا عليهم لمؤونة جيشنا المحروس بالله إتاوة لا تعدّ ولا تحصى ، فضلاً عن الإتاوة التي فرضت لصالح مولانا نصره الله ، إلخ . . .

وامروا بالطاعة والاستسلام ، حتى يبعثوا إلينا بألف فحل من جنس الخيل يمتطيها البعوض وتسرج بقشور البلوط ، وكذلك بألف خنزير سمين جداً لأتباع السلطان .

وأكرموا حامله حتى لا يستطيع حمل ما ستهبون له ، واصحبوه بحرس حتى يصل إلينا بأمان بسبب كثرة قطاع الطريق في بلاد غريبة (حلويات) والفتن التي يقوم بها سكان كعب غزال (حلويات أخرى) .

يجب ألا يقع تأخير في إرسال هذه الهدايا والسلام ! وحرر في شهر اللبن عام السكر والشاي وما شابههما .

وإن لم يمتثلوا لأوامرنا ، أرسلنا عليهم قبائل البعوض التي لا تتركهم في راحة إلا إذا أعطوا ما ذكر في رسالتنا . والسلام . عام 1622 .

وكانت تحمل هذه الرسالة الجميلة كتوقيع ، طابعاً اشبه ما يكون بطابع الملك » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يضعون عادة رهن إشارة الطلبة الخيام الضرورية والدوابّ التي تنقلها .

وفي هذه الأثناء ، يكون السلطان الجديد قد اختار وزراءه وأعيان حاشيته من بين زملائه بالمدرسة ، ما عدا صاحب الصندوق الذي كان تقريباً دائماً رجلاً جدياً ومحنكاً ، تاجراً أو موظفاً[60] .

وكان سلطان الطلبة يتلقى يوم الجمعة الموالي لانتخابه ، من المخزن شعائر سلطنته ، أي : المظلة ، وَالمنشة، والفرس ، والحرس . فيقوم إذ ذاك بخروجه الأول ، مصحوباً بموسيقى الموكب بمزاميرهم وطبولهم و (نفافيرهم) ، وسط جمهور غير منظم . يذهب إلى جامع الأندلس ثم يخرج من المدينة عبر باب فتوح ، ويصعد إحدى ربوات روضة باب فتوح ، ويستجم أمام ضريح سيدي ابن حرزهم (حرازم)[61] مولى الطلبة ، حيث أقبر كذلك ، حسب الرواية التقليدية ، مولاي رشيد ، منشىء الحفلة .

وكان الموكب يشكل مرة ثانية ، يوم الغد السبت ، بنفس النظام ، ويتوجه هذه المرة نحو باب محروق ليلتحق بسهل واد فاس عبر باب الساكمة . ويكون المخيم قد نصب هنالك ؛ فيضاف إلى أخبئة الطلبة خباء عامل فاس الجديد المكلف بالسهر على النظام ، وأخبئة الفاسيين العديدين الذين كانوا يأتون للاستراحة والتسلية لبضعة أيام برفقة الطلبة ، في مقابل هدايا كما لا يخفى . كانوا يقضون هناك أسبوعاً على الأقل وهم يأكلون ، ويشربون الشاي ، ويستقبلون الأصدقاء، ويمرحون ويستمعون إلى الموسيقى . وكانت فاس كلها تتقاطر على هذا المخيم ، إذا كان الطقس جميلاً ولو قليلاً .

وفي اليوم الثالث أو الرابع ، يقدم شخص من الأسرة الشريفة حاملاً هدية السلطان ، وهي عبارة عن مؤن ونقود ، كما يرسل اليهود هدية ، لكنها

---

(60) پ . دوسينفال ، المقال المذكور ، ص. 140

(61) انظر ما سبق ، الكتاب 2 ، الفصل 2

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هزلية إذ تكون البقر والغنم المعلن عنها في الواقع قططاً وفئراناً في أقفاص. وأخيراً في اليوم السادس ، كان السلطان الحقيقي ، إن وجد بفاس ، يزور سلطان الطلبة : وفي هذا الاحتفال الذي يمتزج فيه البروتوكول بالسخرية امتزاجاً شديداً[62] يلتمس خلاله سلطان الطلبة المن والعفو التقليديين والإذن باستمرار الحفلة أسبوعاً. وفي أثناء الليلة الأخيرة للمخيم ، كان على سلطان الطلبة أن يتخلص دون أن يراه أحد ويلتحق بمدرسته بدون أبهة ، وإلا تعرض من طرف أصحابه إلى لطمات عنيفة ، واستحمام إجباري وغير ذلك من الكوارث من هذا النوع .

إننا لا نستطيع أن نلح كثيراً على الطابع الهزلي المتصنع لهذه الحفلة التي كان الطلبة لا يخشون تقليد أكبر أصحاب الرتب المخزنية العليا حتى بمحضرهم ، لكن مع مراعاة المراسيم المعمول بها في الحاشية الشريفة بكل دقة . وهكذا كانت تسليتهم تتخذ طابعاً متصنعاً غريباً جداً ، لا يشبه في أي شيء الخشونة وتجاوز آداب الحياة في الحي اللاتيني .

ويؤكد التاريخ انطباع الثبات الذي يتركه حفل سلطان الطلبة ، إذ لم يسمع قط أن طلبة فاس تسببوا في اضطراب خطير بالحاضرة ، ولم يرو أي مؤرخ أن المدارس قاومت حصارات أو أن حي القرويين كان مسرحاً لعمليات استراتيجية [63] ؛ بل على الأكثر كان الداخليون بالمدارس يعبرون أحياناً عن غضبهم بكيفية عنيفة إذا أصبح الخبز رديئاً أو غير منتظم التوزيع[64] .

---

(62) انظر عن التفاصيل پ. دوسينفال ، المقال المذكور ، ص 143 -145 ، ودوتي، **الخطبة الهزلية بحفل الطلبة بالمغرب** .

(63) بدون الرجوع حتى إلى العهد الوسيط ومعارك الطلبة مع رماة المحازة ، فإننا نتذكر أن الحي اللاتيني ، في ربيع 1925 ، كان في حالة عليان طوال يومين أو ثلاثة أيام ، وأنه شوهدت صفوف من المتظاهرين وهم يقومون بحركات دائرية في دروب جبل سانت ـ جونفياف ، وأن الشرطة اضطرت إلى محاصرة كلية الحقوق . لا شيء مثل ذلك بفاس .

(64) پيريتي ، المرجع المذكور ، ص. 291 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويمكن الاستغراب من كون أربعمائة أو خمسمائة من الشبان الأشداء طلبة المدارس ، لم يقع التحدث عنهم بأكثر من هذا . لعل اهتمامهم بشرفهم كطلبة للّاهوت كان من أسباب ذلك ؛ لكنني أظن أنه يجب البحث عن أهم داع لذلك في الواجب الاجتماعي الكبير الذي يفرضه الوسط الفاسي . فكان العشرات من القرويين الوافدين على فاس كل سنة يشعرون فوراً كأنهم واقعون في شرك مجتمع يخدعهم بثقافته ، ومدنيته ، وتهذيبه ، ولم يكونوا في البداية سوى مفتونين . حقاً إنهم بعد شهور قلائل وبمساعدة العادة ، كان بإمكانهم أن يعارضوا ويفلتوا من هذا الافتتان ، لكن هيهات ! لم يعودوا بعدُ ما كانوا عليه عند وفادتهم ؛ فقد سبق أن رسخ فيهم شعور الاحترام تحت تأثير أساتذتهم ، والمحيط العام ، وحتى أصحابهم القدامى ، فيسوقهم كما يسوق سائر المدينة ، وهو يفيدهم بأن الطالب شخص على حدة ، شبه مقدس ، لا يمكنه أن يساهم في الاضطرابات الباطلة للحاضرة ، تحت طائلة فقد الحظوة إزاء نفسه . وقد تعلموا عدم الاستسلام للاندفاعات الوقتية ، وعدم القيام بأي شيء إلا وفق التقاليد والقاعدة بدون زيادة شيء عليهما . وحتى الهزل كان اصطلاحياً محدداً بدقة عن طريق العادة .

وكان نفس الشيء بالنسبة لدراساتهم : فلا مبادرات فردية ، ولا مجهود خلاق(*) ، إذ لم يكن يهمهم اكتشاف حقيقة متغيرة باستمرار ، ولكن التلقي للحقيقة التي كشفها للناس رسول الله بكاملها ممن أخذوها بدورهم عمن سبقهم ، وأن يكونوا جديرين بتبليغها كما هي لخلفهم . ومن أجل ذلك ، كان لا بد من التشبع جيداً بالمعارف والطرق للعلماء الأساتذة ، وأن يصطنعوا لأنفسهم ذاكرة لا تخون وأن ينصتوا ويحصلوا . وهكذاكان طلبةفاس يحتذون شيئاً فشيئاً بشيوخهم الذين كانوا يولونهم أكبر احترام ويؤدون لهم جميع

(*) العجب للمؤلف يكتب هذا وقد عاش بفاس فترة مخاض الحركة الوطنية المغربية وتطورها قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها ، ورأى وسمع وتحقق بالمبادرات المدهشة التي كانت لطلبة القرويين ! (مترجم)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخدمات الممكنة بغية استحقاق عنايتهم . لم يحاولوا قط رد فعل ولا تشككاً مبدئياً ، ولا شيء لديهم أغرب من موقف روح ثورية لم يكونوا حتى يستنكرونها ، لأنها لم تكن تخطر ببالهم . فالعقيدية والامتثالية هما الخاصيتان الغالبتان للقرويين ، وعندما كان النزق ورغبة الشباب في الانفجار يتجليان ، فإن المسالك المرسومة جيداً لحفلة الطلبة كانت منصوبة أمامهم لتوجيههم : فمنذ ثلاثمائة سنة ، كان شباب فاس يشفي غلته بمحاكاة المخزن الساخرة التقليدية ، وبالدعابات حول البراغيث ، والبق والفئران ، وبجو البهجة الشعبية المتزنة الذي يكتنف كل ذلك .

مؤسسات التعليم الأخرى : - لا ينبغي الاعتقاد بأن المجهود المبذول لتحديث التعليم المغربي يعود تاريخه كله إلى الحماية . فقبل 1912 كانت فاس مسرحاً لبعض المحاولات في هذا الاتجاه ، محاولات أصبحت بدون غد ولا نتيجة عملية ، ولا بد من الاعتراف بذلك ، لكنها محاولات من المفيد الإشارة اليها .

على إثر هزيمة إيسلي مباشرة عزم مولاي عبد الرحمن ،وقد أدرك أن الجيش الشريف لن يستطيع أبداً أن يقاوم الجيوش الأوروبية ما لم يتغير ، على إنشاء مدرسة للتقنيين أقامها بمدرسة دار المخزن واتخذت إذ ذاك اسم مدرسة المهندسين[65] ؛ وكانت تعطى بها دروس في العلوم بعض الوقت ، تحت إشراف الشريف مولاي إدريس البلغيتي ،لكن هذه المحاولة لم تكن لها نتيجة .

واستؤنفت هذه المحاولة سنة 1906 من طرف وزير الحرب الحبّاص الذي استحضر إلى فاس مصرياً ، هو رشيد أفندي ، وأسند إليه تعليم الرياضيات التي كان يدرسها في نفس دار الوزير لأحد عشر تلميذاً على نفقة المخزن . ولم تدم هذه المحاولة أكثر من سابقتها .

وحاول الاتحاد الفرنسي ، من جهته ، أن يفتح مدرسة للمسلمين ، كما

---

(65) انظر في هذا الصدد بيل ، كتابات عربية ، ص. 97-116 ، وبيريتي ، مدارس ص. 275

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فعل بالنسبة لليهود : وكان الأمر يتعلق بدرس باللغة الفرنسية لفائدة الكبار يقوم به مستخدم بالبريد ، وهو جزائري مسلم . أخفقت محاولة أولى سنة 1899 ـ 1900 ، ولم تعرف محاولة ثانية نجاحاً أكثر سنة 1906 -1907 وذلك لأسباب سياسية في كل مرة[66] .

(66) مذكرة حول التعليم . ولم تفتح بفاس المدرسة الفرنسية ـ الاسلامية الأولى الا سنة 1911 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثاني
الكتب والخزانات

لم يكن الاتجار في الكتب مزدهراً جداً ، رغم وجود جامعة ، كما بينت ذلك سابقاً[1]،وليس أكثر كذلك من القرن السادس عشر[2] . وذلك ناتج عن صعوبة الاستيراد وضعف الإنتاج المحلي ، وعن المكانة المتفوقة المخصصة للذاكرة في التعليم ، وعن العدد القليل للكتب المستعملة بالقرويين أيضاً . وأخيراً فإن الطلبة لما كانت لهم أوقات فراغ ، فإنهم لم يكونوا يترددون في استنساخ النصوص التي هم في حاجة إليها ، يستعيرونها ممن هم مزودون بها أكثر منهم أو يجدونها بخزانة الجامعة .

الخـــزانـــات : ـ هذه الخزانة[3] [خزانة القرويين] التي قيل إن السلطان المريني أبا عنان (القرن الرابع عشر) هو الذي أسسها ، والسلطان السعدي أحمد المنصور هو الذي وسعها ، كانت غنية جداً في القديم . وقد

---

(1) انظر ما سبق ، الكتاب 5 ، الفصل 4 ، ص. 376 -377 .

(2) يدلي ليون الإفريقي برقم 30 دكاناً للكتبيين ، بينما لم يبق منها سوى 10 حوالي 1900 ؛ لكن التفاصيل التي يقدمها كلينار ، عن بيع الكتب بالمزاد (ر . لوطورنو ، كلينار ، ص. -60 59) تدل على أنها كانت شيئاً نادراً في ذلك العهد ، إذ كانت تباع جزءاً جزءاً .

(3) انظر عن خزانة جامعة القرويين، على الخصوص بيريتي ، المرجع المذكور ص. 357 - 367؛ محمد بن الحسين العراقي ،خزانة جامعة القرويين ، في وثائق غير منشورة لأصدقاء فاس؛ وأ بيل ، فهرس الكتب العربية لخزانة جامع القرويين بفاس ، 1918 ،وزهرة الآس ، ص. 148 -151 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تردّت شيئاً فشيئاً إلى حالة مؤلمة من التلف والإهمال ، إذ كانت الكتب مكدسة بعضها فوق بعض بغير نظام ، معرضة بسهولة للأرضة . ونظراً لانعدام أي فهرس ، أو سجل للاستعارة ، فإن الكثير من المستعيرين غفلوا عن رد ما استعاروه من الكتب ، بحيث إنه كان يقدر في بداية القرن العشرين عدد الكتب ب2.000، منها 1600 مخطوط، معظمها ضئيل القيمة. كانت حراسة الخزانة تسند مبدئياً إلى مراقب أحباس القرويين ، لكنه كان يحيل هذه المهمة على طالب (مكلف) يوافق عليه المخزن . ونظراً لاختفاء عدد كبير من الكتب ، فقد مُنعت الاستعارة وأصبح على الطلبة أن يطالعوا الكتب في عين المكان ، ويبدو أنهم قليلاً ما كانوا يلجؤون إلى هذه الإمكانية .

وكان يوجد بالقرويين أيضاً ، في الجامع بالذات ، خزانة صغيرة للكتب المستعملة عادة ، أي بعض المصاحف الشريفة وكتب الحديث ، يكلف بها طلبة يحتفظون بمفاتيحها بالتناوب . وتكونت خزانات مماثلة في جامعي الأندلس والرصيف . وكان هؤلاء الطلبة ، كقيم خزانة الجامعة ، يتقاضون من المخزن أجرة قدرها 10 مثاقيل في الشهر[4] .

وهناك خزانة أخرى هي خزانة دار المخزن ، التي أنشأها مولاي عبد الرحمن ووسعها مولاي الحسن . كانت في بناية ملحقة بالقصر ، قرب مشور باب بوجات تزود من الخزانات الخاصة التي تصبح ، لا وارث لها . ولم يكن الدخول إليها سهلاً لوجودها داخل القصر[5] .

وأخيراً كانت هناك بعض الخزانات الخاصة ، المشهورة بغناها ، أهمها خزانة الشريف مولاي إدريس بن عبد الهادي، الذي كان أحد علماء القرويين والمالكين الأثرياء .وكانت تذكر أيضاً خزانة الفاسيين الواقعةبملحقات ضريح سيدي عبد القادر الفاسي ، وخزانة زاوية سيدي أحمد التيجاني بحي البليدة ،

---

(4) بيريتي ، المرجع المذكور ، ص. 359 .

(5) نفس المرجع ، ص. 367 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأخيراً خزانة الكتانيين[6] . ومن المعلوم أن عدداً كثيراً من الفاسيين غير هؤلاء كانوا يملكون خزانات ، لكن نظراً لقلة الكتب ، لم تكن تحتوي على أكثر من عشرات ، وقليل منها على بضع مئات من المؤلفات .

الطباعة الحجرية : ـ لقد اكتفى الكتاب المغاربة لمدة طويلة باستنساخ مؤلفاتهم باليد ، اللهم إلا إذا طبعوها في مصر كمؤلف **الاستقصا**[7] . ولم تنشأ مطبعة حجرية بفاس إلا على عهد سيدي محمد بن عبد الرحمن ، أي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر[8] .

ويبدو أن الفكرة جاءت من حجاج أشادوا للسلطان بالوسيلة التي شاهدوا استعمالها في الشرق ؛ كما يبدو أن المخزن منح تسهيلات لأول طابع ، وهو الحاج الطالب الأزرق الذي أقام مطبعته بدرب الحمام ، قرب سوق الجوطية ، بعدما استحضر من الشرق جهازاً وتقنياً تركياً[9] . وأول كتاب طبع بفاس هو شرح الغزالي للشيخ مرتضى[*] . ونظراً لربح هذه التجارة ، فإن عائلتين أو ثلاث عائلات ، هم القادريون ، وآل ابن الخياط ، وربما آل ابن سودة[10] ، أنشؤوا مطابع في مختلف أحياء المدينة ، وخاصة في البليدة

---

(6) نفس المرجع . لقد أصبحت خزانة الكتانيين لحسن الحظ ملكاً للعلامة سيدي عبد الحي الكتاني الذي جعل منها أجمل خزانة بفاس وفتحها بسخاء في وجه الباحثين .

(7) في مثل هذه الحالة ، كان أحد التجار الفاسيين ، الذي له علاقة منتظمة مع مصر يشتري المخطوط من المؤلف ثم يتكفل بالنشر (أوبين ، المرجع المذكور ، ص. 280) .

(8) توجد عن الطباعة الحجرية بفاس بعض المعلومات المتفرقة عند پيريتي المرجع المذكور ، ص. 363 -366 ؛ وأوبين ، المرجع المذكور ، ص.280 ؛ ودولفان ، المرجع المذكور ، ص. 86 ؛ ومولييراس ، المرجع المذكور ، ص. 150 ؛ وبيرك ، نوازل ؛ ص.17 الهامش 8 . وقد استكملت مراجعي لدى السيد محمد بردلة ، طباع بفاس من قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس الذي تفضل بإفادتي عن هذه الحرفة التي عرفها جيداً .

(9) پيريتي ، المرجع المذكور ، ص. 363 .

(*) بل أول ما طبع على الحجر بفاس هو سنن الترمذي ، واسم أول طابع مغربي الحاج الطيب الأزرق لا الطالب ؛ انظر المنوني ، **مظاهر يقظة المغرب الحديث** ، 1:215 -216 ، والهامش 2 . (مترجم) .

(10) پيريتي ، نفس المرجع ، ومعلومات شفوية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمخفية . غير أن هذه الصناعة الجديدة التي لم يكن لها منافسون بالمغرب ، لم يَتوفر لها أزيد من أربع مطابع[11]، أنجزت الأشغال الأولى للمخزن[12] على ما يبدو . ثم إن الطابعين عملوا بلا مواد لحساب المؤلفين ، أو بالأحرى كان هؤلاء يُمدونهم بالورق[13] ،ويؤدون أجرة عالم مكلف بفحص الكتاب من حيث سلامة الاعتقاد الديني[14] ، وأجرة الطابع الذي كان يقدم هو الآخر المداد واليد العاملة ، أي النساخ[14] وعمال المطبعة ، وكان عددهم اثنين على الأقل . وكان يستعمل أسلوب آخر ، وهو أن الطابع الحجري ، الذي هو كتبي أيضاً ، كان يقوم بدور الناشر ، أي أنه كان يتحمّل جميع مصاريف الطبع ويدفع حقوق المؤلف كلما باع خمس عشرة نسخة أو عشرين[16] .

وحيث إن فاساً هي المدينة المغربية الوحيدة التي تطبع الكتب ، فإن البيع كان سهلاً ، رغم قلة جودة ما يطبع من الكتب بمداد رديء دون اهتمام براحة القارىء . كانت المدينة نفسها تستوعب قسطاً كبيراً منها ، ويباع الباقي في المدن الكبرى الأخرى بالمغرب ، كالرباط، وسلا ، ومراكش ، وتطوان وطنجة . ولم تكن الكتب المطبوعة على الحجر بفاس تباع خارج المغرب ، ومع ذلك اشترى بعضَها أوروبيون على سبيل حب الاطلاع، وخاصة منهم الألمان[17] .

---

(11) وقد أتلفت الأخيرة سنة 1944.

(12) دولفان، المرجع المذكور ، ص . 86 .

(13) وقع استيراد الورق أولاً من مصر، ثم من فرنسا بواسطة دار لحلو وسسوسان. ولم يُصنع قط بفاس .

(14) لم يكن العالم المصحح يمارس مراقبة رسمية ، لكنه يقدم ضمانة بأن العقيدة سليمة . وهو احتياط من طرف الناشر أن يطلب منه رأيه .

(15) كان الناسخ المطبوع اسمه في آخر كل مجلد ، كما هو معلوم ، عالماً ذا خط جميل . وكان أشهرهم ، سنة 1906 هم الفقيه البادسي ، وثلاثة إخوة من أولاد السيد عبد الرحمن ابن سودة ، كانوا يتقاضون من 3 إلى 4 بسيطات حسنية عن كل ملزمة من 8 صفحات (بيريتي ، المرجع المذكور ، ص 364)

(16) كانت تعرض أول نسخة على الكاتب أو ورثته الذين كان بإمكانهم توقيف الطبع ، إذا رأوا أن النشرة رديئة .

(17) لم يحاول طابعو فاس أن يُصدِّروا مطبوعاتهم ، وإنما كانوا يسحبون 300 أو 500 نسخة . وحتى =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد شكلت الكتب التعليمية (بما في ذلك الفقه ، والنحو ، والتوحيد[18] ، والهندسة ، والتنجيم) الرصيد الأساسي لهذه المطبعة الفاسية ، الأمر الذي يبرهن على علاقتها الوثيقة بجامعة القرويين ، والمكانة المكينة التي كانت تحتلها هذه الأخيرة في الحياة الفكرية بفاس . وقد استهوت الطابعين بفاس أيضاً كتب الرحلات إلى الحجاز[19] والكتب التاريخية . وهكذا نشرت مؤلفات كجذوة الاقتباس لابن القاضي[20] ، والجيش العرمرم لمحمد أكنسوس[21] ، ونزهة الحادي للإفراني[22] ، ونشر المثاني للقادري[23] وسلوة الأنفاس لمحمد بن جعفر الكتاب[24] ، وكتب أخرى كثيرة من نفس النوع. أما الشعر وما قد نسميه الأدب فإنهما لم يحتلا إلا مكاناً صغيراً في هذه المجموعة[25] . وسواء تعلق الأمر بالفقه أو التاريخ أو الشعر ، فإن جل الكتب المطبوعة على الحجر بفاس كانت معروفة لدى الجمهور في شكل مخطوطات : ونسبة الكتب الجديدة ضعيفة جداً .

= لو أرادوا ذلك ما استطاعوا لأن طريقتهم في الطبع كانت بطيئة : فكان لا بد من 100 يوم تقريباً من العمل لطبع مؤلف واحد من 400 صفحة في 500 نسخة (معلومات أفادنيها بردلّة)

(18) من جملة كتب التوحيد ، يمكن ذكر المؤلفات السبعة لماء العينين المطبوعة بفاس عند الأزرق ما بين 1310 و1323 . وقد وضع لها المتبصر تحليلاً موجزاً في مجلة العالم الإسلامي ، عدد 1 (يناير 1908) ص.349.

(19) مثلاً رحلة العياشي . انظر عن هذا المؤلف ، ليفي - بروفنصال ، شرفاء ، ص.264.

(20) انظر عن هذا المؤلف ، ليفي بروفنصال ، نفس المرجع ، ص.248-250.

(21) انظر عن هذا المؤلف ، ليفي بروفنصال ، نفس المرجع ، ص.204-213.

(22) انظر عن هذا المؤلف ، ليفي بروفنصال ، نفس المرجع ، ص.120-131.

(23) انظر عن هذا المؤلف ، ليفي بروفنصال ، نفس المرجع ، ص.319-326

(24) انظر عن هذا المؤلف ، ليفي بروفنصال ، نفس المرجع ، ص.377-385

(25) انظر عن المؤلفات المطبوعة بفاس، ابن شنب ، وا . ليفي - بروفنصال ، محاولة لوضع فهرس مسلسل تاريخي لمطبوعات فاس ، في المجلة الأفريقية عدد 62 (1921) ص . 158 - 173 و 275 - 290 و 63 (1922) ص . 170 و 185 و 333 و 347 . وقد أخذ هذه اللائحة بالترتيب الأبجدي هـ . بيريس وأ . ساميري في مجلة الدراسات العربية ، عدد 32 (مارس - أبريل 1947) ، ص . 63 - 70 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد حاول المخزن أن ينشئ بفاس مطبعة حجرية ، وكان مولاي حفيظ هو الذي خطرت هذه الفكرة بباله سنة 1910. فاستحضر آلة ألمانية بحروف من لايبسيش ، بواسطة سوري يدعى يمني[26] .لكن الحماية أقيمت في هذه الأثناء ونُبذت الآلة الجديدة في مخزن اللوازم أو بيعت بخسارة ، لا أدري .

الأوساط الأدبية : لا شيء أكثر غرابة عن فاس من الحياة الأدبية على النحو الذي نتصور فيه بفرنسا منذ القرن السادس عشر على الأقل . فلسنا نجد بفاس ذلك العالم للمفكرين الذين يتعيشون بقلمهم، ملتفين حول العاهل، كما كان ذلك في عهد لويس الرابع عشر ، أو حول شخصيات عظيمة مثل ما كان عليه الأمر في القرن السادس عشر ، أو مجتمعين في الصالونات كما حدث في القرن الثامن عشر ، أو في المقاهي ، كما هو الأمر في القرن التاسع عشر أو في أيامنا هذه . فالكاتب المحض ليس له حق المواطنة بفاس ، لأن الأدب المحض لا وجود له ؛ وبالتالي ، فالعلم هو الذي يشغل الأفكار النيرة بفاس لا الفن : فما فائدة الجمال إن امتُلكت الحقيقة ؟

لذلك كان الذين يتبوؤ ن الصف الأول في الحياة الروحية بفاس طبعاً ، هم العلماء ، والأساتذة ، وفقهاء القرويين . وبدونهم يجب القول بأنه لم يكن هناك أحد. وهكذا كانت الحياة الروحية تظهر مشوبة بنقيصة خطيرة جداً، إذ كانت كلها من صنع رجال صُهروا كلهم في قالب واحد ، وكُوّنوا بالطرق المشددة لجامعة القرويين . كان المستقل نموذجاً لروح لا يتصور ؛ وكانت النساء ذوات ثقافة ضعيفة جداً ، لا يشاركن أو قلما يشاركن في الحياة الفكرية . ومن هنا كانت العقلانية الفاسية تجد نفسها موضوعة تحت علامة المعرفة والعقدية . لم يكن يعرف هناك خيال لمبدع ، وكان الشعر مصوغاً في قوالب ونماذج ، والفقه والتوحيد يحتلان الرتبة الأولى تماماً كما هو الحال بالجامعة .

---

(26) معلومات من السيد محمد بردلّة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن جهة أخرى ، فإن الاهتمامات الفكرية لم تكن تمس سوى وسط محدود جداً : ففضلاً عن أساتذة القرويين ، وبعض الطلبة ، طلبة فاس ، وعدد قليل من الموسرين النيرين ، كان مجموع السكان يبدون احتراماً لمظاهر الفكر ، لكنهم لا يشاركون فيها : فالقيام بالواجبات الدينية ، وهموم الحياة اليومية ، وبعض التسليات كان ذلك كافياً لملء الحياة[26] .

وكانت أهم مظاهر الحركة الفكرية هي الاجتماعات العمومية أو الخصوصية . فإطار الأولى دائماً مبنىً ديني ، من مسجد أو زاوية ، حيث كانوا يجتمعون للإنصات إلى عرض ذي صبغة دينية ، يقوم به أحد علماء المدينة ، أو أحد الغرباء العابرين في قليل من الأحيان . وكانت مثل هذه الاجتماعات تعقد خاصة في رمضان وفي الأسابيع السابقة للمولد النبوي ، والإقبال عليها كبير بصفة عامة .

وكان ارتياد الاجتماعات الخصوصية أكثر بطبيعة الحال ، تنظم في دار أحد الأغنياء أو العلماء الذين يقدم لضيوفه طعاماً أو شاياً حسب الظروف . وكان المشاركون يرتبطون فيما بينهم بصلات ، وتسير محادثتهم بلا رابط ، متخذة أحياناً شكل مناقشة عامة وأكاديمية ، ومتحولة أحياناً إلى مناظرة حادة بين شخصين معروفين بفصاحتهما . وقد أعطى موليراس[28] وغيره كثيرون أمثلة عن هذه الاجتماعات التي كانت الكلمة تؤول فيها دائماً إلى المسنين الذين هم أكثر علماً ؛ وإذا فعل شاب شيئاً آخر غير الإنصات ربما يكون قد ارتكب خطأ كبيراً .

وكانت أشهر الاجتماعات تعقد ، حوالي 1906 ، عند الشريف مولاي

---

(27) ما زالت هذه البيانات صالحة للفترة الحالية . فالطلبة ، سواء منهم طلبة القرويين والمؤسسات العصرية ، أكثر عدداً ، ودائرة الموسرين المثقفين اتسعت أكثر ، لكن بأبعاد ما زالت بعد ضعيفة . ولن يكون الأمر كذلك في آخر هذا القرن ، لأن تطور التعليم والصحافة والإذاعة سيوتي أكله قريباً .

28) المرجع المذكور ، ص.374 وما بعدها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إدريس بن عبد الهادي ؛ وكان من ضيوفه المعتادين منشد للشعر الملحون (شيخ الكلام) هو الحاج إدريس الغرباوي ، وشريف فيلالي ، هو مولاي علي الملقب « سروالُه » ، لأنه كان يترك سرواله دائماً يسقط على رجليه، وكاتب مخزني ، هو الحاج محمد الكردودي ، وشيخ تجاوز عمره المائة ، هو الحاج الحسين مبارك ، وتاجر ثري هو مولاي علي الكتيري . تُعزف الموسيقى في هذه الاجتماعات ، وتُنشد الأشعار وتدور المحادثة حول موضوعات مختلفة[29] .

وكان بعض الملوك يعجبهم أن يجمعوا حولهم الأدباء وأن يخففوا عنهم من هموم الحكم بدراسة المؤلفات الفكرية ؛ وهكذا كان مولاي الحسن يحب قراءة **صحيح البخاري** بصحبة أحد قضاة مكناس ، هو الحاج أحمد بن سودة[30]

وكان ينقص هذه الحياة الفكرية الاتصال مع الخارج . فقد كان أحد الحجاج يحمل معه أحياناً من الشرق بعض الأفكار الجديدة ، لكن لانتقادها على العموم . وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر، عندما رجع الشيخ الطيب بن كيران من الأراضي المقدسة، كتب نقداً للمذهب الوهابي ؛ وفي أواخر سني القرن التاسع عشر ، قام الفقيه سيدي المهدي الوزاني بنفس الشيء بخصوص مذهب الشيخ عبده .

حقاً إن بعض الصحف والمجلات الشرقية كانت تصل إلى فاس ، **كالمؤيد والأهرام** من القاهرة ، وكان للأولى نحو خمسين مشتركاً بفاس ، **والوطن** من بيروت ، ومجلة **الشرق** التي كان ينشرها يسوعيو بيروت[31] . وكانت تقرأ هذه المنشورات بصفة خاصة من أجل الأخبار السياسية التي كانت

---

(29) بيريتي ، المرجع المذكور ، ص.334.

(30) نفس المرجع .

(31) **نفس المرجع** ، ص.369.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعطيها . ولا يمكن القول إنها أثرت في شيء على الفكر الفاسي[32] .

كل هذا يبدو ـ لأول وهلة ـ تافهاً جداً . وهو كذلك فعلاً إذا حاولنا القيام بمقارنات مع الغرب ، لا حتى غرب القرن العشرين بغليانه الفكري المذهل ، ولكن بغرب القرن الخامس عشر ، مثلاً ، الذي يعطي انطباع عصر توقف على الأقل فيما يخص الأدب الفرنسي ؛ وهو كذلك أيضاً إذا فكرنا في الشرق العربي في بداية القرن العشرين المتحمس كله بنهضته ، الغني بالشعراء والمترجمين والكتاب والمجدّدين .

لكنه من عدم الإنصاف النظر إلى فاس من هذه الزاوية . فإذا ما أردنا أن ننظر إلى الأشياء كما يجب ، ينبغي أن نتذكر المغرب الهائل الغير المثقف في مطلع قرننا : فإنه لا يعيش روحياً إلّا من عادة شفوية تمتزج فيها جميع أنواع العناصر ، وهي اعتقادات محلية لما قبل الإسلام ، وعادات اجتماعية ثابتة ، وبقايا من الإسلام متفاوتة التشويه حسب النواحي . فالمبدأ الوحيد لوحدة هذه البلاد الكبرى المتباينة والمتجزئة ، هو الإسلام الذي يذكي شعلته فقهاء القرى أو القبائل . إن هؤلاء المفكرين البسطاء قد حصلوا بفاس على زادهم الضعيف ، أو أخذوه عن أجدادهم المتعلمين بفاس . وكلما حاولنا ارتقاء سلسلة التكوين لمعلمي القرآن ، والعدول ، والصالحين الذين يحافظون على الإسلام وحضارته في البوادي المغربية ، كلما كنا أكثر حظاً في العثور إن عاجلاً أو آجلاً على حلقة صنعت بجامعة القرويين .

ومن وجهة النظر هذه ، فإن الحياة الفكرية بفاس تكتسب قيمة أخرى تماماً . نعم ، لم يعد بعدُ إشعاع الحاضرة الإدريسية ، في بداية القرن العشرين ، ما كان عليه أحياناً ، إبان كانت فاس دماغ إمبراطوريات قوية يمتد

---

(32) ليس الأمر كذلك اليوم . فالإقبال كبير على الجرائد والمجلات والكتب الشرقية بفاس : تصل جل المجلات الشرقيه إلى خزانة جامعة القرويين ، ويقبل الطلبة كثيراً على مطالعتها ، وتساهم السينما والراديو في تقوية اهتمام الفاسيين بأشياء الشرق العربي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سلطانها على إفريقيا الشمالية كلها وجنوب إسبانيا . ففي العهد الذي يهمنا كان هناك أربعة جزائريين فقط يتابعون دروس الجامعة ، وهم وحدهم الأجانب الذين يمكن العثور عليهم . لكن إذا كان الأجانب ينقطعون ، فإن المغاربة ما زالوا يفدون من كل أرجاء المملكة الشريفة ، سواء من سوس أو من الريف أو من السهول الأطلنطيقية أو تافيلالت ، أو من طنجة وتطوان ، أو من تازا ومراكش . إن فاسا بفضل علمائها وإشعاعها الفكري ، لم تصل إلى شمال المغرب ، ومُثَلَّث تازا ـ طنجة ـ الرباط فحسب ، ولكن وصلت فعلاً إلى المغرب بأسره. ألسنا نرى هكذا أن فاساً تلوح كأنها عامل للوحدة الفكرية في بلاد مقسمة إلى أقصى حد ؟ ومن جراء ذلك تحتفظ في أعين السكان المدنيين وحتى القرويين بحظوة عظيمة ، مرموزٍ إليها ـ إن صح التعبير ـ بالامتياز المعترف به لفقهائها في منح السلطان الجديد الذي يعتلي العرش نوعاً من التنصيب ، وإمداده عند الاقتضاء بسند آرائهم المأذون لها . لأن الجامعة لا تقتصر على تكوين التلاميذ ، بل هي أيضاً مؤتمنة على الحقيقة الدينية ، ومكلفة بالسهر على احترام مبادئها . وبذلك تكتسب سلطة حقيقية .

تلك هي العناصر المتعلقة بالقيمة الفكرية لفاس ، وليست هي الوحيدة . ومهما أمكن أن تظهر لنا هذه الحياة الفكرية ضيقة نحن الأوروبيين القلقين دوماً والمتحركين ، فإن لها على الأقل الفضل في وجودها ببلاد يكون فيها ذلك الشيء نادراً . مما لا شك فيه أن فاساً عرفت كيف تحتفظ في المغرب بتذوق أو على الأقل باحترام أشياء الفكر . ذلك أن مفهوم الثقافة لم يَضِع بها قطّ ، وتبرهن منشآت مثل معامل الطباعة الحجرية بفاس على أنها لم تكن لفظة وهمية ، وأنها ما زالت تستجيب لحاجة ما ، إذ كانت تغذي باستمرار صناعة صغيرة . نعم ، إنها ثقافة جافة شيئاً مّا ، مكونة قبل كل شيء من تحليلات ومناقشات فقهية ، تتفوق فيها بكثير الذاكرة والمؤهلات المنطقية للفكر عل المخيلة والحساسية ، لكنها ثقافة عميقة وفعالة تمنح للفرد في مجال الفكر نفس الموقف الذي كانت تمنحه له القاعدة في ميدان الأخلاق . ربما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت الشجرة ضامرة هزيلة المظهر ، لكن ماء الحياة يجري فيها دوماً ، مليئاً بإمكانيات العمل. وحتى تظهر ظروف ملائمة، فإن العقلانية الفاسية ستخضرُّ من جديد ويساعدها الحظ في إعطاء ثمار جميلة ، لأنها ستنطلق من أرومة متينة .

ما كانت هذه الظروف لتأتي بعد ، وإن كانت فاس قد دخلت قبلُ في دائرة العالم الحديث بفضل اقتصادها . كان هناك تباين واضح ، حوالي 1910 ، بين الحياة الفكرية بفاس ونشاطها الاقتصادي . لقد بدأ هذا الأخير يتطور قبل إقامة الحماية الفرنسية بكثير : فأصبحت المبادلات مع أوروبا وعدة بلدان إفريقية متكاثرة منتظمة ، والطرق الغربية في الأداء والقرض متأقلمة ، والعملة الأوروبية ذاتها جارية . وعلى الصعيد الفكري بقيت فاس بعكس ذلك منكمشة تماماً على نفسها ، وفية بإصرار لتقاليد كانت مثمرة ودامت موقرة ، لكنها كانت مفتقرة لهواء جديد . ولم يكن مثل عدم التوازن هذا بين الاقتصاد والفكر ليدوم ؛ فكان من المحتوم أن تدخل المدينة الإدريسية سريعاً جداً في تصـال مع الفكر الأوروبي والفكر الإسلامي الشرقي ، ولو تحت تأثير تجارها والحاجيات الجديدة التي كانوا يخلقونها بين مواطنيهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

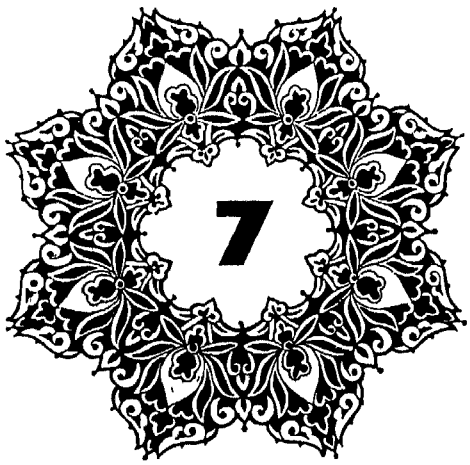

الكتاب السابع

آداب فاس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن جميع المؤلفين الأجانب الذين كتبوا عن فاس أُذهلوا من شدة نظمها الاجتماعية والأسروية ، الشيء الذي حدا بهم إلى أن يتناولوا ، بالتفصيل في غالب الأحيان ، آداباً كانت تظهر لهم طريفة . ذلك ما حصل لليون الإفريقي الذي خصص عروضاً مطولة للزفاف والعادات الأهلية للأرستوقراطية الفاسية ؛ وفي فترة أقرب إلينا ، ألف الأخوان طارو مجلداً كاملاً ، لا يتسع المجال هنا لمناقشة استنتاجاتهما العامة فيه ، مخصصاً لأسلوب معيشة أهل فاس .

أما أنا ، فسأحاول تركيب عدد كثير من العناصر المشتتة مضيفاً إليها ، عند الاقتضاء ، ثمرة عشر سنوات من الملاحظات الشخصية ومن اتصالات تكاد تكون يومية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

1/7 الثروات والطبقات الاجتماعية

من المحتم أن تلعب الثروات دوراً هاماً في الصرح الاجتماعي بفاس ، نظراً لامتداد الحياة الاقتصادية . إلّا أنها ليست العامل الوحيد للتمييز ، حيث إن الدين والمعرفة المرتبطين به كل الارتباط ، يحتلان مكانة من الدرجة الأولى في حياة الحاضرة ويشاركان من جهتهما في تشكيل النخبة الفاسية . يمكن التفكير في أن مزاولة الوظائف العمومية هو الآخر وسيلة للنجاح ، لكن سرعان ما نتحقق بأن خدام المخزن الفاسيين ، وعلى الأقل في أواخر القرن التاسع عشر ، كانوا كلهم تقريباً ، إما تجاراً يحتاج السلطان جيداً إلى تجربتهم ، وخاصة في علاقاته مع أوروبا ، أو فقهاء تعتمد الحكومة على كفاءتهم في التحرير وتبحرهم في الفقه الإسلامي . فلا يمكن إذن أن نذكر وجود طبقة مخزنية متميزة تماماً بفاس ، اللهم إلا من بين أهل فاس الجديد ؛ لكن الأمر إذ ذاك يتعلق بحاضرة من جهة ، وبعالم على حدة ، وبسواد الشعب عامة من أصل قروي في أغلب الأحيان ، وبخدام أكثر منهم مساعدين ، ليسوا حقاً في عداد المجتمع الفاسي .

نوع الثروات : ـ يكاد يكون الغني بفاس من أصل تجاري . فإذا تركنا جانباً بعض مجموعات من الشرفاء ، كشرفاء وزان الذين كانوا ينتفعون ، أباً عن جد ، بأوقاف (عقارات أو أراض زراعية) ، أمكن القول إن جميع الأسر المثرية بالمدينة كانت تقريباً مدينة برخائها للتجارة . وبما أن التوظيفات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المنقولة كانت محدودة قليلة الثبات مكروهة في نظر الشريعةالإسلامية ،فإن جل الثروات المشكّلة هكذا كانت تُستثمر في العقارات . وبمجرد ما كان أحد التجار يحصل على أرباح كافية ، يشتري بقعة أرضية ليشيد عليها داراً . وهكذا ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، شرع آل المقري ، والتازي ، وبنسليمان ، وبنيس ، ونقتصر على ذكر أشهرهم ، في تشييد منازل هامة في حي الدوح ، حيث كانت توجد في ذلك العهد عدة قطع أرضية للبناء . كانوا يبدؤون بتشييد دار سكنية ، أفسح وأجمل من التي كانوا يعيشون فيها سابقاً[1]، ثم إذا ما أضيفت ثروات أخرى إلى الأولى، كانوا يشترون أو يبنون عقارات للإيجار ، كالدكاكين ، والفنادق ، والمعامل ، والمرابط ، والاصطبلات ، والدور السكنية .

كما كانوا يشترون البساتين المسقية ، ليزرعوا فيها الخضر ، والأشجار المثمرة ، والأزهار ، وتمكنهم من قضاء بضع ساعات أو بضعة أيام مع أفراد عائلتهم ، إن ساعد الفصل على ذلك . وكان معظم هذه البساتين يقع داخل الأسوار ، في اتجاه الدائرة[2] ؛ وكان أجملها ، لكونها مسقية أحسن ، هي الواقعة في القسم الجنوبي ـ الغربي لحي العيون والجانب الغربي لحي رأس الجنان والقلقليين ؛ وكانت الأخرى تحد شمالاً الطالعة والشرابليين ، محتلة كل القسم الشمالي ـ الشرقي لفندق اليهودي ، المسمى الزنجفور ، والقسم الشرقي للبليدة ، بين واد زرهون وواد بوخرارب . ولم يكن الحي الحالي للفخارين ، على الضفة اليمنى ، سوى بساتين ، من باب سيدي بوجيدة إلى تامدرت ، مروراً بكْرواوة : ولم يكن يقطع خضرة بهذا القدر إلا وجود المعامل والأفران . وكانت أيضاً كلها بساتين الفضاءات العارية الممتدة بين جامع الأندلس وباب فتوح ، شرقي روضة باب الحمراء ، كلها بساتين أيضاً ، وبالتالي كل القسم الجنوبي ـ الغربي للمخفية كان هو أيضاً مكسواً بالخضرة .

---

(1) كانوا يحتفظون أحياناً بعقارين ، أحدهما للإقامة في الصيف ، والآخرة للإقامة في الشتاء .

(2) انظر الرسم رقم 31.

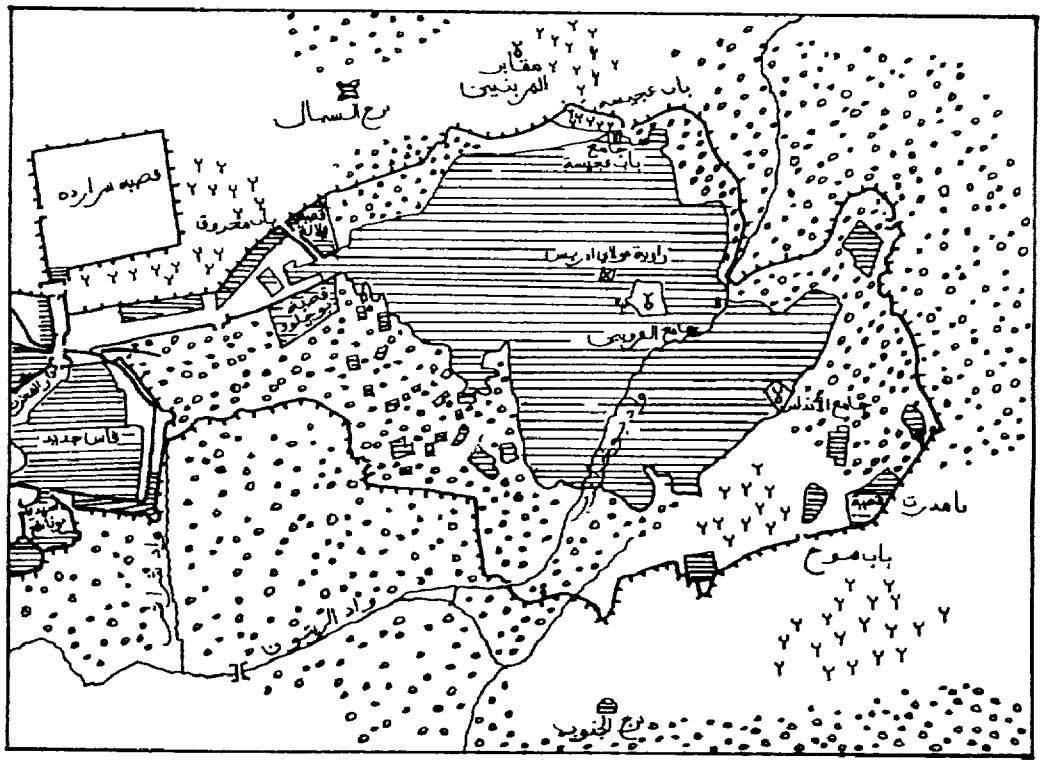

الرسم 31

بساتين فاس

(حسب الرسم الإعدادي للضابط لاراس ، 1905)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والحاصل، أنه كانت لجميع الأحياء الدائرية منطقتها الخاصة بالبساتين، ما عدا زقاق الرمان الذي كانت بجانبه الشمالي مقبرة سيدي علي المزالي ومعاصر وحظائر ، وحي واد الزيتون الذي كانت تمتد فيه مقبرة باب الحمراء الواسعة وبعض القطع الأرضية الناتئة الحجر .

كانت البساتين تمتد أيضاً خارج الأسوار ، مغطية المنطقة المكتنفة جنوباً بوادي الزيتون وشمالاً بالمدينة ، من باب جِيَف إلى باب جديد ؛ كما كانت موجودة في وادي بوفكران في اتجاه صفرو ، على الربى الجنوبية وراء مقابر ومصلى الباشا ، على طول منحدر وادي فاس إلى سبو ، وفي منحدر وادي الملاح ، بين فاس وزالاغ ؛ وأخيراً في الوادي الصغير المحاذي للأسوار شمالاً إلى عين أزليطن ، انطلاقاً من باب محروق .

كانت هذه البساتين تحمل أسماء مختلفة حسب نوعها الخاص : فالبستان المسقي يسمى عرصة ، والبستان الغير المسقي يسمى جناناً[3] والبساتين الواقعة في جانب النهر تدعى سهيلات ؛ وأخيراً يسمى البستان الخاص بأسره رويضاً (تصغير روض)[4] وغالباً ما كان يطلق على مقبرة .

وعلاوة على بساتين المدينة أو الضاحية ، كان الفاسيون يملكون عدة أراض زراعية يستثمرونها بواسطة مزارعين ، وكانت ممتلكاتهم عديدة خاصة في لمطة ، وذلك منذ عهد طويل جداً ، حسب ليون الإفريقي[5] .

---

(3) حسب كولان (مراكش ، ص. 234) فإن لفظة عرصة (ج عراصي) معناها بستان صغير ، وجنان (ج جنانات) معناه بستان كبير .

(4) مارتان ، (الكدّان ، ص. 439 و639).

(5) جزء 2 ، ص 196 . انظر أيضاً أوبان ، المرجع المذكور ، ص.388 : ممّا يدل على الارتباط الوثيق بين لمطة وفاس كون سكان هذه الناحية غير مجموعين ضمن قبيلة قائمة بذاتها ، ولكنها خاضعة لعامل فاس .

لم يحدّ امتداد الملكية الفاسية سوى عدم الأمن . وقد تزايدت بكثير ، منذ الحماية ، في جميع الجهات ، وحتى في الجبل الربري .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت هذه العقارات على اختلاف أنواعها ، مقسمة عامة إلى أقصى حد ، بسبب العدد الكثير من التركات التي بقيت على الشياع . وهذه العادة التي اتُّخذت في الأصل لصيانة حقوق القاصرين ، أصبحت راسخة جداً في الإسلام كله ، وغالباً ما كانت تقرُّها مؤسسة الأحباس الخاصة وتمنع نقل ملكية العقار المعالج بهذه الكيفية . وحتى بدون أحباس كان الشياع يبطىء كثيراً المعاملات العقارية ويتحول الى وزن ثقيل يسحب بمشقة[6] .

كانت العقارات الحضرية ذات دخل حسن ، لأن المساحات المبنية تكاد لا تكفي لحاجيات المدينة ؛ وقلما كانت المحلات السكنية أو المحلات التجارية والصناعية تبقى شاغرة ، فكانت تكتري بثمن مناسب .

وكانت البساتين أقل إنتاجاً مما كان يتصور ، نظراً لغزارة الماء ، لأن جل المالكين الفاسيين كانوا يريدون أن يكسبوا أشجاراً يتركونها تنمو دون

---

(6) إليكم ما كتبه ميشو- بلّير في هذا الصدد (وصف فاس ، ص.288) :

« إن أولاد الحاج الطاهر يستغلون بانفسهم الفندق الذي بقي على الشياع بينهم مثل تركتهم كلها ؛ وهذه حالة كثيراً ما تعترض بفاس ، تارة لتلافي تشتيت العقارات الأبوية ، خاصة إذا كان أحد الورثة قليل الغنى ليشتري من جديد أسهم الآخرين فيكون لا بد من البيع للأجانب ، وتارة لأن كل الأملاك أو بعضها قد أوقفها الهالك ، لمنع بيعها والاحتفاظ بعقارات الأسرة سالمة .

وتوجد هذه العقارات في ملك عدد من الورثة يتزايدون في كل جيل ، بحيث ينتهي بهم الأمر إلى أن كل واحد منهم لا يَسْتَسلِمُ سوى حصة لا يعتدّ بها . وإن تقسيم الكراءات ، وقد عقّده وجود ورثة في مختلف الدرجات يستحق كل واحد منهم أسهما متفاوتة القيمة ، يفضي إلى مناقشات غالباً ما تنتهي إلى معارك حقيقية ، وإلى دعاوي لا تنتهي هي الأخرى أبداً . يمثل الإرث كله بمثقال واحد ، ويتم تقسيم هذا الإرث حسب تجزآت المثقال الذي يساوي 10 أوقيات ، وكل أوقية 4 موزونات ، وكل موزونة 6 فلوس ، أي 240 فلوس للمثقال الواحد ، الأمر الذي يمكّن من تقسيم إرث الى 240 سهماً وإعطاء كل واحد ما يستحقه تبعاً لتجزآت المثقال . يذهب كل مساء جميع ورثة الحاج الطاهر بناني أو ممثلوهم إلى الفندق الذي يملكونه والذي يحرسه « چلّاس » يقبض واجبات الفندق . تقتطع أجرة هذا الحارس من المبلغ الإجمالي ويقسم الباقي على جميع الورثة . وبالنسبة للكراءات الشهرية ، فإن المداخيل تقسم كل شهر » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تشذيب ، فتخنق النباتات الواقعة تحتها ، إذ كانت في الغالب بساتين للتنزه أكثر منها للدخل . وفي الأماكن التي يحدد فيها عدد الأشجار الكبيرة والصغيرة كانت البقول أو غيرها من النباتات كالكتان والقنب[7] والبطيخ والقرع[8] تنمو بغزارة . وكان المدنيون يسهرون بأنفسهم على استغلال هذه البساتين ، مستعملين اليد العاملة الريفية لجماعة البستانيين (جناينية)[9] .

وبخصوص الأراضي الزراعية البعيدة عن المدينة ، كان أهل فاس يتعاملون مع مزارعين بالخمس (خمّاس ، ج . خمّاسة) وغالباً ما كانت تنشب بينهم خلافات . كما أنهم كانوا أحياناً يعملون بالمشاركة الفلاحية مع فلاحين أثرياء من الناحية . ولم يكن لبعض سكان فاس ، خاصة في أحياء العدوة ، انشغال آخر غير تدبير ممتلكاتهم التي كانوا يقضون فيها قسطاً كبيراً من وقتهم ، مهتمين بالنفع الذي يكسبونه من ملكهم أكثر من اهتمامهم بالتقنية الفلاحية ، مثلهم في ذلك مثل جميع سكان المدن في العالم . لم يكن أحد منهم يقطن قط في أراضيه ، فلا يزيدون على الإقامة بها بضعة أيام في الربيع مع أفراد عائلتهم إذا كانت القبائل هادئة ، أو الذهاب إليها مدة يومين أو ثلاثة أيام لحاجة ماسة . كانوا يكرهون السكنى خارج فاس ولا يعملون مع ذلك شيئاً ليكون مقامهم أكثر راحة : فبقدر ما كانوا يحبون المنازل الفسيحة الكثيرة الترفيه بفاس ، بقدر ما كانوا يقتصرون في المباني التي يشيدونها في ممتلكاتهم على أبسط ما يمكن[10] .

---

(7) روني ـ لوكلير ، **المغرب الشمالي** ـ ص . 159 ؛ وميشو ـ بلّير ، **إصلاح إدريسي**، ص. 407.

(8) مارتان ، **الكدّان** ، ص. 624.

(9) بحث رقم 161 ؛ وريكار ، رقم 11 . كان يفصل في النزاعات المتعلقة بالسقي نحو ستة خبراء فلاحين (شيوخ الفلاحة) ، وكان على رأسهم قائد يساعده تقني مكلف بتوزيع الماء (مول الواد) .

(10) لقد تغيرت هذه العقلية منذ الحماية ؛ فقد بنى العديد من أهل فاس دوراً عصرية خارج فاس ، لا في محطات صيفية فقط مثل صفرو ، وإيموزار كندر ، وإفران ، ولكن في وسط البادية ، في سايس ولمطة ، أو في نواحي واد إنّاون ، وواد اللبن ، شرقي المدينة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت التوظيفات العقارية تعتبر محقّقة وذات دخل منتظم ، لكنها لم تكن تعطي أرباحاً ضخمة في فترة الاستقرار الكبير للعقار ، كما لم تكن قابلة للمضاربة . ولهذا فإن الفاسيين الأغنياء ، الذين كانوا بطبيعتهم مغامرين ، لم يكونوا يستثمرون كافة رؤوس أموالهم في العقارات . لم تجتذبهم الصناعة التي ـ كما قلنا ـ[11] تغذي صاحبها ولا تغنيه ، ولم يزد بعضهم على توظيف قسط من المال في معصرة أو معمل صابون : أما باقي الصناعات فكانت تترك تقريباً للصناع .

بقيت إذن التجارة بجميع أشكالها : تصدير ، ولا سيما استيراد شتى المواد بدون أي اختصاص ، والشركة مع أصحاب دكاكين أو تجار ما زالت ثروتهم قليلة ، والمضاربة ذات الطابع المحلي حول المواد الغذائية والمواد الأولية الصناعية الغير المنتظمة الوصول كمواد الدباغة ، وعمليات الصرف ، وتجارة الفضة أخيراً رغم التعليمات القرآنية التي كانوا يعملون على اتباعها حرفياً[12] .

كانت هذه العمليات تحتفظ بطابع شخصي متميز جداً ، لأن فاسا لم تعرف نظام الشركات المجهولة الاسم ؛ والمشاريع الكبرى المشتركة والاحتكارات كان الرأسماليون يتصرفون فيها بنظام مشتت ، يعمل كل واحد لصالحه ، دون تشكيل تلك المحالفات الظاهرة أو الخفية التي تميز العالم الغربي للتجارة . كانت الجمعيات التجارية موجودة حقاً ، لكنها مقتصرة على اثنين أو ثلاثة من الأقارب أو الأصدقاء ، أو مبرمة بين فاسيين مهاجرين وفاسيين مستقرين بفاس ، كانت تلعب دوراً ثانوياً لا أساسياً ، في اقتصاد المدينة .

إن وجود أسر غنية جداً بفاس أمرٌ لا جدال فيه ؛ ومن الصعب وضع قائمة لها مع انعدام بيانات واضحة في إمكان المصلحة الطبوغرافيا وسجلات

---

(11) أنظر ما سبق الكتاب 5 ، الفصل 3 ص.359.

(12) أنظر ما سبق الكتاب 5 ، الفصل 6 ص. 448 وما بعدها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الضرائب أن تعطيها في بلدان أخرى ؛ ويستحيل تماماً ، لنفس الأسباب ، الإدلاء بأرقام لا يمكن أن تزود بنقط مفيدة للمقارنة مع أوروبا ، من جراء التنوع البالغ لطرق المعيشة . إلا أنه مع ذلك يمكن التوضيح بعدم وجود تلك الثروات العملاقة الخيالية ، مثل التي تنسب إلى بعض الأمراء الهنود، وإنّما توجد ثروات عديدة (يستحيل تحديدها بالضبط) مماثلة جداً لثروات البرجوازية الفرنسية العليا لنفس الفترة ، من حيث التسهيلات المعاشية التي نقدمها . تأتي بعد ذلك عدة أسر تملك دوراً بالمدينة وخداماً كثيرين ، وتعيش في رخاء ، تنتمي كلها إلى ما يمكن أن نسميه بالبرجوازية ؛ لكن برجوازية فاس كانت أوسع من ذلك ، متضمنة أيضاً المثقفين ، ولم يكونوا كلهم أغنياء ، وكتاب المخزن أو الأحباس ، وصناعاً مثرين أو مصاهرين لأفضل أسر المدينة .

والحاصل أن الطبقية الاجتماعية لم ترتكز فحسب وبشدة على الغني ، وإنما كانت روابط الأسرة ، والثقافة ، والوظيفة الاجتماعية يُحسب لها حسابها أيضاً ، لا بقدر الصفة الدينية مع ذلك .

الشرفـــاء : ـ وفعلاً كان أحفاد الرسول (شريف، ج. شرفاء) يتمتعون على العموم بتقدير كبير جداً . ويجب هنا أيضاً أن نأخذ بعين الاعتبار عدة فوارق دقيقة . حقاً إن الشريف كان في حد ذاته موضوع إجلال ، لكن منهم الغني والفقير ، وينتمي بعضهم إلى أُسر أكثر شهرة من غيرها ، وبالتالي فإن بعضهم لا محالة قد يسترعون الانتباه بفضل شخصيتهم القوية ، ويتمتعون جميعاً بحُظوة إلهية خاصة ، وبنوع من التأثير خاص بهم وحدهم ، يورث أباً عن جد ، يسمى بالبركة ؛ ويمكن لهذه البركة أن تنعكس على كل من يقترب من الشخص المنتفع بها بنشر جو مساعد حولها يجعل الحياة الدنيوية أسهل ويذلل طريق السلامة ؛ ومن هناك النفوذ الأكيد الذي يتمتع به الشرفاء بفاس ،

---

(13) انظر ليفي ـ بروفنصال مادة شرفاء ، في دائرة المعارف الإسلامية ،جزء 4 ، ص . 401 ؛ وفان أراندوك، مادة شريف ، نفس المرجع ، ص. 336-349.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكذلك في المغرب كله .

كان للشرفاء ، علاوة على هذا النفوذ المعنوي ، مزية حكم خصوصي يجعل منهم أشخاصاً على حدة شيئاً مّا في المجتمع المغربي .

كانوا موزعين إلى عدة مجموعات حسب أصلهم ، وتتميز قبل كل شيء من بينهم طبقتان كبيرتان : أعقاب الحسن من سلالة مولاي إدريس ، وأعقاب الحسين . ينقسم الأولون إلى أسر عديدة : الأدارسة بمعنى الكلمة ، أي الدباغيون ، والعلميون ، والكتانيون ، والوزانيون ، والعلويون[14] . وينقسم أعقاب الحسين وهم أقل عدداً ، إلى فرعين اثنين : الصقليون ، ويسمون هكذا لأنهم جاؤوا من صقلية بعد أن أقاموا بالأندلس[15] ، والعراقيون ، وأصلهم من بلاد ما بين النهرين .

كان على رأس كل من هذين المجموعتين رئيس أو ممثل يسمى المزوار[16]، يعينه نظراؤه ويوافق عليه المخزن، كان صلة وصل بين الشرفاء والسلطات ، خاصة فيما يتعلق بتسليم وتوزيع الهدايا الممنوحة لهم من طرف المخزن ، أو بالأملاك التي كان يخصص لهم ريعها . وفعلاً ، فإن العادة اقتضت أن تساعد الأمة الإسلامية هؤلاء الأشخاص الصالحين على أن يعيشوا عيشة راضية ؛ لذلك كان السلطان يقدم هدايا ، على الأقل للأدارسة ، بمناسبة الأعياد الكبرى ، ويمنح حتى معاشاتٍ لبعضهم . ومن جهة أخرى

---

(14) أنظر عن الشرفاء الأدارسة ، الذين ينفرعون بدورهم إلى طاهريين ، وعمرانيين إلخ . سالمون ، **الشرفاء الأدارسة** وابن الطيب القادري ، **الدر الساني في بعض من بفاس من أهل النسب الحسني** . وانظر عن الشرفاء الفيلاليين ، سالمون ، **الشرفاء الفيلاليون** .

(15) سالمون ، **الشرفاء الفيلاليون** ، ص.115.

(16) كلمة من أصل بربري ، أنظر عنها ليفي ـ بروفنصال مادة مزوار ، في **دائرة المعارف الإسلامية** ، جزء 3 ص. 616 . كان رئيس الشرفاء الفيلاليين أي العلويين ، يحمل لقب نقيب . وكان على رأس الشرفاء الأدارسة مقدم ليس شريفاً ، وكان الشرفاء الأجانب (وهم جزائريون بخاصة) تحت سلطة شريف اسمه بكّراوي ، أصله من فيحيج (أوبان ، المرجع المذكور ، ص 333) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت تخصص لهم مداخيل بعض الأملاك الدينية ، ويتفق أحياناً أن يخصص السلطان لهذه المجموعة أو تلك فتوحات هذا الضريح أو ذاك عندما يصبح لا وارث له . وهكذا فإن الهدايا المقدمة لسيدي أحمد الشاوي التي كانت تعد من أغزر الهدايا بفاس ، كانت تخصص للشرفاء القادريين[17] .

وكان الشرفاء المرموقون أكثر من بين جميع شرفاء فاس هم الشرفاء الأدارسة ؛ إليهم كانت تؤول الهبات نقداً والفتوحات عيناً (شموع وأضحيات) التي كان أهل فاس أو أهل البادية يحملونها بكثرة إلى ضريح ولي المدينة الصالح . كان يدبر هذه الأموال ويوزعها رئيس المجموعة الإدريسية الذي كان يختار ، وهذا شيء غريب ، بالتناوب من بين أسرتين أندلسيتي الأصل ، لكن بدون رابطة شرف ، هما أولاد الرامي[18] وأولاد أكومي . وكان للمقدم الرسمي دائماً مساعد شبه رسمي ، من الأسرة الأخرى[19] .

ومهما كان الفرع الذي ينتمي إليه الشرفاء ، فإنهم كانوا معفين من كل ضريبة ، وحتى من واجبات السوق ، وهي مزية كانوا يحرصون عليها كثيراً ؛ كما كانوا يتمتعون بحرية كبيرة ، غير أن العادة كانت تحرمهم من معظم الوظائف العمومية ، ما عدا وظائف العدول وكتاب المخزن . وكان السلطان يلجأ أحياناً إلى المساعي الحميدة لهذا الشريف أو ذاك في المفاوضات الصعبة ، لأن النفوذ الديني المنوط بشخصهم كان يساعدهم في الغالب على النجاح حيث قد يخيب أي شخص آخر . كما أنهم كانوا يتدخلون في المعاملات بين الخواص ، يتوسطون لتهدئة الخلافات ، أو للمساعدة على عقد الزواج ، وذلك على جميع مستويات السلم الاجتماعي . نرى إذن

---

(17) أوبان ، المرجع المذكور .

(18) كان مقدم مولاي إدريس ، في أوائل القرن التاسع عشر ، هو الحاج إدريس الرامي (علي باي ، المرجع المذكور ، جزء 1 ،ص. 183 وما بعدها) . ولقد تعرفت أيضاً على مقدم يسمى الرامي ، عوضه ابنه ، وهو من قدماء ثانوية مولاي إدريس ، عند موته .

(19) نفس المرجع ، ص. 175-176 ، . إن أولاد أكومي يحتفظون دائماً بمفاتيح الضريح ، ويسكن أحدهم حجرة صغيرة قرب الضريح الذين يفتح بابه لزوار الليل ، في مقابل جائزة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنهم ، بحكم نسبهم الخاص ، كانوا يقومون بدور محكّمين ومصالحين ، ويؤثرون لا في المدينة فحسب ، ولكن أيضاً في البادية المجاورة كلها ، تأثيراً عميقاً جداً .

العلمـــاء : ـ كـانت الشخصيات الـدينية ، أي فقهـاء جـامعـة القرويين ، يلعبون دوراً مماثلاً ويتمتعون بنفوذ من نفس الدرجة . لاشك أنهم لم تكن لهم البركة بمعنى الكلمة ، ولكنهم كانوا يملكون العلم الذي يخول هو الآخر نعماً خاصة . إن اكتساب العلم ، (بالمعنى الإسلامي للكلمة) لم يراع من الزاوية الإنسانية المحضة ، والتربوية المحضة ، بل كان يكتسي أيضاً مظهراً تلقينياً « إن العلم ـ كما يقال عادة بفاس ـ يؤخذ من فم الرجال لا من أوراق الكتب ».وكما أن التدريب على قواعد طائفة دينة لم يكن ممكناً إلا بواسطة أصحاب سلسلة صوفية ثابتة القواعد ، فكذلك لم يكن التدريب على المواد الإسلامية يخوله إلا علماء معترف بهم شرعاً كورثة لسنة صحيحة . ومن الملاحظ نموذجياً أن المترجمين المغاربة لا يفوتهم أبداً ، عندما يتعرضون لحياة عالم ، أن يذكروا أسماء شيوخه ، ذلك أنه لا يكاد يُتصور وجود متعلم بنفسه ، ولا وجود له تقريباً مع مفهوم العلم كهذا .

لم يكن نفوذ العلماء مقتصراً على دائرة الطلبة والمثقفين ، بل كانت المدينة كلها ، من الحمال إلى العامل وحتى السلطان نفسه ، تُكنُّ لهم احتراماً كبيراً . ألم يكونوا ممتزجين كل الامتزاج بحياة الحاضرة ، بواسطة الفتاوي التي كانوا يقدمونها ، وجميع المفاوضات العمومية أو الخصوصية التي كان يطلب منهم إيضاحات بشأنها ؟

فكان إذن كل من العلماء والشرفاء محكمين بحكم طابعهم الديني ، معدودين بصفتهم هذه من جملة أعيان المدينة ، مهما كانت وضـعية ثروتهم .

المخزنيـــون : ـ لم يتمتع المخزنيون بنفس التأثير ، لكون سلطتهم زمنية محضة ؛ ولم يكونوا يعتبرون إلاّ كممثلين لسلطة لا يتحملها الفاسيون في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الغالب . كان منهم نوعان بفاس : إما منتمون إلى أسر التجار والعلماء وكانت لهم من هذا الواقع مكانتهم المرموقة في نخبة الحاضرة ، بصرف النظر عن الوظيفة التي كانوا يزاولونها ؛ وإما مجرد موظفين وخدام المخزن ، وأحياناً عبيد قدامى ، أصلهم من فاس الجديد أو غرباء تماماً عن فاس : ولم يكن هؤلاء يتمكنون إلا نادراً من إحراز مكانة في المجتمع الفاسي . كانوا يقتبلونهم فيه عندما لم يكن بد من ذلك ، لكنهم لم يندمجوا فيه حقاً ، وكانوا يفضلون الدوران حول القصر ويعيشون في أغلب الأحيان بفاس الجديد .

لم يكن التجار والعلماء والشرفاء يشكلون طبقة اجتماعية متماسكة كل التماسك ، حيث إن الأصول الأسروية ، ودرجة الثقافة ، والموافقات والمفارقات التقليدية ، كانت تفرقهم وتجعلهم شيعاً تنعقد بينهم أو تنفسخ محالفات حسب الظروف . كان بعض الأدباء المعززين بتقاليد روحية وثقافية طويلة ، كآل الفاسي ، وابن سودة ، ينظرون بشيء من التسامح الساخر إلى كبار التجار الإسلاميين (من أصل إسرائيلي) دون أن يسلموا من حسدهم سراً على نجاحهم الدنيوي . ولا يمكن القول إن فاسا كانت تقاطع هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام منذ عهد قديم ، وبرهنوا بكيفية غير مشبوه فيها عن تشبثهم بالإسلام وساهموا في إشهار المدينة وتعميرها بتجار موسرين ، وعلماء مشهورين ، وموظفين ماهرين ؛ غير أنها كانت تضع بينهم وبين الفاسيين العريقين بعض الفوارق الطفيفة ، تكاد لا تلمس ، لكنها حقيقية فعلاً ولا يمكن أن يعفّي عليها الزمن . كان الفاسيون الحقيقيون يسمونهم البلديين ، ولم تقبل قط أية خطّابة أن تنظم لهم بعض الاحتفالات المخصصة للأرستوقراطية الفاسية[20] .

وأما الأسر الأندلسية ، فكانت محتفظة بالافتخار أنها وارثة لحضارة لامعة ، وبالشعور أنها ساهمت بكيفية واسعة في الإنماء المتناسق للمدينة ،

(20) انظر ما يأتي ، الكتاب 7 الفصل 3 ، ص.519.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لذلك كانت ميالة إلى اعتبار نفسها متفوقة على قوم جاؤوا من جميع جهات المغرب ليستقروا بفاس بعدها ، وينتفعوا بالرفاهية والتهذيب اللذين حملوهما إليها .

وبالرغم على أن هذه التنوعات ، وهذه المنافسات أو هذه الأصناف من الغيرة الكامنة لم يكن لها كبير عاقبة، إلّا أنها كانت تضفي على الحياة الفاسية فوارق دقيقة غير متناهية من الألوان ، لا يدركها سوى الفاسيين القاطنين بالمدينة منذ عهد طويل .

طبقات السكان الأخرى : ـ كان أصحاب الدكاكين ، والصناع ، والموظفون الصغار يشكلون مجموعة متماسكة ، تحت النخبة التي رسمتْ خطوطها الرئيسية منذ قليل . ولما كانوا مقيمين بفاس منذ أجيال فإنهم يعتبرون أنفسهم مواطنين للمدينة ومشبعين بأفضل تقاليدها . وكان هذا السواد من الشعب المتمدن بعمق ، رغماً عن خمول حياته أو عدم ثباتها ، يشكل الاحتياطي الذي كانت النخبة الفاسية تنتظم فيه ثانية بدون انقطاع . وقد ساعدتهم أجيال الأجداد المستقرة بفاس على أن يكتسبوا شيئاً فشيئاً روح اللياقات المحلية ، بحيث إنهم كانوا على أتم الاستعداد ، بعون الله ، ليمثلوا بشرف في جملة المرموقين من الناس .

وكان يعيش تحتهم سكان لم يستقروا بعد كما يجب ، مؤلفون عامة من عناصر قروية ، ورعاع لم يهذبوا بعد كما يجب ، عنيفون أحياناً ، يترددون على الفنادق وأكواخ حي الفخارين ، والمنازل الحقيرة المعلقة عند قدم الأسوار . لم يتوصل الكثير منهم إلى التكيف مع الطبائع المعقدة لهذه الحاضرة الكبرى ، فيذهبون ليضلوا ثانية في قبيلتهم الأصلية ، بعدما عاشوا خاملين شهوراً أو أعواماً في الأحياء الدائرية . واكتسب بعضهم الآخر ، وهم أكثر ليونة ، شيئاً فشيئاً لياقات إخوانهم الجدد الحضريين ، دون أن يقطعوا مع ذلك كل صلة مع الخارج . لكن سرعان ما تمّحي هذه العلاقات ، فتستوعب الحاضرة ، وأوشك أن أقول : « تهضم » مادتها الجديدة ، فيختفي الحديث

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العهد في المدينة ، تاركاً الأحياء القريبة من الأبواب إلى نازحين آخرين ؛ فكان الفيلاليون والجبليون يتحولون إلى فاسيين بتطور بطيء يُذكّر بتحولات بعض الأنواع الحية[21] .

وكانت الطبقية الاجتماعية ، بفاس الجديد ، مرتكزة على أسس مختلفة كثيراً ، لم تكن تعتبر فيها لا التجارة ولا العلم ، وحتى إجلال الشرفاء كان يخبو أمام الشريف الحاكم وأمام أسرته، وكان الصرح كله ينتظم سيراً مع المخزن ؛ والدرجة والوظيفة تحددان للأفراد والأسر مكانتهم . فكان أعيان فاس الجديد إذن هم القواد ، سواء كانت مهمتهم مدنية أو عسكرية ؛ كان بعضهم ، وهم من أصل قبائل الناحية ، يحكمون وحدات القوات المسلحة المقيمة حول فاس أو في المدينة المخزنية ؛ ويأتي بعضهم من جميع نواحي المغرب . وكان كثيرون منهم سمر البشرة لم يعرفوا وضعية الأحرار إلا منذ عهد قريب ، الأمر الذي لم يكن يلطّف من عجرفتهم وفظاظتهم البتة .

وكان يتعيش تحتهم جمهور خدام القصر ، وهم مختلفون جداً أصلاً ووضعية ، ثم العسكر الجائع الساذج الذي كان يشكل فائض سكان فاس الجديد .

كانت المدينة كلها موضوعة تحت الشعار المزدوج ، وهو الطاعة للعاهل وحاشيته ، والجهل البسيط المتأصل . فلا شيء يقارن مع الشخصية القوية للمدينة الفاسية القريبة بهذا القدر . هل هما مدينتان ؟ لا بل عالمان مختلفان ؛ فمن جهة مجتمع مدرج الألوان ، غني بالتقاليد ، متشعب إلى أقصى حد ، يشتبك فيه العلم ، والغنى ، والنشأة بطرق كثيرة لتشكل مجموعاً مليئاً بالحيوية ؛ ومن جهة أخرى ، حاضرة إدارية واضحة الطبقية جداً ، يرتكز الكل

---

(21) لقد رسم زميلي السابق وصديقي ف. بونجان بكيفية مشوقة ودقيقة جداً في نفس الوقت ، هذه الأوساط الفاسية الحديثة ، التي ما زالت بعد شبه قروية ، في روايته : **اعترافات إحدى بنات الليل** .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيها على الإرادة أو نزوات صاحب الأمر والنهي ، وكانت العادة الوحيدة فيها هي الامتثال بدون مناقشة ، وحتى بدون تأمل ، والهدف الوحيد هو اكتساب مرضاة شخصيات أعلى درجة مؤقتاً ، ومن يدري ؟ ربما استرعاء انتباه السلطان نفسه أيضاً في يوم من الأيام .

* * *

العلاقات الاجتماعية : ـ كانت العلاقات بين مختلف الطبقات الاجتماعية للمدينة مطبوعة بطيبة القلب وبالبساطة ، فلا يمكن أن يشب بينها ـ حسب معرفتي على الأقل ـ أي أثر لمعارضة يتعذر إصلاحها ، ولا أية علامة للصراع الطبقي . لا أريد أن أقول إن الوئام كان سائداً دائماً وإن المشاجرات الداخلية كانت غير معروفة ، فالتاريخ يدل على العكس . لكن هذه الحزازات ، وهي وليدة معارضات زائلة ومتقلبة بين جموع لا بين طبقات ، كانت من نوع سياسي لا من نوع اجتماعي .

كان ذلك ناتجاً عن أسباب عدة . فالناس ، قبل كل شيء ، يعرف بعضهم بعضاً ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك؛ ولا شيء أكثر في إذكاء المعارضات بين مجموعات اجتماعية من عدم معرفة بعضهم البعض . وسواء ساعدهم القدر أم لم يساعدهم ، فإنهم كانوا يلتقون جميعاً في المسجد ، أو الفرن ، أو السقاية ، بله وحتى في الحمام . كانت النساء يتجاورن من سطح إلى سطح ويساعدن بعضهن بعضاً ، ويلعب الأطفال جميعاً في الزقاق . لم تكن الخصومات منعدمة بالتأكيد ، ولكن لا بد من أن تكون هناك طبائع متنافرة ومواضيع خلاف طفيفة ما دام يوجد ناس يعيشون جنباً لجنب . لم تكن هذه المشاجرات تتجاوز المرحلة الفردية . وكانت أواصر الأسرة تزيد أكثر في تضامن الفاسيين العميق . لقد تعرفت على أحد أعضاء أسرة من التجار الراسخين تزوجت أخته بإسكاف معوز ، فلم تكن هي ولا زوجها يعاملان بعجرفة ، بل كانا يُقتبلان كما يجب أن يقتبل أحباء أقرباء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت الآداب الإسلامية تساعد على التناسق الجيد بين الطبقات الاجتماعية : ومن المعلوم أن هذه الآداب في مبدئها قائمة على المساواة العميقة . وكان العمل بفاس مطابقاً للمذهب : فكل ما كان يحصل لهؤلاء أو أولئك كان يعتبر كأثر للمشيئة الربانية : فالله يُعطي يوماً هذا ما قد يعطيه ذاك غداً ، ولا يجب الاستغراب ولا الاستنكار من ذلك ، لأن « الله أعلم » ولا بد للمخلوق أن ينحني أمام أوامره . ومن جهة أخرى ، ففي مقابل النعم التي يمنحها القدر للأغنياء والأقوياء كانت عليهم واجبات : أن يعملوا بحق الفقراء أي حق الله ، بمناسبة الأعياد الشرعية ، والأفراح العائلية، وذلك بإطعام المتسولين والطلبة . كانوا لا يتظاهرون بالاحتفاظ بكل شيء لأنفسهم وحرمان الغير .

لقد رأينا أن الرأسمالية الفاسية لم تكتس الشكل المطلق السلطة واللّافردي الذي اتخذته في مجتمعاتنا العصرية . لم يكن العمال يشعرون بأنهم مستغلون من طرف أقلية شرهة يكدّون لرفاهيتها المفرطة ؛ وقد كان الصناع حينما يستدعون إلى الأفراح العائلية عند الأغنياء الذين يعرفونهم يشاركونهم في رغدهم - إن صح التعبير - ، وكان يخصص في كل زفاف كبير يوم لصغار القوم ، وهكذا كان بذخ البعض يصبح شيئاً مّا بذخ الجميع .

وأخيراً ، كانت المدينة بأسرها ترتكز على هيكل قوي متين من تقاليد تنظّم ، منذ قرون ، الحياة المشتركة وتمتد إلى جميع الطبقات الاجتماعية : لم تكن هناك تقاليد الأغنياء وتقاليد الفقراء ، ولكن حقاً تقاليد فاس يعرفها الجميع ويجتهد في احترامها . وعندما أقول : الجميع ، أعني جميع الأسر المستقرة بفاس المعترف بها بالإجماع كأسر فاسية . كان الغرباء (البرّانيون) أي المياومون ، والفصليون ، وأولئك الذين يحاولون الاستقرار يعيشون شيئاً مّا على هامش سائر السكان ، بعادات خصوصية ومتغيرة حسب أصل الأشخاص . كان أولئك يشكلون ، إذا شئنا ، شبه بروريتاريا يجهلها أهل فاس ولا ينظرون إليها بدون ازدراء . إلاّ أنه لم تنشأ بين هؤلاء القوم أية روح

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طبقية : وإذ كانوا قليلين جداً بالنسبة لمجموع الفاسيين ، فإنهم كانوا أيضاً مختلفين كثيراً بعضهم عن بعض حتى يشكلوا كتلة واحدة . ومن جهة أخرى ، كانوا يشكلون جمهوراً غير مستقر جداً : بعضهم يندمج شيئاً فشيئاً ضمن السكان الفاسيين ، وبعضهم يعودون إلى مسقط رأسهم . فكان هؤلاء السكان المتقلبون يتفككون ويتألفون ثانية باستمرار دون أن يستطيعوا أبداً أن يشكلوا مجموعة متماسكة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثاني
مشهد الحياة العائلية

الـدار : ـ إن الدار الفاسية على نفس النموذج العام للدور الحضرية في إفريقيا الشمالية كلها : فهي مؤلفة من ثلاث أو أربع حجرات مستطيلة تحيط بصحن مركزي مربع ، مفتوح دائماً تقريباً للهواء الطلق ويجري فيه الماء في فسقيات وسقايات . وهذا التصميم العام قابل لتغيرات حسب ما تكون الدار مُعدة للفقراء أو الأغنياء ، واقعة في وسط المدينة أو في الدائرة ، أو بفاس الجديد .

وإذا اعتبرنا هذه البيانات ، أمكننا التمييز بين ثلاثة نماذج رئيسية لدور فاس ، وهي :

1 ـ دار بدون طابق علوي ، مؤلفة من ثلاث حجرات أو أربع رئيسية ، ومدخل وعدة خلوات تستعمل كمطبخ ومرحاض ، وغرفة المهملات ، حول صحن متفاوت الأبعاد . تلك هي الدار العادية بفاس الجديد وفي الأحياء الفقيرة لدائرة المدينة ؛ وتستعمل غالباً لإسكان أسر عديدة تحتل كل واحدة منها حجرة أو حجرتين .

2 ـ دار ذات طابق أو طابقين (زيادة على السفليّ) منسقة وفق نفس التصميم العام لسابقتها ، لكن غرف المهملات أكثر عدداً بسبب الطبقات ، ويظهر الصحن بها أضيق ، ولو كان فسيحاً بنفس القدر ، بسبب عمقه . ويسلّح

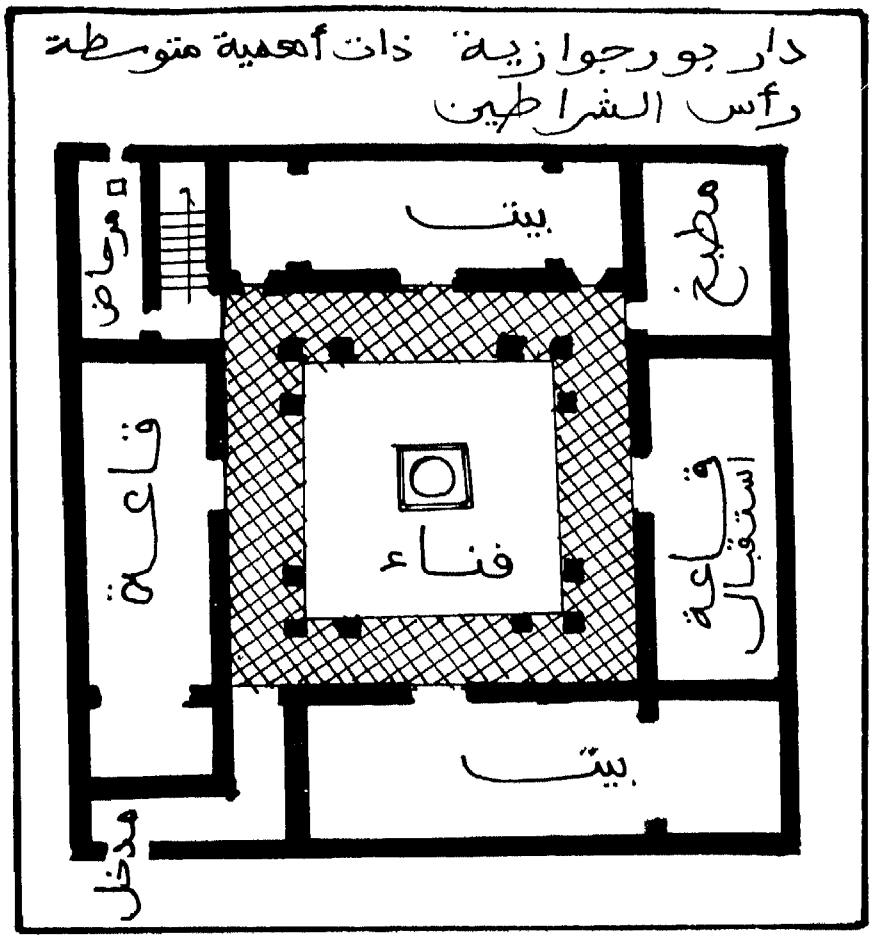

الرسم 32

تصميم طبقة أرضية لدار بالأحياء المركزيّة

(حسب رسم إعدادي لم . جان دولاروزبير)

القسم ذو المربعات مغطى برواق الطبقة العلوية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أحياناً من فوق بقضبان الحديد ليمكن من التظليل في الصيف بالأقمشة ويمنع كذلك اللصوص من التسرب عبر السطح . ويتم الاتصال بين حجرات الطوابق بواسطة شرفة داخلية تمتد على واجهات الصحن الأربع . ويكون الدرج دائماً ضيقاً ، منتصباً ، مستقيماً محتلاً أقل مكان ممكن . وهذا النوع من الدور هو الموجود في جميع الأحياء المركزية للمدينة حيث الفراغ قليل ، وثمن الأرض مرتفع جداً .

3 ـ دار غنية مؤلفة أحياناً من عدة صحون أو من صحن واحد فسيح جداً . وقد يحدث غالباً ، في الأحياء الدائرية ، أن يكون هذا الصحن مسدوداً من ثلاث جهات فقط. ويفضي بجهته الرابعة إلى حديقة مسوَّرة (رياض) . وإذا كانت الدار واقعة في منحدر إحدى ربى المدينة أشرف الطابق الأول على منظر شامل عجيب : قليل من المدينة في المستوى الأول ، ثم رُبى مرقطة بالخضرة ، ثم أفق من الجبال الثلجية . ومن المعلوم أن في جميع المنازل الغنية سقايات وأحواضاً ونافورات يضج ماؤها ، وقد تحتوي أيضاً على حمام خصوصي يغني النساء عن الخروج للاغتسال[1] .

وسواء كانت كل هذه المباني كبيرة أم صغيرة ، حقيرة أم غنية ، فإن الآجر والحجر والخشب والملاط والجير هي موادها الفقيرة . كانت الدور الفقيرة تكتفي بذلك وببعض مربعات الفخار الغير الملمع لتبليط الصحن والحجرات ؛ وكان الصحن في المنازل المتواضعة يبلط بمربعات صغيرة من الفسيفساء الملونة (زليج) وكذلك غرف السكنى . وكلما ازداد الرخاء ، كثر الزليج ، مثلما يكثرعشباللبلاب في أرضية رطبة : يتسلق الأعمدة ، ويغطي الجدران إلى علو طفل ، ويزخرف السقايات بألوانه ورسومه اللامتناهية ،وتتوج نقوش على الجص أعلى الأعمدة وما فوق الأبواب . وكانت جوائز السقف

---

(1) انظر الرسم 32 و33 . إنني مدين بهاذين الرسمين لصديقي يوحنا دولاروزيير ، مفتش مصلحة التعمير لناحية فاس .

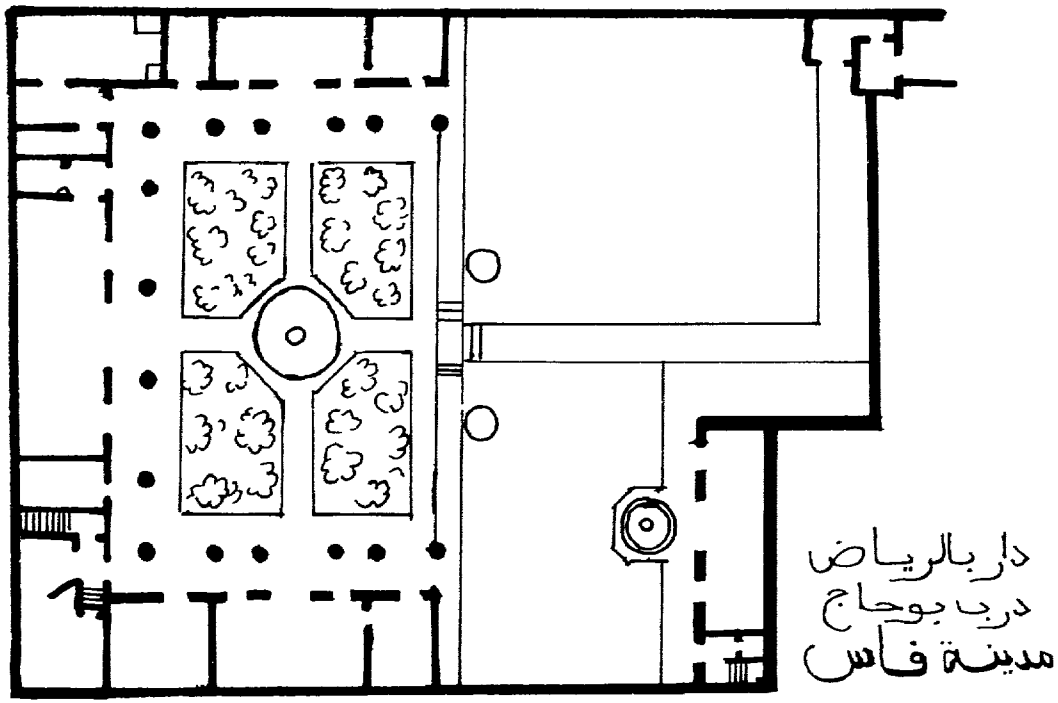

الرسم 33

دار بالرياض في أحد الأحياء الخارجية

(حسب رسم إعدادي لم . حان دولاروزيير)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصبوغة بألوان ناضرة ، ويوضع الرخام بدل الزليج في الصحون وعتبات الحجرات ، والماء يجري في أحواض منحوتة بفن . وباختصار كان هيكل الآجر والجوائز يزدان بكثير من الزخارف فيشكل مظهراً ساحراً .

وكيفما كانت هذه الديار ، فقد كانت كلها مغطاة بسطوح ، تقضي فيها النساء جزءاً من وقتهن ؛ وكان لابد للوصول إليها من تسلق سلّم وعر غُطي منفذه بشبه محرس مبني بالآجر . وكانت هذه السطوح تزعج المالكين لأن إحكام سدها لا يصمد طويلاً تحت وابل مطر فاس الشديد ؛ لذلك كان لابد من طلائها بالجير مرتين في السنة ، مرة قبل أمطار الخريف ومرة قبل أمطار الربيع .

وكان لجميع ديار فاس مظهر عتيق متجهم إذا شوهدت من خارج : ذلك لأن العادة كانت تقتضي ألاَّ يُعاد أبداً طلاء الجدران المطلة على الزقاق ؛ فكانت لذلك تكتسي لوناً أرمد أسمر تزيده دكنة بيوت العنكبوت المنسوجة في زوايا الظل المثقلة بغبار عتيق ؛ ولا توجد نوافذ أيضاً في هذه الجدران المبقعة ، ولا حتى تلك الشبابيك التي تضفي على الأقل نغمة من التنوع على واجهة عارية ؛ وإنما توجد فرجات فقط ، تكاد تكون كوات رمي ، معدة لإعطاء شيء من النور إلى حجرة السلّم والتمكن من مراقبة الزقاق بكيفية خفية . وكان باب الدار المؤلف من مصراع واحد ثقيل مصفحاً بمسامير غليظة سوداء ، وسرعان ما كانت تقلبات الجو تعطيه مظهر شيء قديم كريه .

لم تكن الحجرات تستمد النور إلا من الصحن المركزي ؛ وبديهي أن الواقعة منها في السفلي ، في دار ضيقة الصحن ، كانت مظلمة جداً حتى في الصيف . وكانت كل حجرة يدخلها الضوء على العموم من باب واسع مفتوح في وسط الحاجز ، من جهة الصحن ، ونافدتين متناسقتين مع الباب . ولا رجاج لسد هذه الفتحات. فإذا أريد الاتقاء من البرد، كان لا بد من إغلاق مصراعي النوافذ ومصراعي الباب الثقيلين ، حيث فتح باب صغير إضافي يكفي فقط لمرور إنسان ، بمعنى أنه كان هناك اختيارٌ بين البرد والظلام . وإذا كانت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه الحجرات مستحبة في الصيف ، لكونها تعطي الظل والبرودة ، فإنها لم تكن معدة للشتاء ، لاسيما وأن أية مدخنة لم تكن تمكن من تسخينها[2] .

وكانت هناك مرافق في عدة منازل موسرة ، منها الإسطبل لبغلة رب المنزل ، وحجرة ذات مدخل منعزل واقع على الزقاق (مصرية) حيث كان بالإمكان إيواء الضيوف أو استقبال الزوار دون أن يزعج ذلك الحياة العادية للدار .

الأثـــاث : ـ كان الأثاث ، كالمنزل ، هو نفس الأثاث للجميع في مبدئه ، بما فيه من فرش ووسادات ، وستائر الباب ، وصناديق ، ورفوف من خشب ومواقد صغيرة من طين مشوي للفحم ، وأدوات المطبخ (كالمراجل ، وأطباق منيعة للنار أم لا ، وأباريق ، ولوازم الشاي) ، وموائد مستديرة منخفضة لتناول الطعام . لا يوجد شيء أو يكاد مما نسميه بالأثاث : فإن الكراسي ، والمقاعد المريحة ، والمكاتب ، والخزانات ، والـطاولات ، والمناضد الصغيرة كانت غير معروفة أو معروفة قليلاً جداً ، حتى عند الأغنياء .

كانت الأشياء المذكورة منذ قليل مختلفة كمية وجودة ، حسب حالة مالية مالكها . كان الموسرون يضيفون إليها زرابي رباطية حيناً ، وزرابي مستوردة في أغلب الأحيان ، ولا تكاد توجد زرابي بربرية إطلاقاً . كما كانوا يملكون أَسِرَّة للزينة من نحاس أصفر مستوردة من أنجلترا ، توضع في طرفي قاعات الاستقبال ؛ وكانوا أخيراً مغرمين بالساعات الكبيرة أو الجدرانية لكن كأثاث للتزيين ، لا كآلات لحساب الزمن[3] .

---

(2) تشتمل بعض المنازل الغنية الحديثة البناء على التسخين المركزي ،لكن ذلك ما زال نادراً جداً . وإذا اشتد البرد كانوا يستعملون المجامر .

(3) أضيف منذ بضع سنوات إلى هذا الأثاث جهاز راديو بحجم كبير في الغالب ، كما يمكن مشاهدة خزانات مكتبات ومكاتب وأحياناً أثاث قاعة الأكل .

ولإصلاح الساعات الصغيرة والكبيرة كانوا يلجؤون إلى ساعتيّين (مواكْنية من كلمة ما كْانة =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قد يتخيل المرء أن هذه الحجرات بدون أثاث ، ولا صور ، ولا تحف ، كانت توحي بالتقشف ؛ كلا ، فإن النور الخفيف كان يُلطف صلابة الجدران البيضاء ، والزليج والزرابي التي تغطيه جزئياً ، تسلي العين بسرور ، لا سيما الفرش المنضدة إلى عمق الحجرة المرتفعة بثلاثين سنتيماً على الأقل ، المحشوة بالصوف المدكوك والمغطاة بأقمشة ظريفة مستوردة ، والمحمّلة بكثير من الوسائد المزخرفة بالطرز الفاسي الدقيق الملون . وغالباً ما كانت توجد أيضاً مرآة مؤطرة تقطع بياض الحيطان الشديد .

اللبـــاس : ـ لم يكن أي فاسي يغامر بنفسه ، قبل 1912 ، ليرتدي شيئاً آخر غير اللباس التقليدي ؛ كان بعضهم ممن سافروا يلبسون الزي الأوروبي إذا كانوا في مانتشيستر أو مرسيليا ، لكن لم يكن حتى يخطر ببالهم أن يرتدوا مثل هذ اللباس بفاس[4] .

إنني لأُخصّ عندما أقول اللباس التقليدي ، لأن اللباس ، حسب أوصاف ليون الإفريقي ومارمول ، أحد الأشياء النادرة بفاس التي تغير شكلها كثيراً بين القرن السادس عشر والتاسع عشر. يصف لنا ليون الرجال «وهم يغطون رؤوسهم(*) بقلنسوة تشبه ما يضعه بعض الناس على رؤوسهم ليلاً في

ج مواكن = ساعة صغيرة ، ساعة كبيرة، ريكار رقم 105 ؛ وماسيبون رقم 62) وكانوا قليلي العدد محدودي الكفاءة ، لأنهم لم يذهبوا إلى أوروبا لدراسة آلية الأشياء التي يخدمونها

(4) لقد اتخذ اليوم كثير من المتطورين اللباس الأوروبي ، حتى في المدينة ، ولا يشكلون بعدُ سوى أقلية قليلة، وغالباً ما يرجعون إلى اللباس التقليدي في الاحتفالات العائلية أو الدينية، إذ هذا من باب اللياقة بالنسبة لهم وتجدر الإشارة ، مع ذلك إلى أن الذين يتخذون هذا الزي لا يتعدى سنهم الأربعين ، ولم يترك أي فاسي مُسن لباس آبائه . وليس الأمر كذلك في الجزائر ، وتونس ، حيث تم التطور منذ عهد أطول . أما النساء فقليلات جداً هن اللواتي بدّلن زيهن ، وحتى المتطورات منهن . انظر عن اللباس بفاس قبل الحماية ، ليون الأفريقي ، ص 116-117 ؛ ومارمول ، جزء 2 ، ص 190-193 ؛ وروني لوكلير ، المقال المذكور ، ص 342 ، وتشارمز ، المرجع المذكور ص 175-179 ؛ وأوبان ، المرجع المذكور ص 315-316 ؛ وفيير ، المرجع المذكور ، ص 214-216

(*) ليون الافريقي ، وصف إفريقيا ، الترجمة العربية المغربية ، الطبعة الثانية 1 :251-252.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إيطاليا (طاقيات النوم)، لكن بدون ما يغطي الأذنين، ويلفون حول القلنسوة عمامة من كتان تدور مرتين حول الرأس وتمر تحت الذقن . . . » وها هم الفاسيون إذن بعمامة الدقن على غرار بعض الصحراويين .

وإليكم ، حسب مارمول ، لباس النساء الكريمات النسب عندما كن يخرجن : « . . . إذا خرجن ، وخاصةً الأندلسيات الأصل ، لبسن سراويل طويلة متموجة جداً للتظرف ، لأن لباسهن لا يصل إلاّ إلى منتصف الساق . وينتعلن خفين بقدر أقدامهن تماماً ، مصنوعين من الجلد المغربي الناعم جداً والمطرز بالحرير الملون. . . »[5]. فنحن بعيدون من امرأة 1900، التي تغطي رأسها بحايكها ، الملتفة في فستانات مسدلة حتى الكعبين ، المنتعلة نعلين أسودين . كان الزي النسوي بفاس ، في عهد مارمول ، ويقول ذلك بصراحة[6] ، هو زي موريسكيات غرناطة ؛ لكن رد الفعل الديني في أواخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر أتى على ذلك وأرغم النساء على حشمة أكثر .

ومن جهة أخرى ، فإن اللباس ، سواء كان مختصاً بالرجال أم بالنساء ، قد تحمّل عواقب تضخم الاستيرادات الأوروبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر : فقد انتشر كثيراً استعمال الطربوش المصنوع بأوروبا ، على حساب الشاشية التقليدية المصنوعة محلياً . كما أن الأقمشة المستوردة أزاحت بشدة المنسوجات الأهلية ؛ وبدلاً من أن تكون مخصصة لكبار الأغنياء ، كما كانت عليها الحالة في القرن السادس عشر[7]، فقد تمكنت الطبقة المتوسطة من شرائها .

ورغماً على هذه التغيرات الهامة لأنها كانت تبدل شبح الأشخاص ، فإن الاقتصاد العام للبذلة بقي هو ذاته ، اقتصاد اللباس في جميع البلدان العربية ،

---

(5) جزء 2 ، ص 192

(6) نفس المرجع ، ص 193

(7) ليون الإفريقي ، الكتاب 2 ، ص. 100 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أي: قميص (تشامير)، وسروال، وحذاء (بلغة ، ج. بلاغي)[8] كان يلبسها الجميع ، رجالاً ونساءً ، صيفاً وشتاءً . وكان هؤلاء وأولئك يضعون فوق ذلك ألبسة مختلفة حسب الجنس والفصل .

كان الرجال يرتدون مجموعة مؤلفة من صدريةٍ مسدودة مطرزة ، وسروالاً من الجوخ ، وسترة قصيرة مفتوحة مطرزة ذات كمين مفتوحين إلى المرفقين . كان الكل من نفس اللون ويسمى جبادور ملطم[9] . وكانوا يلبسون فوقه غندورة رقيقة ، بكمين أو بدونهما ، وهي أشكال متعددة[10] . وكان بالإمكان شدها في الخصر بحزام يحمل أسماء مختلفة حسب نوعه[11]: كان هذا لباس المنزل ، يضيفون إليه في الشتاء رداءً مسدولاً حتى القدمين (قفطان) . وكان الرجال عندما يستعدون للخروج ، يلبسون جلباباً واسع الكمين فيه غطاء للرأس ، يتغير لونه حسب الذوق العام (موضا) ،و معطفاً واسعاً من صوف داكن اللون في غالبِ الأحيان (سلهام) ، أو معطفاً أبيض من صوف وحرير أو من صوف وقطن (كساء) . وعلى الرأس عمامةً بيضاء (رزة) أو عمامةً من حرير مطرز (شان أو شراشاكر)[12] ، أو قلنسوة لينة ملفوف عليها عمامة (شاشية)[13]، أو في الأخير قلنسوة صلبة مخروطية

---

(8) كان لابد للنساء ، إذا أردن المشي في الزقاق ، أن ينتعلن نعلين أسودين مربعي الأطراف (ريحية)؛ وكن يرتدين ، بمناسبة الأعياد والاحتفالات ، أحذية مزخرفة بشرابات فوق الرّجل (شربيل ، ج. شرابيل) ؛ وفي الدار كن يستعملن أحذية مماثلة لأحذية الرجال .

(9) لم يكونوا يرتدون السترة في الصيف ، ويلبسون فقط صدرية خفيفة تسمى (بدعية) .

(10) كانت الغندورة الكثيرة الاستعمال ، واسعة إلى حد ، ذات كمين طويلين تحمل اسم دراعية ؛ وكانت غندورة المثقفين مصنوعة من قطن رفيع ، تسمى فرجية . وأخيراً كانت هناك غندورة ذات كمين قصيرين جداً يلبسها خاصة الحلاقون وتسمى من أجل هذا حجامية .

(11) كان الحزام المصنوع من الجلد المطرز يسمى (مضمّة)؛والحزام من الجلد البسيط (سَمْطة)، والحزام من الصوف (كُرْزِيّة) .

(12) كان غطاء الرأس هذا يشتريه الحُجاج من الشرق ؛ ويدلّ مجرد اسمه على أنه لم يكن من أصل مغربي .

(13) كان المستخدمون التابعون للمخزن يلبسون قلنسوة مستدقة الرأس بدون عمامة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشكل ، مستوردة من أوروبا (طربوش) .

كان النساء يلبسن في الشتاء ، فضلاً عن ملابسهن التحتية ، رداءً من جوخ (قفطان) مسدولاً حتى الكعبين ومزرراً من أمام ؛ وفي الصيف رداءً من نفس التفصيل لكن بلا كمين (بدعية) ؛ وفوق الرداء شبه قميص شفاف[14] ، يتراءى من خلاله ملطفاً لون الرداء . ويُشد في الخصر بحزام من جلد مطرز (مضمة) أو من حرير مطرز بخيط ذهبي ذي أهداب ثقيلة (حزام) . وكانت جدائل متقاطعة في الظهر (تخمال) تمنع كمي القفطان من عرقلة الحركات ؛ وفي الرجلين ، وعلى الأقل في الفصل البارد ، جوربان من قماش قطني (رجلات أو رجلين السروال) ؛ وعلى الرأس زينة معقدة ، لكنها أنيقة جداً (حنطوز)[15] خصص لها كابريال تشارمز الوصف الآتي : « هي شبه تاج أسقف موسع في الجانبين ينتهي إلى أعلى في خطٍ منحنٍ أنيق جداً ، يسمى حنطوز . وإليكم الأشياء الكثيرة والمتنوعة التي يتألف منها . يوضع على الشعر الممشوط المضفور بشكلات سبطة خمار من التول الأسود المنتهي في الطرفين بأشرطة ذهبية عريضة ، هي (الشربية) . ويوضع على (الشربية) التاج المصنوع من حرير أحمر مبطن ينتصب في طرفيه خماران مثلثان مبطنان كذلك عاليان بقدرٍ كافٍ : ذلك هو (الحنـظور) بمعنى الكلمة . ويشدّ بخيط مطاط يمر تحت جديلة شعر مؤخر الرأس ؛ وتبسط على (الحنطوز) عصابتان مطرزتان بالذهب ، تسميان (حفيظات) ؛ وأخيراً ، ينظم على (الحفيظات) بفنٍ منديلان من حرير منسوج بالذهب يسميان (سبنيات) ، يغطّيان الحنطوز تماماً ويتدليان على الظهر بثنيات خفيفة . وتضاف كذلك أحياناً لآلئ وجواهر . وإذا ما غير وضع (السبنيات) ولونها وقع التوصل إلى تنسيقات

---

(14) كان القميص الأبيض يسمى (فرجية) ، والقميص المطبوعة فيه الرسوم أو المطرزة في قماشه (منصورية) أو (دفينة) .

(15) لقد ذهبت كلياً هذه الزينة ،حتى عند النساء المسنات ؛فلم تعد النساء يلبسن الآن إلا مناديل ملونة ذات منظر ألطف ، وغالباً ما يكُنَّ مكشوفات الرأس وشعرهن مضفور بعصابات مبسوطة . كانت المناديل تسمى (سبنيات الميزان) ، لأنها كانت تُباع بالوزن .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

متنوعة جداً. وبأية كيفية وضعت (السبنيات) إذا انتهى تزيين الرأس، يرفع جانباً الشربية ، حتى تسدل هذه اللفائف الذهبية مباشرةً على الكتفين .

« ويوضع أحياناً إكليل على الحنطوز ، ولكن ذلك خطأ في الذوق لا تسمح به لأنفسهن سوى النساء الطائشات أو اللواتي يردن عرض ثرواتهن . . . وتضع (الحنطوز) النساء المتزوجات فقط . أما الفتيات فإنهن يعقدن فقط منديلاً في مؤخر الرأس أو شبه عصابة على الجبين »[16] .

وإذا أرادت النساء الكريمات النسب الخروج تلثّمن لزوماً بلثامٍ أبيض غليظ يترك العينين مكشوفتين ، ويلتحفن بقطعة طويلة من قماش أبيض (حايك) يحجب أشكالهن تماماً[17] .

ولا بد من أن نضيف أن نساء فاس كن يتخضبن كثيراً : الكحل للعينين ، والحمرة للخدين مع المسحوق والنقط السوداء ؛ ولم يكن ينقصهن سوى مراهم التجميل التي بدأت الآن تظهر إلى الوجود. كما أنهن كثيراً ما كن يخضبن اليدين والرجلين بالحناء ، إما بلون موحد ، وإما برسوم كن يلجأن في تسطيرها إلى نساء محترفات (معلمات حنايات)[18] .

وكان الحلي من الذهب والفضة المرصع غالباً بالجواهر الملونة ، موضوع افتخار كبير ، كحلي الجبين ، والأكاليل ، وأقراط الأذن ، والقلادات ، والأساور وحتى الخلاخل . وكان الحلي يُعار عن طيب خاطر بين الصديقات بمناسة الاحتفالات[19] .

---

(16) كانت تدعى هذه العصابة المنسوجة بالحرير والخيط الذهبي (أوقاية) .

(17) يميل الحايك اليوم أكثر فأكثر إلى التنازل للجلابة ، وهي معطف خفيف ذو كمين مع غطاء الرأس يسمح بالتحرك أكثر .

(18) ميشو- بلّير ، قصور ، ص. 649 ، هامش 1 .

(19) فْيير ، المرجع المذكور . انظر في هذا الصدد مجموعة الحلي القديمة بمتحف البطحاء بفاس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت هذه الملابس والزينات تخضع طبعاً (للموضا) ؛ فلم يكن يتغير تفصيل الملابس ، وظل ثابتاً إنه لم يخطر ببال الخياطين الفاسيين أن يدخلوا عليه أدنى تعديل. إنما الذي كان يتغير ، بالنسبة للرجال والنساء معاً ، هو اللون وجودة الأقمشة المستوردة : فكان الأنيقون والأنيقات بفاس يولونهما اهتماماً بالغاً. وأظن أن باعثي (الموضا) كانوا هم المستوردين الرئيسيين للمنسوجات ، وذلك لأسباب يسهل إدراكها ؛ وحيث إنهم كانوا يعدون من جملة النخبة الفاسية ، لم يكن يتعذر عليهم « ترويج » لون أو قماش جديد[20] .

---

(20) إن الحماية لم تكن إلا لتزيد في تنمية ظاهرة (الموضا) : فقد ظهرت شيئاً فشيئاً إلى الوجود ربطاتُ العنق ، والأحذية الأوروبية ، والجوارب الطويلة ، وملابس النساء الداخلية ، وسرعان ما أصبحت موضوعات (الموضا) . وحتى الحوادث السياسية لها تأثيرها أحياناً في هذا المجال ؛ فقد رجع عدة شبان أنيقين إلى الجلابة والعمامة ، على إثر مسألة الظهير البربري مباشرة ؛ وبعد ذلك حوالي 1932 ، انتشرت القلنسوة العراقية بكثرة عند الوطنيين الشباب . وقد أعطى بائعو القماش ، على غرار زملائهم الأوروبيين ، للمنسوجات الخاضعة (للموضا) أسماء جذابة ولكنها ليست دائماً ذات ذوق جيد . وإليكم لائحة وضعها العقيد سالانيي (محاضرة غير منشورة حول فاس) لسنة 1942 : « **الشالات** : خصلة السيدة ـ قبعة الماريشال بيطان ـ شفاء جلالة الملك ـ الطيور في السما والشاقور في رأس الحما ـ وعجز الرامي ـ ورجلا الزوج المخذوع في الدرج .

الموصليات : الثلج فوق الجبل ـ البَسْني وانْسَني ـ بعيد عني ـ دعابة ـ سقيتك أيها الحمام الظريف » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث
الـــزواج

إن الأسرة بفاس هي العنصر الأساسي للحياة الاجتماعية ، شأنها في ذلك شأن إفريقيا الشمالية كلها والعالم العربي أجمع . ليس للفرد المنعزل سوى أهمية ثانوية ، لا يقوم بدوره الاجتماعي إلا بصفته عقباً لسلالة ما ، كما أنه لا يعدّ في البادية إلا كعضو من قبيلة أو فخذ منها ، وفي الحياة الاقتصادية ينخرط في طائفة حرفية أو في سوق .

فينبغي إذن قبل كل شيء دراسة سلوك الأسرة بفاس ، ابتداءً بالعقد الذي يشكلها ويؤبّدها ، ألا وهو الزواج[1] .

من الواجبات الاجتماعية المفروضة على المغاربة تأسيس أسرة : لذلك نجد في المغرب العربي عدد العازبين أو العانسات قليلاً جداً ؛ ولا تستثنى فاس من هذه الظاهرة . سوف لا أدرس هنا الأحكام القضائية للفقه الإسلامي التي يخضع لها عقد الزواج ، ولكنني سأتحدث فقط عن الاحتفالات المعقدة الدقيقة الذي تنظم الاحتفاء بالزواج[2] .

---

(1) انظر عن الزواج بفاس ، ليون الإفريقي ، الكتاب 2 ، ص. 120 -125 ؛ وڤيستيرمارك ، حفلات الزواج ، هنا وهناك ؛ وج.ج. طارو ، فاس ، ص. 130 -185 ؛ وأوبين ، المرجع المذكور ، ص. 322 -326 ، وق. بنعبد الجليل ، حفلات الزواج بفاس ، في وثائق غير منشورة لأصدقاء فاس ؛ وج. جوان، دراسة رسوم الزواج. للمقارنة مع الزواج بتونس(هـ . دو مونتيبتي ، الزواج الاسلامي بتونس) .

(2) من المفروغ منه أن المعلومات الآتية تهمّ خاصة العائلات الموسرة ،وفي الأوساط المتواضعة تكون مراسيم الخطبة والزواج أقل دقة ، غير أنها تخضع لنفس القواعد العامة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخطبـــة : ـ كانت أم الأسرة على العموم هي التي تختار خطيبة ابنها[3]. وقد يتفق أن يكون اختيارها موجهاً حسب التقاليد : فلابن العم الحق في أن يتزوج ابنة عمه ، وهي ابنة الأخ وفق العادة الجارية ببريطانيا ، له الحق قبل كل طالب زواج آخر، «وكل أسرة تحترم نفسها تحترم هذه العـادة »[4]. وغالباً ما تكون أم الأسرة كذلك قد لاحظت أثناء احتفالات كانت قد استدعيت إليها ، فتاة مكتملة ، محتشمة ، خدومة ، خبيرة باللياقات ؛ أو لمحت أيضاً في الحمام فتاة سليمة وخاصة محكمة البنية . فإن لم تتمكن من تحديد اختيارها بنفسها لسبب من الأسباب ، كانت تلجأ إلى صديقات ، وإلى الخاطبات[5]، أو في حالة العائلات المتواضعة الى الدلالات[6] اللّائي يعرفن الكثير من الناس ويستطعن تقديم معلومات مفيدة . وعلى أي حال ، فليس الفتى هو الذي كانت له المبادرة في اختيار خطيبته ، ويمكن القول إنه لم يكن يعرفها قبل يوم الزفاف إلا بالأوصاف التي قدمتها له أمه ، أو أخواته أو إحدى قريباته[7]. وقد يحدث، في حالة الارتباط بين الأقرباء أو بين العائلات التي تجمع بينها صداقة وثيقة ، أن يقرر الزواج ، وعلى الأقل في ذهن الآباء ، قبل بلوغ الشابين السن اللائق بكثير ؛ لكنهم كانوا ينتظرون للتفكير في الزواج أن يدرك الفتى سبع عشرة أو ثماني عشرة سنة ، وأن تبلغ الفتاة الحلم أو تكاد[8] .

---

(3) وكان العمل جارياً بنفس الشيء في تونس : انظر هـ . دومونتيلي، المرجع المذكور ، ص. 31 .

(4) بنعبد الجليل ، المرجع المذكور . فإذا أريد رفض زواج ، قيل إن الفتاة مخطوبة لابن عمها (ڤيستيرمارك ، الزواج ، ص . 22) .

(5) انظر ما ياتي، ص. 526 وما بعدها . وكان الرجوع في تونس إلى سمسارات يهوديات (خطابة ج. خطبات) ، (هـ . دومونتيلي ، المرجع المذكور ، ص. 31) .

(6) ج. ج. طارو ، فاس ، ص. 135 .

(7) ليس للشاب ، في الساعة الراهنة ، بادرة الاختيار ، مع أن حركة لصالح هذا التجديد أخذت تتضح بجلاء شيئاً فشيئاً ، لكنه استطاع في عدة حالات ، أن يرى أو يلمح خطيبته أو أن يطلب مشاهدة صورة فوتوغرافية لها .

(8) لقد تأخر سن الزواج ، منذ الحماية ، لاسيما بالنسبة للرجال : فالتعود على القيام بدراسات=

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإذا تم اختيار أم الأسرة ، أفضت بذلك إلى زوجها ، فإذا وافق على الزواج ، قررا معاً إشعار ابنهما بذلك ، لكنه من الصعب التحدث مع شاب حول هذا المشروع ، وهنا نرى الاحتشام البالغ يبرز ، وهو من العادة المتبعة بين الآباء والأبناء . فكان يعهد إذن في الغالب ، من أجل ذلك ومن أجل عدة أشياء، إلى وسيط يكون قريباً أو قريبة، أو حتى صديقاً محترماً، تمكنه تجربته وتأثيره في الشاب من التعرض لهذا الموضوع الصعب[9] . فإذا أخبر الشاب وصفت له أخته ، إن كانت له أخت (وهي مطلعة على الأمر طبعاً) ، الفتاة المختارة قائلةً : « اسمع ، يا أخي العزيز ، إنها غزالةٌ ، لها جسم من حرير ، وقدّ رشيق ، قامتها عجيبة : فلا هي مفرطة الطول ولا مفرطة القصر ، ولا مفرطة السمن ولا مفرطة الهزال ، انسجام تام ! شعر كث ، وردتان في الخدين ، وأنف دقيق كحبة القمح ، وعينان سوداوان عليلتان ، وظلّ الأهداب على خديها . لكن أين هو اللسان الذي يمكنه أن يصف جمالها ؟ »[10] .

وإذا اقتنع الشاب ، قام أبواه فوراً بالمفاوضات من أجل الخطبة ، أي طلب الزواج . وأمه أيضاً هي التي كانت تقوم بالمسعى الأول : تصحب معها عدة قريبات لها في أجمل زينتهن ، وتذهب لزيارة أم الفتاة ، فتطلعها على مشروع الزواج بعد تبادل التحيات المعتادة ؛ وكانت تصطدم أحياناً برفض مهذب لكنه بات ، لا يفيد الإلحاح معه ؛ وإلا فتقول أم الفتاة إنها ستستشير زوجها ويمكنها أن تعطي جواباً مبدئياً بعد بضعة أيام ، ثم على « الرجال » أن يتدبروا الأمر فيما بينهم . وكانت الزائرة تحاول أيضاً أن تغتنم هذه الفرصة لترى فجأة البنت التي جاءت تخطبها ؛ لكن الفتيات كن يحترسن ولا يتركن دائماً أنفسهن للمفاجأة ؛ فكانت اللياقة تفرض عليهن أن يختفين ما أمكنهن

طويلة ، والرغبة في عدم الزواج إلا بعد التأكد من وضعية ثابتة ، كانت أسباباً يقينية لهذا التطور ؛ لكنه يجب أيضاً أن يعتبر التحرير التدريجي للشبان الذين يخشون أن يقرروا الزواج مبكراً جداً ، بينما يميلون أكثر فأكثر إلى المساهمة في اختيار رفيقتهم .

(9) انظر ج. ج. طارو ، فاس ، ص. 133 -135 .

(10) ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك . وفي هذه الأثناء ، كان أبو الفتاة يستخبر ، عند الاقتضاء ، عن أسرة طالب الزواج (أي الحالة المالية ، والمصاهرات ، والكرامة) وحول سلوكه ؛ ولا يفوت النساء من جهتهن أن يقصدن الخاطبات اللواتي يعرفن جميع أسر المدينة ويستطعن إعطاء معلومات نفيسة . وبعد بضعة أيام ، كانت أم الشاب تقوم بزيارة ثانية وتستشف الجواب المعد لها « من مجرد الكيفية التي كانت تُستقبل بها »[11]:كانت ترى حيناً هـل أُنفـق الكثير لاستقبالها أم بالعكس وقع التظاهر بمفاجأة مجيئها . وفي حالة القبول كانت أم الفتاة تنطق بالعبارة شبه الشعائرية الآتية : « حتى لو طلبت مني عيني ، ما ترددت في إخراجهما لك يا للاَّ ، لن يجعل الله إلا خيراً ، لكن لا بد أن يلتقي الرجال ويتحدثوا في ذلك »[12].بالإضافة إلى أنهن يتعرضن ، أثناء هذه الزيارة إلى المسائل المالية التي كانت النساء يتحدثن بينهن فيها بكامل الحرية ؛ وكان كل شيء يسوى ذلك اليوم في خطوطه العريضة .

وإذ ذاك يدخل أرباب الأسرة إلى المسرح . فكان أبو الشاب يذهب عند أبي الفتاة في يوم جمعة بالأحرى ـ لتوفر وقت أكثر ذلك اليوم ـ ، وقد اصطحب معه لأجل المناسبة أربعة أشخاص أو خمسة من الأقرباء او الأصدقاء وذوي المكانة ، من بينهم شريف في أغلب الأحيان[13] . كان الاجتماع يبتدئ عادة بتناول الطعام ، ثم إن اثنين من الزوار يختليان بالمضيف على حدة ويشرعان في الحديث على الوجه التالي تقريباً : « سيدي ، إن الغرض من زيارتنا هو أن نخطب ابنتكم الكريمة الفاضلة ، للاَّ فلانة ، للسيد فلان ، نجل صديقنا كلنا وأخينا الحاضر هنا فلان»، وكان أبو الفتاة يرد على هذا بقوله أخيراً : « ليست ابنتي منذ الآن سوى إحدى بنات السيد فلان ، وأعتبرها ابنة له منذ هذه اللحظة بالذات »[14]

---

(11) نفس المرجع .

(12) نفس المرجع .

(13) كان اللقاء حسب ڤيستيرمارك ـ (ص. 23) يتم في أحد المساجد .

(14) . بنعبد الجليل ، المرجع المذكور .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان جميع هذا الظرف من المحادثة منظماً من قبل بمجرد ما تم الاجتماع ؛ لكن الشيء الذي لم يكن محدداً مسبقاً والذي كان يفضي إلى مناقشة حقيقية هو مبلغ المهر (الصداق) الذي على زوج المستقبل أن يدفعه . وإذ ذاك يشاهد داخل الحجرة الظليلة الهادئة ، التي لم يقطع صمتها سوى همس المذاكرة وخرير نافورة الماء ، الذهاب والإياب للمفاوضين بين ربي الأسرة ، ذلك الذهاب والإياب الذي يسميه بظرافة الأخوان طارو (بالي المهر)[15] . كان أبو الفتاة يدلي برقم [16] يبلغ إلى أبي الخاطب ، ويقترح هذا الأخير رقماً آخر وينتهون إلى اتفاق في مقابل تنازلات متبادلة . وفي الأخير ، يكون كل شيء قد تقرر ويمكن تحديد تاريخ الخطوبة الرسمية .

وما إن كانت البشرى تزفّ إلى أهل المنزلين حتى تنطلق الزغاريد، وتستعد أم الشاب للقيام بزيارة جديدة لأم الفتاة (كمالة العطية)[17]؛ وقد أرسلت من قبل بعض الهدايا إلى زوجة الابن المستقبلة تتألف من قطع قماش وتمر، وشموع ، وحناء (حناء النسبة = حناء المصاهرة) ، وكان تسليم هذه الهدايا ، الذي يتم تحت حراسة خاطبة ، مناسبة لاحتفال عائلي[18] . ثم تقوم أم الشاب بمسعاها ، بصحبة عدة قريبات ، فتقام لها مأدبة فاخرة ، وبعد تناول الشاي كانت تذهب لتتفقد زوجة ابنها المستقبلة ، مدعية أنها تريد زيارة الدار ، وقد اختفت هذه الأخيرة عن أنظار الزائرات ، بصفتها شابة مؤدبة جداً ؛ وإذا ما

---

(15) المرجع المذكور ، ص. 141 .

(16) يختلف مبلغ المهر كثيراً حسب الأسر . وكان « الصداق » في نظر ڤيستيرمارك (المرجع المذكور ، ص. 63) حوالي عام 1920 ، يتراوح من 70 إلى 100 ريال بالنسبة للبكر ، ومن 30 إلى 40 ريالاً بالنسبة للأرملة أو المطلقة ، في أوساط البورجوازية الصغيرة ، وقد يصل إلى 600 ريال في الأسر الغنية . وكان المهر ، حسب بنعبد الجليل سنة 1939 من 14 إلى 15000 فرنك في الأسر الموسرة .

(17) كانت تستعمل في البادية ، حيث كان الكلام سليماً أكثر ، العبارة الفصحى : تكميل العطية . التي كان لها نفس المعنى .

(18) كان هذا الاحتفال يكتسي طابعاً أكثر اتساعاً منه في الأوساط البورجوازية ويسمى (الزغاريت) الزغاريد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اكتشفت أخيراً ، تطاوعت للتقبيل دون أن تنبس ببنت شفة ، لأن اللياقة تفرض عليها التمسك بالصمت[19] .

وإلى هنا لم يعرف الزواج المتوقع إلّا من طرف الأسرتين ومن عدد قليل من الوسطاء الكتومين الذين وقع الاتصال بهم. نلاحظ أنه يكتسي ، منذ البداية ، طابعاً مخالفاً تماماً للزواج كما تتصوره المجتمعات الغربية : فعندنا ، حسب القانون الكنسي والقانون المدني معاً ، يكمن جوهر الزواج بالذات في إرادة الاقتران التي يعبر عنها بحرية رجلٌ وامرأة : ما زال يحدث في الغالب أن تتدخل العائلات بكيفية قطعية كثيراً أو قليلاً ، لكن العوائد تميل شيئاً فشيئاً إلى أن تنطبق مع المذهب وتجعل من الزواج نتيجة قرارين فرديين . أما في فاس ، كما في جميع البلدان الإسلامية ، فكانت العائلات ـ وما تزال ـ هي التي لها مبادرة القرارات؛ كان الشاب يطالب بالإفصاح عن الاختيار الذي اختير له (والذي كان يقره عادة) لا الفتاة أبداً ، فكانت ملزمة بالخضوع إلى رغبة أبيها بموجب السلطة التي كانت له عليها[20] .

كان الأمرُ يتعلق إذن بقرارات فردية أقل منها عائلية ، إذ أن الزواج كان مصاهرة أسرتين قبل أن يكون اقتران رجل بامرأة .

كانت الخطبة الرسمية تقام بعد ذلك بقليل ، يوم جمعة ، عند صلاة العصر ، حيث يجتمع رجال الأسرتين مع أصدقائهم ، وحلاقيهم الذين يكونون كلفوا بتبليغ الاستدعاءات ، في مسجد أو ضريح المولى ادريس ، أو في زاوية ينتمي إليها أبو الفتاة[21] . وبعد صلاة الجماعة ، تجتمع المجموعتان

---

(19) ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور .

(20) هكذا كانت تسير الأمور مبدئياً وفي الواقع كانت الفتاة تحبر وتستشار ، ما عدا في بعض الأسر البالغة الصرامة تماماً كما في تونس (هـ. دومونتيلي ، المرجع المذكور ، ص. 15) .

(21) يقام بتونس احتفال مماثل بين النساء في منزل الخطيبة ، بينما يقرأ الرجال الفاتحة في إحدى الزوايا (نفس المرجع ، ص. 33) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجهاً لوجه ، ويدعوهما أحد أفرادهما : شريف أو مقدم طائفة أو إمام ، بعد أن يقف بينهما ، إلى التهيؤ للدعاء ؛ فإذا اتخذ الجميع الهيئة الشعائرية بِمدّ الأيدي وتوجيه الأكف إلى السماء ، قرأ مسير الاحتفال بصوت منخفض أول سورة في القرآن ، وهي الفاتحة ، فإذا أتم القراءة « مسح وجهه وصدره بيديه » وهو يلثمهما برفق عندما تمسان شفتيه» وينطق بالعبارة: «الحمد لله رب العالمين »[22] . وبعد أن يحذو جميع الحاضرين حذوه ، يصطفون في الصحن في شبه قوس دائرة ، ثم يتقبل كلا الأبوين تهانيَ أصحابهما قائلين لها : « مباركة سعيدة هذه المصاهرة ! » أو : « الله يكمل بخير ! » وأخيراً ، يتقبل كل أب تهانيَ أعضاء المجموعة الأخرى[23] .

كانت الفاتحة هي العمل الديني الوحيد بمعنى الكلمة الذي كان يطبع مراسيم الزواج ؛ حقاً إن الدين لم يكن مختفياً تماماً فيما بعد ، إذ كانت الخاطبات يرتلن في عدة مناسبات أناشيد في حمد الله والصلاة على رسوله ، لكن كل شيء كان يتمّ خارج أماكن العبادة ، وبدون أية صلاة شرعية تقريباً . فليس للزواج الإسلامي قطعاً طابع الأسرار المقدسة الذي تضفيه عليه معظم الفرق المسيحية .

كانت الأسرتان تحددان فترة الخطبة من ستة أشهر إلى سنتين حسب الظروف . وكان الخاطب طوال هذه المدة لا يغفل عن أن يرسل إلى زوجته المستقبلة هدايا (تفكرات)[24] بمناسبة الأعياد الإسلامية ، كقطع من القماش ، وفساتين وحلي . لم يكن الغرض من ذلك أن يسر الخاطب زوجته المستقبلة فحسب ، ولكن ليظهر فعلاً علنياً بأنه ما زال يحتفظ دائماً بالتعهد القائم بينهما .

---

(22) ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور ، ڤيستيرمارك ، **الزواج** ، ص. 25 .

(23) ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور . ويذكر ڤيستيرمارك (المرجع المذكور ص. 26-28) حفلاً عائلياً يسمى ليلة الفاتحة ، لم أعثر على أثر له في الأوساط الموسرة الفاسية .

(24) من فعل فكّر . يعبر الخاطب هكذا لخطيبته أنه يتذكرها ويخبر الجميع بذلك (ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المهر والعقد : ـ كان أداء المهر يمثل نهاية الخطبة وبداية أفراح الزفاف ، ويقترن بتحرير العقد . كان الأبوان يحددان تاريخه قبل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ، إذ كان لا بد من القيام بالاستدعاءات والاستعدادات . تقام وليمة كبرى في كلتا الدارين بقائمة طعام تقليدية : الدجاج المحشو ، ولحم الغنم باللوز و(البريوات)[25] . ويكون عدلان قد استدعيا عند أبي الشاب ؛ وبعد تناول الطعام ، يطلب مضيفهما-منهما أن يعدّا أمامهما المبلغ المتفق عليه نقداً مدوياً[26] ؛ ويوضع المبلغ في أكياس لحمله إلى أبي الفتاة ، يواكبه العدلان وأربعة من الأصدقاء الأمناء . كان على الوافدين الجدد أن يجلسوا فوراً حول المائدة ، وبعد أداء هذا الواجب ، كانوا يدفعون إلى المسلم إليه المبلغ الذي ائتمنوا عليه ، ثم يحرر العدلان العقد . وفضلاً عن الشروط المتعلقة بالمهر ، كان العقد ينص عادةً على أن زوج المستقبل سيضع في خدمة زوجته أمة ، يذكر ثمن شرائها ؛ كما أنه بالإمكان أن يتضمن شروطاً خاصة كمنع زوج المستقبل مثلاً من إسكان امرأته خارج فاس[27] أو حق المرأة في أن تطلق نفسها إذا تزوج عليها زوجها .

---

(25) تسمى هكذا حلويات مورقة مصنوعة من العسل واللوز ، على صورة رسالة مطوية على شكل مثلث (نفس المرجع) .

(26) كانت هذه التفاصيل صالحة بالنسبة للفترة السابقة للحماية ؛ وقد استمر العمل مدة طويلة بالنقود المعدنية بعد مجيء الفرنسيين ؛ لكن الآن أصبحت الأوراق البنكية سارية المفعول . وقد أُشعرت (في صيف 1946) بأن (الموضا) الأخيرة تقتضي دفع المهر على شكل شيك .

(27) هذا نص عقد الزواج الذي ذكره ق. بنعبد الجليل (المرجع المذكور) :

« الحمد لله المصدر الوحيد لجميع النعم ، على ما يجب له . والصلاة والسلام على نبينا ومولانا ، وعلى آله وصحبه الذين قاموا بعده بنصرة الدين.وبعد ، بفضل الله تعالى ، ومشيئته الربانية ، ومعونته النفسية وتحت رعايته الكريمة ، زوج السيد الحاج بنسالم ابنه السيد الحسن بالآنسة لـلاّ زيب ، بنت الحاج عبد الله ، البكر المصونة ،في حجر والدها وتحت رعايته ، وهي حِلّ للزواج وذلك بمهر مجموعه أربعة عشر ألف فرنك (14.000 فرنك) بالنقود الجاري بها العمل .

=

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا حاجة إلى التذكير هنا بالتفاصيل بطابع المهر الذي يدفعه الزوج ؛ لا شك أنه كان في القديم يمثل ثمن شراء الفتاة ؛ وقد صار مع مرور الزمان صداقاً يهبه الزوج لزوجته ، ويتحول فوراً إلى أشياء لتجهيز منزل الزوجين الشابين . على أن أبا الفتاة ملتزم عادةً بأن ينفق على الأقل مبلغاً مماثلاً للمبلغ الذي تسلمه لبيت الزوجين الشابين ، اللهم إلّا إذا كانت شروط مضادة مصرح بها في العقد. وهكذا فإن الصداق لا يشكّل جهاز العروس فحسب ، ولكن أيضاً الأثاث الذي يرى ضرورياً، نظراً للوسط الاجتماعي للزوجين الشابين[28] .

= « وتوصل أبو الزوجة من أبي الزوج المذكور بالمبلغ كله بمرأى من العدلين الممضيين أسفله وأبراه منه إبراءً تاماً .

« وقد تزوج المذكور المذكورة في أسعد طالع ، حسب الشريعة الإسلامية وما يأمر به القرآن من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان .

« وزوج أبو البنت المذكورة ابنته بما خولّه الله له من سلطة عليها وإمكانية التصرف باسمها لصالح مستقبلها ومصالحها .

« وقبل الزوج قبولاً تاماً شخصياً هذا العقد الذي أبرمه أبوه باسمه ، والمتعلق بإقرانه المبارك بالزوجة المذكورة أعلاه ، والتزمه وأقر به .

«جعل الله اقترانهما المبارك مقروناً بالسعادة الدائمة ،الفرح غير المشوب، وساعد في تنفيذ أوامره، وإرادته وعونه الجميل .

«اطلع المذكورون على هذا العقد وتوصلوا به . . .

« فيما يلي إمضاءات العدلين ومصادقة القاضي » . يقارن مع نموذج العقد التونسي الذي ذكره هـ. دومونتيلي، (المرجع المذكور ، ص. 20 -21) .

(28) هذه حسب ق . بنعبد الجليل (نفس المرجع) قائمة النفقات (أرقام 1939) التي يجب أن يتحملها موسر كبير فاسي عندما يزوج ابنته .

« تأثيث منزل مغربي خاص مشتمل على فرش سميكة من الصوف مختلفة الأشكال والأبعاد : 5 لحافات كبيرة ، وشبه لحافين مربعين من الصوف يدعيان « كليسات » توضعان على حانبي مدخل الحجرة .

« وتنطلب هذه اللحافات عامة من مجموعتين إلى ثلاث مجموعات من الوسادات : مجموعة من مطرزات فاس ، وأخرى من الديباج ، وثلاثة من القطيفة المقصبة . وعلى العموم من مجموعتين إلى ثلاث مجموعات من شبه قماش لتغشيتهما مجموعة من قماش قطيفي مقصب ، وثانية من مطرزات فاس ، وثالثة من الديباج أيضاً . تدعى هذه الغطاءات (سنايف مفرد سفيفة ؛ وتلاميط مفرد تلميطة) .

« يشتري الحاج عبد الله 8 قناطير من الصوف لصنع اللحافات والوسادات المذكورة ثمن الصوف 800 فرنك للقنطار أي 6.400 فرنك .

الكريطون ومصاريف الخياطة 800 فرنك

تدفع 5 غطاءات للتطريز بالرسم الفاسي جميع هذه الغطاءات مطرزة بالحرير الأسود . تستعمل الطرازة 10 كلغ من الحرير المصبوغ بالأسود والذي يكلف الحاج عبد الله 120 فرنك للكيلو ، أي 1.200 فرنك .

يؤدي للطرازة 1,50 فرنك للثمن أو لثمن الأوقية . وتتقاضى أجرة ، بعد الحساب النهائي ، قدرها 384 فرنك للكيلو ، أي 3.840 فرنك .

كما تدفع قصد تطريزها بالحرير الأسود لفافة من الخيط الأبيض طولها 3 أمتار، مطرزة بالرسم الفاسي، تدعى (محرمة) تسدل على العروس لدى خروجها من استحمامها الأخير قبل زفها إلى زوجها سعر التكلفة: رطل حرير، النسيج وأجرة الطرازة 800 فرنك .

ويتطلب اللحافان المربعان أيضاً غطاءات مطرزة كلها بالأسود تكلف 2 كيلو من الحرير بسعر الكلفة 180 + 768 (الأجرة) أي 950 فرنك .

تتطلب مجموعة من 6 وسادات تقليدية فاسية 8 كلغم من الحرير المصبوغ بالأحمر بقدر 98 فرنك للكيلو ، أي 784 فرنك .

يؤدي للطرازة 1,25 فرنك لثمن الحرير أو 1/8 الأوقية ، في المجموع 320 للكيلو ، أي 1 280 فرنك .

ويشتري كذلك الحاج عبد الله 55,5 متراً من مطروزات ليون ، بقدر 50 فرنك للمتر ، أي 2.775 فرنك .

تصنع مجموعة من 5 أغطية للحافات (سفايف) ومجموعة من 9 وسادات مختلفة الأشكال والأحجام ، وتبطين هذه الوسادات وتزيينها وتفصيلها 325 فرنك .

كما يصنع ستار من ديباج ليون يسدل إلى نصف علو باب مدخل حجرة العرس 1.000 فرنك .

وتتطلب طنفسة من القطيفة الخضراء والحمراء المدعاة (حياتي) 1.100 فرنك .

وتساوي مجموعة من 3 لحايف (مفردها لحيفة) وهي شبه لحاف ريش تبسطها المرأة الفاسية على الأرائك الثلاث التي لا تستعمل كفراش 400 فرنك .

ويشتري بساطاً من صنع انجليزي 900 فرنك .

ويشتري غطاءي سرير 200 فرنك .

وغطاء سرير من الصوف الأحمر ، من صنع أنجليزي 800 فرنك .

وقطعتين من الكريتون 60 متراً 240 فرنك .

وستارين من الحرير المطرز 600 فرنك .

يستلزم الأثاث بمعنى الكلمة المؤلف من الصوف والمطرزات تقريباً 24.600 فرنك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقتضي جهاز العروس النفقات التالية :

أ ـ الملابس (أقمشة وفساتين ، من المنسوجات ، الخ) 3.000 فرنك

ب ـ 4 قفاطين : واحد من الديباج 400 فرنك ، وواحد من القطيفة 200 فرنك وواحد من الغردين380فرنك، وواحد مطرز بالذهب 200 فرنك 1.180 فرنك .

جـ ـ حزام وحذاء مطررة بالذهب 300 فرنك .

د ـ (التخمال) حلية الكتفين 250 . فرنك .

هـ ـ 4 مجموعات من اثني عشر منديلاً مطرزة تطريزاً جيداً 1.000

و ـ وأشياء مخصصة للزوج وتتكلف بها الفتاة خصيصاً : ملابس لوازم الحلاقة ، حرام فاس وحزام السراويل طاقة (تازية) 600 . فرنك.

ز . هدايا معدة لأبوي الزوج وأقربائه (فستانات ، مناديل) 2.600 فرنك.

ن ـ ادوات اضافية ذات قيمة معينة . كؤوس من البلور ، اقداح من الخزف ، لوازم الحلويات ، العطور ، وأوان فضية 2.000 . فرنك.

حـ ـ صندوق العروس 250 فرنك.

ط ـ حزانة صغيرة تصلح كصوان السفرة 300 . فرنك.

يبلغ اذن مجموع جهاز العروس 400 11 فرنك .

« اضف الى هذا النفقات التي يتحملها الحاج عبد الله لتوفير لباس لائق لأولاده وبناته بمناسبة هذا الزفاف . 000 4 فرنك ومصاريف الاقتبال أثناء الزواج بذاته : 4.000 فرنك .

« فسيصرف إذن الحاج عبد الله بمناسبة هذا الزواج مبلغاً قدره 000 44 فرنك .»

تقارن هذه القائمة بالمعلومات الآتية التي يدلي بها ليون الافريقي المرجع المذكور ، 1 : 254 - 255 . (الطبعة العربية الثانية ـ1: 121 - 122) .

« واليوم يصرف الأب أو الوالي زيادة على الثلاثين مثقالاً التي هي قدر الصداق مبلغاً من مائتين إلى ثلاثمائة مثقال لتجهيز الزوجة بما يلزم من ملابس وأثاث البيت ، لكن لا يعطي عقار ولا كروم ولا أرض مزروعة .وتقتضي العادة أن تقدم هدية مركبة من ثلاثة أثواب من جوخ رقيق ، وثلاثة أخرى من حرير أو « تفتة » أو مخمل أو دمقس ، وعدد من القمصان وأغطية الفراش المطرزة والموشاة حواشيها بالحرير ، ومخدات ووسائد ، وتهدي كذلك ثمانية فرش ، أربعة منها للزينة ، توضع فوق الحزائن في كل طرف من الغرفة ، وأربعة مغطاة بنسيج صوفي خشن تستعمل للنوم ، بالإضافة إلى فراشين مبطين بجلد يستعملان كذلك لتزيين الغرفة ، وزربية صوف طويلة من نحو عشرين ذراعاً ، وثلاثة أغطية وجهها من جوخ وظهرها من كتان ، وما بينهما محشو بالصوف . وعند النوم يطوى هذا الغطاء شطرين بحيث يكون أحدهما فوق الآخر ، لأن طوله يقل عن ثمانية أذرع . وعلاوة على ذلك تقدم ثلاثة أغطية للسرر غلافها من حرير حميل التطرير من الجهتين ، وبداخلها كتان محشو قطناً ، وغطاء آخر أبيض العلاف محشو بالقطن ، لكنه خفيف للصيف . وأخيراً يقدم سجف=

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت هذه النفقات تضاف إلى مصاريف احتفالات الزواج وتفرض تبعة ضخمة على من يزوجون ابنتهم . وقد سبق لليون الإفريقي[29] أن سجل بأن العديد من الناس أفلسوا في ذلك ؛ وحدث نفس الشيء في أوائل القرن العشرين ، حيث إن عدة أسر متواضعة استدانت للأبد بموجب الحياء البشري ، حتى لا « تبرز » أقل من غيرها[30] .

وإذا دفع الصداق ، حدد تاريخ الزواج الذي كان ينظم دائماً تقريباً في الصيف ، حتى لا يأتي المطر لإيقاف الاحتفالات العديدة التي كانت تجري بالفناءات . كان هذا التاريخ مرتبطاً أقل بكثير بما يوافق العائلتين[31] منه بالأيام التي تكون فيها الخاطبات والأجواق حرة ، لا سيما إذا تمّ الاتصال بأحسن جوق وبأفضل جماعة من خاطبات المدينة : كان لا بد من عدة أشهر سابقة للاتفاق مع رئيس الجوق ومع الخاطبة الرئيسة لتحديد اليوم .

التهييئات : ـ إذا تم الاتفاق على كل شيء، شُرع في التهييئات. كانت أم الفتاة توفد امرأة حاملة معها كبة من الخيط لتأخذ مقاييس الحجرة التي ستسكنها ابنتها بعد زواجها : وبهذه الكيفية كانت تتمكن من تفصيل الأرائك على القدر المرغوب. وفي مقابل ذلك ، كانت المرأة المرسلة تعود بكبتين،

= (حائطي) من صوف رفيع مقسم إلى مستطيلات صغيرة على نموذج علم سفينة أو غير دلك من النماذج ولهذا الحائطي شرائط ملسنة من جلد مدهب علقت عليها خصل من حرير مختلفة الألوان . وقد ثبت على كل خصلة منها زر حريري ليمكن تعليق هذا السجف على الحائط .

هذا ما يضاف الى المهر ، وربما أضيف اليه أكثر من ذلك . . . » .

(29) نفس المرجع . يقارن أيضاً بما ذكره هـ دومونتيتي (المرجع المذكور، ص. 68 — 65) عن نفقات، الزواج بتونس .

(30) وحوالي 1925 ، قام بعض العقلاء بمساندة السلطة الملكية بحملة لإرجاع نفقات الزواج إلى أبعاد معقولة . وقد أحرزت نتيجة ، لكن السوق السوداء « بدلت هذا التعقل » . وقد علمت سنة 1945 أن الكثير من الفاسيين يفرضون مهراً قدره 20 000 فرنك لزواج ابنتهم . وكان (المثل) متناسباً بطبيعة الحال .

(31) كان مع ذلك يحسب ألف حساب لتواريخ الخطبة ، لكنها لم تكن تذكر طمعاً . كان أبوها يعين تاريخاً دون إعطاء توضيحات لذلك ، فلا يلح أحد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إحداهما من الخيط الذهبي ، والأخرى من الحرير الأخضر ، تخصصان لضفر جديلة رائعة تمثل طول رجل الفتاة ؛ وهكذا كان الخاطب يتمكن من طلب الأحذية المطرزة التي سيهديها إلى زوجته يوم إتمام الزواج[32] .

كانت الخاطبات يُرسلن إلى دار الزوج ، قبل خمسة أيام من ليلة الزفاف ، كل ما كن في حاجة إليه لتجهير غرفة العرس . كان هذا النهار يسمى (نهار التنقيل) ويكون مناسبة لاحتفالين تحضرهما العازفات (الطبالات) في كلتا الأسرتين[33] . وكان يوم الغد يسمى (نهار الزينة) أو نهار الفرش[34] . كانت الخاطبات يُعددن فيه بعناية كل ما كان يلزم الفتاة أن تحمله إلى منزلها الجديد (كالأرائك ، والوسائد ، والزرابي ، والمشابك ، والمسامير ، وحلقات الستائر، الخ . . .) ثم يرسلنه إليه . ويذهبن بأنفسهن لتجهيز قبة العرس (دخشوشة) . ولهذا الغرض كن يكدسن اللحافات الواحدة فوق الأخرى لتشكيل حاجز لا يترك بينه وبين الحائط سوى عرض لحاف هو سرير العرس ، كان حاجز اللحافات وجدران الحجرة تزين بأقمشة مطرزة وطنافس (حياتي)[35] .

وقبل ذلك بخمسة عشر يوماً ، كانت الشابة تذهب كل ليلتين إلى الحمام للاغتسال سبع مرات[36] ؛ وكانت المرة الأخيرة، المطابقة لليلة ما قبل الدخول إلى المنزل الزوجي ، تتسم باحتفال (التقبيب) : الغسل بالدلاء . كانت العروس تأتي ، محفوفة بالقريبات والصديقات ؛ وكانت مستخدمات الحمام (الطيابات) ينتظرنها بالباب ثم يصحبنها باحتفال إلى أكثر القاعات انعزالاً وهن يصلين على النبي ويزغردن . كانت قريبتان تجردان الفتاة من ثيابها ، وهي مغمضة العينين مطبقة الشفتين ، خوفاً من عفاريت المكان .

---

(32) ق بنعبد الجليل ، المرجع المذكور

(33) انظر بُيستيرمارك ، المرجع المذكور ، ص. 118

(34) نفس المرجع ، ص 118 - 119 .

(35) انظر الرسم رقم 34 .

(36) وشاع شيئاً فشيئاً تبسط الأشياء . فلم تعد كثير من العروسات يذهبن إلى الحمام إلا مرة واحدة ، قصد (التقبيب) .

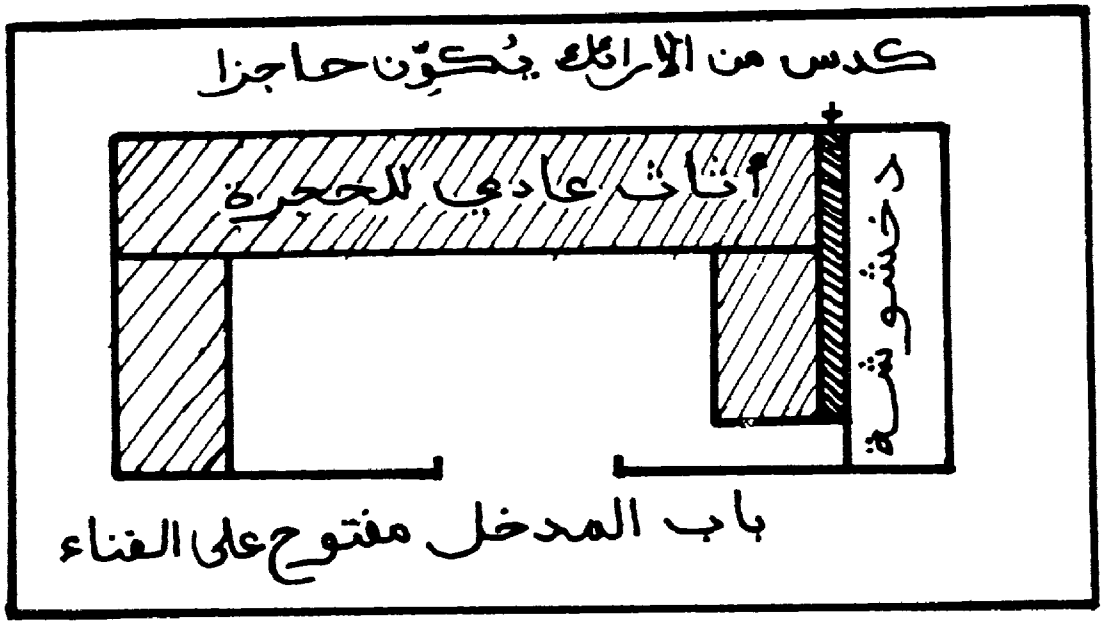

الرسم 34
ترتيب غرفة الزفاف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت سبعة دلاء من الماء الدافئ ـ مصففة هناك ، تغرف المستخدمات بالتوالي من كل واحد منها بإناء مكي (طاسة مَكُّويَّة) ويصببن الماء على رأس العروس التي تصبح منذئذ ، عند انتهاء الحفل ، تحت وقاية الملائكة[37] . ثم يلبسنها ملابس جديدة و « يضعن على رأسها ثوباً فاخراً مطرزاً بالاسود (محرمة) يطابق تقريباً خمار العروس الأوروبية » . وتستأنف المستخدمات غناءهن : فبعد التنويه بجمال الشابة وإعادة الصلوات على النبي ، كن يأخذن شيئاً من المال واللباس الذي كانت ترتديه الفتاة عند وصولها والذي لم تعد ترتديه بعد . نرى أن الأمر يتعلق بشعائر تطهير ومرور ، حيث إن الفتاة قد دخلت منذ قليل في مرحلة جديدة من حياتها ، قاطعة على الفور كل علاقة بالماضي .

وبعد عودتها إلى دارها ، كانت توضع في خدر ، وهذا ثاني رمز لقطع الصلة مع حياتها السابقة : وبعد تناول العشاء، كانت إحدى الرسامات بالحناء (معلمة حناية) ترسم على يديها ورجليها الرسم الخاص بالعروسات الذي هو تقليد تقريباً لبعض نماذج تطريز فاس (الحناء بالتقويسة)[38] . ومنذ ذلك الوقت ، وما دامت أفراح الزفاف ، بل كدت أقول : الانسلاخ ، كان على المرأة الشابة أن تعيش على حدة ، إلى أن تتخذ حالة المرأة المتزوجة ، بعد انتهاء الطقوس .

وفي اليوم الموالي ، أو بالأحرى في العشية الموالية (إذ كانت تقام جميع هذه الحفلات تقريباً في آخر النهار وأثناء الليل) كانت الحفلة المدعوة (قوالب صغار)[39] . وابتداءً من الساعة الخامسة ، كان الفناء يمتلئ بنساء أنيقات جئن لتناول الشاي ، بينما تبقى الفتاة في خدرها مع صديقاتها

---

(37) ڤيستيرمارك ، **المرجع المذكور** ، ص. 120 (38) **نفس المرجع**، ص . 121 .

(39) يطلق لفظ « قالب » (ج قوالب) على قالب سكر . من المحتمل أن هذا الحفل ، كالذي يليه (قوالب كبار) ، كان متسماً في القديم بتسليم قوالب سكر ، وهي مادة نادرة في ذلك العهد . فاختفت هذه العادة وفقد أهل فاس حتى ذكراها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحميمات اللائي كن يساندنها ويشجعنها في هذه المحنة الكبرى . ومنذ ذلك اليوم وطوال مدة الحفلات، كانت مدعوتان (برزات) تلعبان دوراً خاصاً . كانتا قريبتين من أهل الزوج ، حديثتي عهد بالزواج تقفان على جانبي الباب داخل الغرفة الزوجية غير مخضبتين،ولكنهما مرتديتان لباساً كلباس العروس. وكان رهن إشارة كل واحدة منهما خاطبة تساعدها على ارتداء لباسها[40] .

وفي عشية الغد (قوالب كبار) ، حوالي الساعة العاشرة أو الحادية عشرة صباحاً ، تأتي الخاطبات ؛ وبعد أن يتناولن غذاءً فخماً ، ويشربن الشاي ويتحدثن ،كن يستسلمن هنيهةً إلى النوم . وكانت الدار تنتفض في جوف الليل، حوالي الساعة الثالثة صباحاً : كان ذلك الوقت « لخدمة العروس » كما تعبر عن ذلك الخاطبات برطانتهن . يأخذن في تخضيبها بشدة ، إلّا إذا كانت شريفة أو عربية ، ويغطينها بفستانات ثقيلة ، وحلي ولفائف من قماش الصلب تحيط بوجهها ؛ وها هي تشبه تلك الصور اللامعة المجمدة للعذراء التي يطاف بها أيام العيد في البلدان المتوسطية[41] .

كانت خاطبتان تمسكان بيدها ، بعد أن غطتا وجهها بخمار ، فتقودانها بخطى بطيئة حول الفناء ، في وسط دائرة زاهرة بالزائرات ، بينما تصلي الأخريات على النبي ، حاملات شموعاً موقدة . كان الموكب يعود إلى وسط الفناء ، ويوضع الصنم على طاولة ذات حافات (مائدة) مزدانة بأقشمة مطرزة ؛ ترفع الخاطبات هذا الحمل على أكتافهن فيرقصن في الفناء[42] على ضوء الشموع ، وصوت الطبول والطبلات لجوق من النساء ، تشجعهنّ

---

(40) لا بد أن يفهم بدون شك من هذه العادة الحرص على تضليل الجن الذين يريدون سوءاً بالعروس . فحضور ثلاث نساء مزينات بنفس الكيفية اثنتان منهن خارجتان عن إصابتهم ، من شأنه أن يحدث فيهم البلبلة .

(41) انظر ج جوان ، دراسة رسوم ، ص. 330 - 331،واللوحتين 13 و 14 .

(42) انظر ح جوان نفس المرجع ، اللوحة 15 . كان هذا الرقص عبارة عن تحركات بطيئة ، خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الوراء ، ربع دورة إلى اليمين وربع دورة إلى اليسار . وكان ممكناً أن يدوم طويلاً جداً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الزغاريد الحادة للمتفرجات الفرحات .

فإذا انتهى هذا الحَفل الغريب (الدورة) أعادت الخاطبات العروسة إلى قبتها ، حتى تستريح لحظة ؛ وبعد قليل كن يرجعن بها إلى باب الغرفة في مقابل الفناء ، وهي مستقيمة تماماً جامدة ؛ تمر هنيهات من الصمت صمت الانتظار القلق ، فيرفعن عنها الحجاب ، كاشفات أخيراً عن ذلك الوجه الصنمي المطبق العينين ، الذي صار لا يعرف تقريباً من كثرة الخضاب والزينة ، ويصحن حينئذ : « هاي هي مرهونة» . فتتقدم أم العروس لتحرير هذه « الرهينة » التي تمكنت منها الخاطبات ، لإخراجها من حالة التماثيل هذه التي وضعتها فيها العادة ، متبوعة بجميع الحاضرات ، فتضع قطعة نقدية في القدح الذي تمسكه إحدى منظمات الحفل (السلام) .

وبعد انتهاء العرض كانت الخاطبات ينشدن مدائح زوجة المستقبل (تعشيق) · كان ذلك شبه لازمة على نفس النموذج دائماً ، لكن تفاصيلها تختلف حسب الخاصيات الجسمانية للعروس : « ها هي ! ، صلاة اللّه وسلام النبي عليك يـا للاّ ، والسر عليك ، يا تمر العروسات . ها التمر المجهول ، ها العسل المصفى ، ها الزين بلا ملح ، ها تكاك الحمام ، ها رشاقة الخيزران ، ها هي ، ها هو زين عائلة فلان ، ها هي ، ها هي»[43]! وكانت جوقة الخاطبات تردد مرتين أو ثلاث مرات لازمة المدائح بأعلى صوت .

وإثر ذلك ، كانت ظِئر العروس تحملها أمام معلمة (نكّافة) ـ الخاطبة الرئيسية ـ تضفر شعرها بالكيفية اللائقة بالعرائس (سلتة)[44] وتعيد على يديها ورجليها رسماً ثانياً بالحناء (الوشي)[45] .

---

(43) ق. بنعبد الحليل ، المرجع المذكور

(44) فيستيرمـارك ، المرجع المذكور ، ص. 242 .

(45) يطلق لفظ وشي ، في العربية الفصحى على « نوع من قماش الحرير المختلف الألوان المطرز بالذهب أحياناً » (دوزي ـ ملحقات ، جزء 2 ص. 809

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم تُجلس على منبر ذي ثلاث درجات ، فتشرع الحاضرات بالتوالي في تسليم هدايا الزواج إلى إحدى الخاطبات ، كقطع من القماش الثمين ، أو حلي[46] ، أو نقود . فكانت الخاطبة تبرز الهدية إلى الحاضرات، وتنطلق بمدح المتبرعة وتشكرها باسم العروس التي - تقول -: «لن يفوتها أن ترد لها هذا الجميل في أول مناسبة وأسعدها»[47]. وكانت تتلقى من كل متبرعة مبلغاً من المال جزاء على عملها الحميد . وبعد تسليم الهدايا ، التي كانت تحمل اسم (غرامة) تدفع الخاطبة إلى رب البيت لائحة الهدايا : فالهبات العينية كانت مخصصة للعروس ، والمال يستعمل لأداء مصاريف الزواج . وأخيراً كانت الخاطبة الرئيسة ، بعد انتهائها من التزيين والحناء ، تسمح للعروس بتذوق راحة تستحقها كثيراً : كان ذلك نهار الراحة .

وكان الخاطب في هذه الأثناء كلها ، يعيش بدوره عيشة غير عادية : فقد سبق لأبيه أن استعار داراً مجاورة لداره تؤوي لبضعة أيام الشاب وأصدقاءه ، تسمى دار إسلان[48] ، بينما كان منزل الزفاف، وهو منزل والد الشاب ، يحمل اسم دار العرس . كان الخاطب يتوجه إلى تلك الدار في العشية السابقة لليلة الزفاف ، أو حتى ليلة الزفاف ، مصحوباً بأترابه الشباب (والناس المسنون كانوا ضيوفاً على أبيه بدار العرس) وكان هذا الشباب يتعاطى دعابات تقليدية : يعتبر العريس كسلطان ، ويخدمه أصدقاؤه كوزراء وجنود[49] ؛ وأهم

---

(46) كان الحلي هدية الأقرباء ، كالأب ، والأم ، والأخوات، والخالات . وكان امتياز المنبر مخصصاً للأسر الكريمة من أصل شريف أو عربي .

(47) ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور . كانت كل أسرة تتخذ محاسبة حقيقية للهدايا المستلمة ، بمناسبة زواج أو غيره من المناسبات ، وتكون ملتزمة عادة بردها بكل دقة . كان ذلك شبه تعاونية في المناسبات الكبيرة للحياة . ويذكر هـ . دومونتيتي (المرجع المذكور ص. 40) أن نفس الطريقة كانت تتبع بتونس .

(48) إسلان كلمة بربرية معناها أعراس ، وعلى الأقل في بعض اللهجات (ڤيستيرمارك ، المرجع المذكور ، ص. 78).ويعبر عنها ، في العربية الفصحى ، بدار السلوان ، وهذه هي العبارة المذكورة في ورقات الاستدعاء المستعملة حالياً .

(49) ڤيستيرمارك المرجع المذكور ، ص. 240 - 241 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خدمتهم كانت هي القيام بمهامه ومعاقبة المتأخرين بغرامات أو « رهائن » طريفة .

كان جوق من المغنين يعزف بلا كلل قطعاً من مجموعته، بينما يقوم الحلاقون بتقديم الشاي أو الطعام ، حسب الوقت .

وكان حلاق الأسرة يحمل إلى دار العرس ، في المساء السابق لأول لقاء الزوج بالمرأة ، كرسياً كبيراً من خشب مصبوغ بألوان فاتحة ، ثم يبحث عن الشاب بدار اسلان . يتكون موكب ، فيحمل بعض فتيان الشرف الزوج على أكتافهم، في وسط الضحكات ، ويذهبون به ، مغطى الرأس ، إلى كرسي الحلاّق، الموضوع في الفناء . كان الحلاق يسوي الفوطة ، لكن قبل الشروع في عمله ، كانت الخاطبة الرئيسية تبلل شعر الصبور بغصن ريحان ، ثم يلصق شبان الموكب على جبهته أو يدخلون بين شفتيه قطعاً نقدية معدة للحلاق . وكان أحد غلمان الحلاق يصيح عند كل عطية : « اللّه مع فلان » ، ويضع المال على فوطة ؛ وكان ضيوف الأب يشاركون أيضاً في الاحتفال ، بحيث كان الحلاق يستطيع أن يجمع بمناسبة زفاف كبير ثروة صغيرة[50] كافية لشراء حانوته إن لم يكن بعد مالكاً لها .

---

(50) حتى مائتي ريال ، حسب ڤيستيرمارك (المرجع المذكور ، ص. 117) ، كان ملزماً فقط بإعطاء 2,50 بسيطة حسنية إلى كل واحد من الحلاقين الذين جاؤوا ليساعدوه ، ويقتسم الباقي مع غلمانه الذين كان لهم الحق في خمس المبلغ (ثمن أوجه في المثقال) مهما كان عددهم ، بينما الأخماس الأربعة الأخرى كانت من نصيب الحلاق الرئيسي . وكانت تحدث أحياناً مناقشة بين الحلاقين ،لا من أجل القسمة التي كانت منظمة بدقة وفق العادة ، ولكن لأن حلاق الأب وحلاق الابن ، إذا كان لكل واحد منهما حلاق ، كانا يتنافسان حول الشرف . . وفائدة الاحتفال . وفي حالة عدم وقوع تسوية حبية كان النزاع يعرض على خبراء الطائفة الحرفية ، أو على المحتسب . فكانت الفتوى في المادة كالتالي : إذا كان الشاب زبوناً للحلاق منذ أقل من ستة أشهر ، أُقصي حلاقه ، وإلاّ قسمت الأرباح (بحث شخصي حول الحلاقين 1945) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان هذا الحفل يسمى « الغرامة على العريس في الشيلية » ، أو فقط « الشيلية » (الكرسي) فإذا انتهى الحفل ، كان الحلاق يقوم بعمله ، فيحلق رأس الخاطب ويزين لحيته عند الاقتضاء، ثم يعود الموكب إلى دار إسلان بنفس الكيفية .

كانت إذن الأيام القلائل السابقة للزفاف أيام تدريب ، بالنسبة للـزوج وبالنسبة للعروس ، لكنه يلاحظ أن الواجبات المفروضة على الرجل لم تكن لها أهمية بمقدار الواجبات المفروضة على المرأة ، بل أبعد من ذلك ، لأن التغيير الذي سوف يطرأ عليه أقل أهمية بكثير ؛ فليس عليه أن يمر من أسرة إلى أخرى ، إذ سيبقى يعيش ، كذي قبل ، في منزل أبويه ، بالإضافة إلى أن خلقته لن تتبدل جذرياً ، فلا حاجة إذن في أن تتخذ له الاحتياطات المتعددة اللازمة لتؤمن له تحولاً سعيداً .

احتفالات الزفاف : ـ بعد انتهاء كل هذه الاستعدادات ، كانوا يصلون اخيراً إلى الزفاف بمعنى الكلمة (ليلة الدخول) . في تلك الليلة كان الفرح في الديار الثلاث التي كان يقام فيها الزواج ، الداران العائليتان ودار الخاطب .

كان منزل الفتاة ، في بداية الليل ، مسرحاً لأهم مشهد . وحتى حوالي الساعة الواحدة صباحاً ، كان الفناء والطابق السفلي محجـوزين للرجال ، بينما النساء كلهن ، ومعهن العروس ، ينزوين في الطابق الأول ، حيث يلقين من هناك نظرات عابرة على الفناء المضاء ويستمعن إلى أصداء الجمع : كان هناك جـوق للمـوسيقى الأنـدلسيـة يشنف الأسمـاع ، بينمـا يُجلس الحـلاقـون الضيوف الذين استقبلهم رب البيت في عتبة الفناء ويسارعون في خدمتهم . كان الفناء يفرغ حوالي منتصف الليل ، ولا يبقى سوى الأصدقاء الحميمين الذين يتناولون حوالي الواحدة صباحاً العشاء التقليدي في انتظار مجيء الموكب العرسي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان ينظم احتفال مماثل عند والد الزوج ؛ وبعد العشاء ، يذهب الحلاقون حوالي الثانية صباحاً للبحث عن شبان دار إسلان الذين يكونون بدورهم قد أولموا قبل ساعة الاحتفال . ويتألف موكب في هذه الدار يتقدمه أطفال يحملون شموعاً بأيديهم ، ثم ينتشرون في الأزقة الضيقة الملتوية للمدينة ، تحت إيقاع صرخات الفرح للأطفال ، والصلوات والأناشيد التي يرتلها الجميع معاً .

وكان موكب آخر قد تألف في فناء دار العروس ؛ فيقتبل الموكب الأول لكن ليس دون مقاومة ، وربما كان ذلك تذكاراً للعهد الذي كان الزواج يبتدئ فيه باختطاف حقيقي ؛ كان مبعوثو الزوج مضطرين إلى قرع الباب طويلاً قبل التمكن من الدخول . فإذا انتهت هذه المقاومة الرمزية ، شرع الموكبان معاً في الغناء إلى أن تتأهب الفتاة . كانت تلك ساعة الفراق والدموع ؛ فإذا ارتدت العروس « حائكها » ذهبت لتودع أباها وهي تبكي . لقد أصبحت هذه الدموع مضرب المثل بفاس ؛ يحكى أن أباً ، وهو متأثر من رؤ ية ابنته البكر في أسى شديد ، اقترح عليها أن يزف اختها الصغيرة مكانها ، فأجابت وهي تشهق : « لا ، لا ، كلّهن بكين ولكنهن ذهبن (كل شيء بكى ومشى)[51] » .

كان الموكب الزفافي يتشكل : في المقدمة رجال أسرة الزوج ، ثم الخاطبات ، تتبعهن العروس في ست أو ثمان من قريباتها ، مرتديات لباساً مماثلاً لها تماماً حتى لا تدري الجن مَن التي سيمسُّونها بسوء ، إذا ما التقوا بالموكب[52] . ويأتي في المؤخرة أقرباء العروس رجالاً وشباناً . وتحمل الخاطبات والأطفال شموعاً تضيء طريق هذا الموكب المرح : كان الفريقان من الرجال يتبادلان في الأزقة خطاباً شعائرياً تقليدياً ، يقول أقرباء الزوج :

---

(51) ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور .

(52) اضمحلت هذه العادة وجعلت عوائد جديدة تخلفها . فقد شوهد خلال صيف 1946 موكبٌ العروس فيه مرتديةٌ جلبابها ، وهي محفوفة بحوالي ثلاثين فتاة لابسات الزي الأوروبي وسافرات: كان جلهن تقريباً من قديمات تلميذات مدارس البنات التي أنشأتها الحماية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« عباها ، عباها واللّه ما خلاّها » فيرد عليهم الآخرون : « عباتو عباتو ، لوّاتو في كساتو»[53]. ولم يكونوا يترددون في إحداث ضجيج كبير؛ يطرق الأطفال الأبواب بشدة لإيقاظ النائمين حتى يؤمّن للموكب العرسي أكبر إشهار .

كان الموكب يجتنب ما أمكن مجرى الماء الذي هو مقام الجن ؛ فإذا اتفق أنه لا بد من المرور بجدول ، كانت امرأة تقف بين العروس والماء وتلقي شيئاً من الملح ، لإبعاد الخصوم المستترين عن الأنظار .

وإذا كان الزوج شريفاً أو من أسرة عربية زفّت عروسه إليه على شبه « كرسي » تعلوه قبة ، يقدمه ويحمله القبارون (الصحّافة) [54] . ولم يكن للأسر الأخرى الحق في علامة الشرف هذه ، فلا الخاطبات ولا القبارون يسلمون الكرسي إليها ولو بأغلى ثمن .

كان الموكب يتفرق أمام باب دار العرس. يهمُّ الرجال بالدخول، لكنهم يُطردون بدون مراعاة . ويعود أقرباء العروس إلى منزلها ، ويذهب أقرباء الزوج إلى دار إسلان ؛ ولم يكن يدخل مع العروس إلى منزلها الجديد سوى النساء . فتتقبّلها خادمة تعمل مع الخاطبات ، وهي وصيفة (كُلاسة) تساعد العروس طوال احتفالات الزفاف . وبعد أن تستريح قليلاً ، كانت الخاطبات يُلبسنها الرداء الذي كانت قد لبسته في منزلها ويخضبنها . ثم يقدنها وهي محجوبة إلى عتبة غرفة الزفاف، ويقدّمن لها رغيفين تضعهما تحت إبطيها ومجموعة من المفاتيح ؛ تحيط بها اثنتان منهن ، إحداهما تمسك قدحا من لبن ، والأخرى طبقاً من تمر . فتتقدم أم الزوج ، وتعطي قطعة من نقود

---

(53) وڤيستير مارك، المرجع المذكور ، ص. 147 .

(54) نفس المرجع . ويشير ليون الافريقي (القسم 2 ، ص 122) إلى أن هذه العادة القديمة جداً بالتأكيد ، كانت متبعة في شمال المغرب كله (ويستير مارك ، المرجع المذكور ، ص. 148 - 149) . لقد أهملت هذه العادة ، وما زالت القبة تحمل للأسر الشريفة ، لكن العروس لم تعد تطلع فيها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للخاطبات ، « وترفع الحجاب الذي كان يغطي وجه امرأة ابنها التي تبقى مطبقة العينين ، وتقبلها بخفة على وجنتها وتسدل الحجاب ؛ ثم تشرب جرعة من لبن في القدح الذي تقدمه لها (النكّافة) وتأخذ تمرة من الطبق الذي تقدمه لها (النكّافة) الأخرى وتعود الى مكانها »[55] .

وهكذا فإن العروس كانت تتقبل بادئ ذي بدء تهانئ (سلام) حماتها ، فكانت تتبناها أسرة زوجها حتى قبل اقترانها به . ثم كانت الخاطبات يحملنها على الأكتاف ، كما فعلن سابقاً ، بعد إعادة حفل المنبر ، كما حدث ذلك ليلة « القوالب الكبار » ، لكن بدون أن يكرر رهن العروس وتسليم الهدايا .

وفي هذه الأثناء ، كانت خاطبتان تذهبان للبحث عن الزوج في دار إسلان حوالي الساعة الخامسة صباحاً ، حاملتين إليه « جلابة » وبرنسا من الصوف الرفيع والحرير الأبيض (كساء) . وكان أصدقاؤه يساعدونه على وضعها فوق ملابسه ويصحبه الجميع إلى باب دار العرس ، شبانا وخاطبات : كان الشبّان لا يدخلون[56] لكنهم يؤدون الغرامة للخاطبات ، ويدخل الزوج وحده إلى الفناء ويفتح لنفسه الطريق بين جمهور المدعوات ليلتحق بغرفة زوجته ، وغطاء رأسه مسدل على عينيه . كان يقف وراءها ، بينما الخاطبات ينوهن بها مرة ثانية . ثم إن الخاطبات يُدرن الشابة إلى جهة زوجها ويُزلن الحجاب عن وجهها ، فيتقابل الزوجان للمرة الأولى ، في أغلب الأحيان . تكون تلك اللحظة مؤثرة بالنسبة لهذين المخلوقين ، لا سيما في المحيط الاصطناعي المتوتر الذي كانا يعيشان فيه منذ أيام عدة ؛ كان كلاهما ينتظر هذه

---

(55) ق. بنعبد الجليل ، نفس المرجع .

(56) حسب ڤيستيرمارك (المرجع المذكور، ص. 198 - 199)، كان أصدقاء الزوج يصحبونه حتى عتبة غرفة العرس بعد أن التحقت المدعوات بالطابق الأول، وقد أنبئن بزغاريد الخاطبات .
وقبل مغادرة الزوج ، كانوا يتلقون هدية التمر والحليب لفائدة الخاطبات . وهذه العادة المذكورة هكذا كانت متبعة في الأوساط الشعبية ، لا سيما في العائلات الوافدة مؤخراً من البادية ، لا في الأوساط البجورجوازية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اللحظة بإحساس قريب جداً من القلق ، فكان بعض الشبان الضعيفي الأعصاب لا يتحملون صدمة النظرة الأولى فيعرفون فترة من الصعف .

وسرعان ما تضع الخاطبات حداً لهذه النظرة الأولى التي كانت تنبئ بسعادة الزواج أو تعاسته ، فيأخذن العروس إلى قبة العرس ، ثم يدخلن الزوج . كان هذا الأخير يضع يده اليمنى على كتف رفيقته ويهمهم بآية من القرآن تكون عادة هي آية الكرسي[57] . كانت الخاطبات يخلصن الشابة من جميع الحلي التي عليها ، وينظفن وجهها المكسو بالخضاب ، ويتركنها مع زوجها ، وهي لابسة قميصاً رقيقاً وسروالاً « ناصع البياض ، وهو رمز البكارة» . كان هذان المخلوقان ، وهما سيتصلان بعد قليل ، يجدان نفسهما وجها لوجه للمرة الأولى . كانت اللياقة تفرض ألا يتم الزواج ذلك الصباح ، كما كان التعب والانفعال يعززانها[58] .

وكان أول يوم بعد « ليلة الدخول » يدعى الصباح[59].كان الزوج يذهب في الصباح الباكر إلى دار إسلان،حيث يلتقي من جديد بأقرب الأصدقاء إليه ، ثم يعود إلى القبة الزوجية لتناول الفطور . وبعد قضاء هنيهة بدار إسلان كان يزور امرأته في منتصف العشية تقريباً ، وهي مزينة مثل صنم ، وجالسة على كدس من الوسائد ، مغمضة العينين ؛ وهذا العرض ، الذي كان سيتجدد في الأيام التالية ، لم يكن يدوم أكثر من ربع ساعة .

وفي هذه الأثناء ، كانت فتيات الأسرة بارزات بفناء الدار التي غادرتها

---

(57) القرآن ، السورة 2 ، الآية 256 .

(58) من المعلوم أن هذه إشارة عامة قابلة لتغيرات فردية متعددة . وبالعكس من ذلك في فاس الجديد عند العائلات الوافدة مؤخراً من البادية ، كان لا بد من أن يتم الزواج ابتداءً من أول لقاء بين الزوجين .

(59) كان جوق مؤلف من الطبالين والغياطين يأتي في الصباح الباكر، بفاس الجديد، وفي الأوساط الشعبية بالرباط ، ليتمنى للزوجين صبيحة سعيدة ، مقابل مكافأة (ڤيستيرمبارك ، نفس المرجع ، ص . 199 -200) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العروس ، وهن متزينات بحلي فاخر (وعددهن ثلاثون أحياناً) . وكانت هذه في الغالب مناسبة تتاح للأمهات ليخترن زوجة لابنهن المقبل على ذلك .

وبعد تناول طعام العشاء ، كان الزوج يعود إلى القبة ، وتكون تلك الليلة عادة ليلة إتمام الزواج[60] . وفي ساعة مبكرة من نهار الغد (الصبوحي) كانت جميع النساء المتزوجات يجتمعن وهن ينتظرن الخاطبات اللوائي كن يحملن بعد قليل سراويل العروس وهي ملطخة بالدم ، بعد أن عرضنها على أبوي الزوج فأعطياهن مالاً كعلامة على فرحهما . وتنصرف المدعوات فوراً لتستأنف الدار حياتها المعتادة[61] . وفي عشية نفس اليوم كانت تجري بدار العرس حفلة يقدم الزوج خلالها هدايا إلى زوجته[62] ، وتقع حين إبراز العروس حسب نفس الطقوس المتبعة في الأمس .

وفي اليومين التاليين (نهار ثاني الصبوحي ونهار ثالث الصبوحي) ، كانت العروس تبرز في آخر العشية ويزورها زوجها ، بينما يستمر توافد المدعوات على دار العرس . وابتداء من يوم الغد (النهار الثاني للصبوحي) كانت دار إسلان تفقد طابعها الخصوصي ، لكن الزوج كان يقضي فيها باستمرار جميع أيامه مع أعز أصدقائه ، وهم يلعبون الورق ، ويتداعبون أو يتحدثون[63] .

---

(60) إذا تم الزواج من أول ملاقاة الزوجين ، كان الخبر يؤجّل إلى يوم الغد ، وذلك حسب اللياقة ؛ لكن ذلك لم يكن يخدع أحداً ، إذ كان الكل ينشر خبره .

(61) حسب ڤيستيرمارك ، (المرجع المذكور ، ص. 201) إذا اتفق أن لم يتم الزواج ذلك اليوم ، كان الضيوف يمكثون حتى يتم ، ولكن مع ذلك بدون تجاوز الأجل الذي هو تسعة أيام . وهذا الشرط الصالح لفاس الجديد لم يكن يهم الأوساط البورجوازية بالمدينة ، حيث إنه إن لم تتم حفلة السروال تفرقت النساء رغم ذلك .

(62) إليكم قائمة هذه الهدايا التي وضعها السيد قاسم بنعبد الجليل (المرجع المذكور) : أربع قطع من النسيج النفيس ، وزوجان من الأحذية المطرزة بالذهب ، وحزام مطرز بالذهب ، وثلاثة مناديل ، وصندوق صغير للتجميل (وهذه طبعاً بدعة متأخرة بكثير عن إقامة الحماية) ، وعطور ، وثلاثة أو أربعة أرطال من خشب الصندل ، وزوجٌ من الأقراط الذهبية المرصعة بالأحجار النفيسة ، ومرآة كبيرة .

(63) كان بالإمكان في المنازل الفسيحة ، أن يقيم الزوج بالطابق الأول ، تاركاً دار إسلان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان اليوم الخامس يحمل اسم « نهار حل الراس » : وفعلاً كانت الخاطبات يحللن زينة الرأس الخاصة بالعروس (سلتة) ويعوضنها بزينة النساء المتزوجات ، وهي ضفيرة في كل جانب من جانبي الرأس . كانت المدعوات كثيرات العدد لمشاهدة هذه الحفلة التي كانت تخلد ذكرى تبديل الحالة للشابة ؛ فكن يرتدين ملابس فاخرة ، « فويل للتي ترتدي نفس ملابس البارحة ، إذ كانت موضوع انتقادات كثيرة ومحط جميع الأنظار »[64] . إلا أن العروس ، وهي دائماً مزينة بأبهى الحلي ، كانت تلبس ملابس أكثر بساطة : كانت الحلي وزينات الرأس تعوّض بمنديل مطرز (سبنيّة) وواسع بقدر ما يسدل على الوجه . وكانت الخاطبات يجلسنها على عتبة الغرفة ، مولية ظهرها للفناء ، فيأتي إذ ذاك الزوج ويتناول من يدي إحدى الخاطبات ضفيرة من شعر زوجته ، ويجدّ في حلها بعض الشيء ؛ وبعد ذلك ، كان يلصق بجبينها قطعة من ذهب ويسلمها للخاطبات ليزين رأسها . وإذا تم كل ذلك ، قدمت إلى المدعوات بدون خضاب فاتحة عينيها . وكان والد العروس يرسل ذلك اليوم أيضاً ، من قبل ابنته ، الهدايا المعتادة إلى أقرباء الزوج وقريباته ملفوفة في أقمشة مطرزة ، وكانت عبَارة عن قفاطين ، وفوط مطرزة ، وَمَناديل مختلفة . كان ذلك ما يسمى بالصواب[65] . وأخيراً كانت العروس تتسلم من أمها ثلاث موائد مملوءة إحداها بالبيض المصلوق ، والثانية بخبز الأبازير المحلى (قراشل) والثالثة باللوز المقلي ؛ كانت هذه الهدية تدعى « الحمّام » لأن العروس كانت تستحم في المساء بمساعدة الخاطبات[66] .

---

(64) ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور . كانت المدعوات يبدلن ملابسهن كل يوم ، وفي غالب الأحيان مرتين وحتى ثلاثة مرات في اليوم

(65) تدل لفظة صواب على هذه الهدية في كلام فاس ، ولكن أيضاً بصفة أعم ، على كل تبادل للمجاملات التي كانت تتم في خامس يوم للزفاف وسادسه . الصواب معناه ما يليق ، ما يجب أن يفعل .

(66) كان يجري هذا الاستحمام ، إما في الحمام العمومي (ڤيستيرمارك ، المرجع المذكور ، ص. 242) وإما في إحدى ملحقات غرفة العرس «المحوّلة إلى قاعة للنظافة » (ق . بنعبد الحليل ، المرجع المذكور) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي اليوم السادس المسمى (نهار الغسيل)من أجل الاستحمام ليلاً،كانت الخاطبات قبل إبراز العروس للجمهور يسوين على رأسها قلنسوة النساء المسنات من أصل عريق (حنطوز) . ثم يتم العرض ، لكن ثلاث مرات متتالية[67]،ترتدي فيها العروس كل مرة لباسا مغايراً (لباسات) . وغالباً ما كان أبو المرأة الشابة يرسل أيضاً إلى صهره في ذلك اليوم أربع أو ست موائد ، إحداها من كعب غزال ،وأخرى من غريبة ، وواحدة أو اثنتان من المحنشة ، وواحدة أو اثنتان من البسطيلة[68] . وكان قسم من هذه الأطعمة (الفطور) على الأقل يوضع جانباً ترقباً للغداء الذي كان يجمع ، في اليوم الثامن أو بعده ببضعة أيام ، رجال الأسرتين (البوسة أو بوسليت) ، والذي كانت العروس تتعرف فيه على رجال أسرة زوجها .

وأخيراً في اليوم السابع بعد أن يكون الزوجان قد قضيا آخر ليلة في قبة العرس ، كانت الخاطبات يأتينلإصلاح كل شيء ثم يغادرن دار العرس . ومنذئذ يعود الزوجان مخلوقين عاديين كغيرهما ، بعدما خضعا للعوائد التابعة لتبديل حالتهما . ومع ذلك كانت العروس تصنع الخبز في اليوم التاسع « حتى يكثر دائماً في الدار » وتحضر طبقاً من السمك ، لأن « أكل السمك يجلب حسن الحظ »[69] .

وكانت العروس ترتدي بهذه المناسبة لباس الطباخات : فوطة ملفوفة حول الخصر ، وقباقب في الرجلين ، لكن الفوطة كانت من القماش الرقيق المطرز ، والقباقب مرصعة بالصدف . ومن المحتمل أن تحضير السمك الذي

---

(67) سبع مرات حسب ڤيستيرمارك (ص. 243) .

(68) كعب غزال حلويات من عجين اللوز ، وغريبة حلويات أخرى حافة من السميد والسكر ، والمحنشة عجين اللوز ، والقرفة والسكر والسمن معطر بماء الزهر ومغلف في عجين مورق ملفوف على شكل حلزون ؛ والبسطيلة شبه فطيرة مورقة ، محشوة بلحم الحمام ، والبيض ، واللوز والتوابل ، ويذر السكر فوقها .

(69) ڤيستيرمارك ، ص. 261 إني أتساءل هل هذا التفسير صالح إذ لا يعرفه أصدقائي الفاسيون .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان يعتبر صعباً جداً في القديم ، كان بمثابة تجربة تُمكّن أم الزوج من تقييم الخصال المنزلية لزوجة ابنها ؛ لكن الحفلة لم تحتفظ بعد مع مرور الزمان ، إلاّ بقيمة رمزية ، هي بداية المرأة الشابة في الحياة المنزلية .

كان الزفاف الذي وُصف قبل قليل ، أول زفاف لكلا الزوجين . فإذا سبق لأحدهما أن تزوج ، كانت تطرأ على الحفل تغييرات متفاوتة الأهمية حسب الحالات .

فقبل كل شيء ، إذا كانت الزوجة أرملة أو مطلقة (هجّالة) ، كان الصداق المطلوب من الزوج مبدئياً أقل من الصداق المطلوب بالنسبة للبكر ، فيكون الفارق عادة هو الضعف .

وإذا تزوجت أرملة أو مطلقة من عازب (عزري) كانت الاحتفالات المذكورة تلغى بالنسبة لدار العروس قبل زفها إلى دار العرس ؛ وكان أبو المرأة الشابة يكتفي بوليمة يستدعي لها أناساً من أقاربه . لكن من الوقت الذي تغادر العروس فيه منزل أبويها كانت حفلات الزفاف تجري كما وصف سابقاً .

وفي الحالة العكسية ، أي إذا لم يسبق للعروس أن تزوجت قط ، ولكن الزوج أرمل أو مطلق أو متزوج بأخرى ، فإن الاحتفالات فيما يخص الفتاة ، كانت هي نفس الحفلات الموصوفة سابقاً ؛ لكن تحذف دار إسلان وجميع الحفلات المتعلقة بها . وأخيراً إذا كان الزوجان معاً سبق لهما زواج ، فإن جميع الحفلات تحذف . وفي اليوم المعين يكتفي الزوج بإيفاد امرأة أو امرأتين للإتيان بخطيبته ، عند غروب الشمس ، ويقيم وليمة في منزله مساء .

وبخصوص الطلاق وتعدد الزوجات ، ليس هناك مبدئياً شيء خصوصي يذكر ، لأن فاساً تتبع أحكام الفقه المَالكي كغيرها من مدن إفريقيا الشمالية . إلاّ أنه يجب اعتبار العادة الفاسية (العمل الفاسي) التي تدخل على هاتين المسألتين قيوداً صعبة جداً . فالطلاق بالأخص نادر جداً عند البورجوازية الفاسية . وبمجرد ما يصبح الطلاق مهدداً ، يجتهد الأقارب والأصدقاء في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حمل الزوج على العدول عنه ؛ وفعلاً فإن الطلاق مكروه جداً ويتسبب في الفضيحة ، ما عدا في حالات استثنائية ، وهو بالعكس من ذلك كثير الانتشار في الاوساط الشعبية . كما أن تعدد الزوجات ـ على ما يبدو ـ لم يكن يشكل القاعدة العامة[70] .

* * *

كان من الضروري أن نلح طويلاً على احتفالات الزواج ، وذلك لعدة أسباب . فقبل كل شيء ، إن الزواجات كانت وما زالت ، أحداثاً في غاية الأهمية ، لا في حياة الأفراد والعائلات فحسب ، ولكن في حياة الحاضرة بأسرها . ففي الفصل الجميل تعير هذه المدينة المكتظة بالسكان قسماً من انتباهها إلى الزواجات ؛ ويكون عدد المدعوين عظيماً ، يصل أحياناً إلى عدة مآت ، وتكون النفقات باهظة ، إلى درجة أنها تؤثر تأثيراً حقيقياً في اقتصاد فاس : فلنفكر في الأقمشة النفيسة المستوردة من الخارج ، وفي الطلبات المقدمة إلى الصناعات المحلية ، وفي المواد الغذائية المستهلكة أثناء هذه الأيام من الأفراح ، وفي الأنقال التي يقوم بها الحمالون ، وأخيراً في طوائف الحرف ، كطوائف الخاطبات والعازفين المرافقين للموكب ، والجوق الموسيقى ، والحلاقين الذين يكسبون عيشهم ، طوال عدة شهور بمساهمتهم في احتفالات الأعراس .

إن حفلات الزواج ، وهي عنصر لا يستهان به في الحياة الاقتصادية ، كانت أيضاً تسلية عظيمة : فخلال سبعة أيام ، أو عشرة إذا عددنا الاحتفالات التحضيرية ، كانت أسر كاملة ، لا سيما الأطفال والنساء ، لا يفكرون إلا في ذلك ولا يعيشون إلا له . مهما كان عدد حفلات الزواج قليلاً فإقامة ثلاثة أعراس أو أربعة بين الأهل او المعارف كان ذلك يعني قضاء أكثر من شهر في الأفراح والولائم . فلا نستغرب في هذه الحالات أن يُقبل الفاسيون على دفع

---

(70) إن المتطورين حالياً يعارضون تعدد الزوجات في غالب الأحيان . وفيما يخص الخطبة والحياة الزوجية ، فإنهم يميلون إلى التصورات الغربية التي ليست متناقضة مع الشريعة الإسلامية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حصتهم لأداء مصاريف هذه الملاهي ، شريطة أن يعاملوا بالمثل . لقد رأينا في عدة مناسبات أن جميع المدعوين أو المدعوات كانوا مقيدين بالعادة ، لا لتقديم الهدايا للعروسين فحسب ، كما هو جار به العمل بأوروبا ، ولكن للمساهمة في دفع أجر الحلاقين والخاطبات[71] .

عندما نشاهد الأشياء من خارج ، نكون ميالين إلى الاحتفاظ قبل كل شيء بذلك المظهر الاحتفالي للزواج الفاسي . يجب ألا نقف عند هذا الحد ، ولكن نعتبر حقاً المظهر الجوهري لهذا العمل ، أي اقتران شخصين وأسرتين ، والوسائل الكفيلة بتسهيل هذا الاقتران . إن لهاتين السلسلتين من الأحداث المتداخلة جداً بعضها في بعض ، نفس الجوهر ، إذ أنهما تشكلان معاً طقوساً عابرة[72] وتؤثران في الزوجة بالأخص ، حيث إنها تمر من المجموعة العائلية الأصلية إلى المجموعة العائلية المتبناة ، وتمر من حالة البكر إلى حالة المرأة المتزوجة . وأخطر وقت وذروة المأساة هي طبعاً الليلة التي تغادر فيها الفتاة منزل أبويها ، وتجد نفسها ، للمرة الأولى ، أمام زوجها . ينبغي ، تلك الليلة ، أن تتخذ أكبر الاحتياطات ، وأن تحترم بدقة الطقوس التي اشتهرت ، منذ أجيال ، بأنها تستطيع أن تسهل أكثر تغيير الحالة المزدوجة المفروضة على المرأة . لكن جميع الطقوس السابقة لهذا الوقت الحرج والتابعة ، لها هي الأخرى قيمة كبرى ، لأنها تساهم أيضاً لا في تأمين سعادة شخصين فحسب ، ولكن بصفة خاصة في رسوخ الفرع الجديد الناشئ من شجرة الحياة ، بالإضافة إلى أنها تعطي الزواج كل الإشهار المطلوب في الفقه الإسلامي . ومن ثم الضرورة المعترف بها شيئاً فشيئاً ، لوجود طائفة المحافظاتِ على التقاليد ، وهن الخاطبات .

---

(71) إن الذين يزوجون أولادهم ، في الأوساط الموسرة ، يمكنهم جيداً أن يتخلوا عن هذه الإعانة من المدعوين . فإذا قبلوها ، فذلك للاحتراز من أن تستحي العائلات ذات الوسائل المحدودة من قبول المساهمة ، المواتية لهم كثيراً ، من ضيوفهم في مصاريف الزفاف .

(72) انظر ڤيستيرمارك ، المرجع المذكور ، ص. 292

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخـاطبـــات : ـ لقد رأينا ، طوال الوصف السابق ، أن هؤلاء النساء كن حاضرات بدون انقطاع ، وعاملات بدون توقف ؛ فلا يجب اعتبارهن كمجرد مكريات للملابس والزينات ، ولا أن يخصص لهن دور ثانوي كدور منظمي شؤون جنائزنا ، أو بوابينا أو قواسي كنائسنا مثلاً . بل يجب أن يعتبرن المحافظات على عادة أساسية ، وكاهنات طقوس الزواج ، إن لم يكن هذا اللفظ جارحاً لإحساس مجتمع إسلامي . وفضلاً عن ذلك فهن مؤهلات تماماً بحكم دورهن ، لا سيما الوصيفة التي لا تفارق الزوجين أبداً أثناء الأيام السبعة الأولى من وصالهما ، ليُستعملن كشاهدات إذا ما حدث نزاع في المسائل الزوجية . إن شهادتهن تكتسي لدى العادة الفاسية قيمة تكاد تعادل شهادة عدل .

هذا شيء عظيم لكنه ليس كل شيء : ذلك أن هؤلاء الخاطبات (نكّافة ج نكّافْف أو نكافات أو ماشطة أيضاً ، ج ماشطات)[73] لم يكن دورهن يقتصر على إنجاح احتفالات دقيقة ، مؤمّنات هكذا أمن المنازل ؛ بل كنّ يتدخلن بكيفية صارمة في الغالب ، في حياة فاس الباطنية . لذلك ينبغي أن توجه إليهن الأنظار لحظة .

ومن غريب المفارقات أن هؤلاء المحافظات على العادة لا ينتمين إلى

---

(73) معنى الكلمة العربية نكّاف (مؤنثهُ نكّافة) هو : حدِر متحفظ (والنطق بنكّافة تحريف عامي) ولفظ ماشطة هو اسم فاعل مؤنث للفعل مشط فلا بدَّ إذن من اتخاذها في الاشتقاق بمعنى ، ماشطة ، ملبسة . لكنها كانت تطلق ، منذ القرن السادس عشر ، عادة على «التي تصحبُ العروس إلى دار الزوج ، « ليلة الزفاف » (دوزي ، ملحقات ، جزء 2 ، ص. 594). وليس من باب الصدفة في اللهجة الدارجة الفاسية، أن يستعمل دائماً لفظ نكافة، لأن دور هؤلاء النساء يفوق بكثير دور مجرد ملبسات ،وقد يليق جداً هنا استعمال لفظ قابلة، لو لم يكن له عندنا معنى آخر . ونظراً لتنوع دورهن بفاس ، لم أتردد في استعمال لفظ خاطبات ، وإن لم يترجم حرفياً لا هذا ولا ذاك من اللفظين العربيين .

إن المعلومات التي جمعتها حول خاطبات فاس تكاد تكون كلها نتيجة تحرٍ شخصي قمت به محلياً في ربيع 1945 . وأشكر بالأخص السيد علال الكردودي التلميذ السابق بثانوية مولاي إدريس الذي أدخلني عند الأمينة الحاجة فاطمة التازية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أصل عريق ، وعلى الأقل في شكلهن الحالي . إن ليون الإفريقي يتحدث حقاً عن « نساء يكلفن بتزيين العرائس »[74] لكن ، حسب التفاصيل التي يدلي بها ، يبدو جيداً أنهن يقمن فقط بدور ملبسات[75]، مقتصرات على « تهييء » العروس قبل ذهابها إلى بيت العرس . ولا يمكن بالضبط تحديد التاريخ الذي أخذت فيه الخاطبات ينظمن أنفسهن ويتخذن الأهمية التي رأيناها لهن ؛ إلا أننا يمكن أن نفترض بأن ذلك كان حوالي بداية القرن السابع عشر أو الثامن عشر ، وهو التاريخ الذي تكاثر فيه العبيد السود بالمغرب[76] ؛ وحتى بداية القرن العشرين ، كانت الخاطبات كلهن تقريباً زنجيات معتقات .

كن يشكلن ، في أوائل القرن العشرين ، طائفة[77] تديرها أمينة (مؤنث أمين) . كانت تُقترح على المحتسب من طرف معلمات الطائفة وتلعب تقريباً نفس الدور لرؤساء طوائف حرف الرجال : كانت تستعمل كخبير في النزاعات التي قد تحدث بين أعضاء الطائفة ، أو بين الخاطبات والزبناء ؛ ومن جهة أخرى ، كانت تعرض على المحتسب تعيين المعلمات للموافقة عليهن . وكانت دائماً امرأة مسنة غنية ، محترمة[78] .

كانت الطائفة مقسمة إلى عدة جماعات تسمى (رباعات)[79] على

---

(75) وإليكم حديثه عنهن (الترجمة العربية المغربية ط. الثانية ، 250:1) : « وفي اليوم التالي تأتي النساء المتخصصات في تجميل العرائس فيمشطن شعرهن ويزين خدودهن بالحمرة ، ويخضبن أيديهن وأرجلهن بالسواد مع رسوم جميلة ، لكن هذه الأصباغ لا تدوم طويلاً . وفي هذا اليوم تكون الوليمة الثانية ، فتوضع العروس فوق منصة ليشاهدها الجميع ، ويقدم الطعام للسيدات اللواتي قمن بتجميلها » .

(76) انظر ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 6 .

(77) وهو شيء استثنائي في فاس بالنسبة للنساء : انظر ما سبق ، الكتاب 5 الفصل 2 ، ص. 295 ، هامش 1 .

(78) لقد حظيت لدى الأمية الحالية باقتبال مشرف جداً . إنها تناهز الثمانين من عمرها ـ حسب ما قيل لي ـ وتظهر السلطة والفطنة . وخلافاً لزملائها رؤساء الطوائف الحرفية ، احتفظت بكل نفوذ الطوائف في العهد القديم .

(79) يرجع هذا الاسم على الأرجح الى العهد الذي كانت الطائفة فيه تضم أربع جماعات فقط .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رأس كل واحدة منها معلمة . كان عددها سبع (رباعات) في دولة مولاي عبد العزيز ، هي رباعة زايدة شقرونة ، وزايدة بنانية ، ومباركة العبدلاوية ، والحاجة مريم ، وزايدة الحبابية ، وهي الأمينة ، والياسمين الميسورية ، وياقوت السلاوية . وبمجرد قراءة هـذا السرد ، يتبين أن جميـع هؤلاء المعلمات تقريباً كن يحملن أسماء أسر فاسية عريقة : كبنشقرون ، وبناني ، والعبدلاوي ، والحبابي ، والسلاوي . لكن أية واحدة من بين هؤلاء لم تكن فاسية الأصل : ويدل اسمهن الشخصي (زايدة ، مباركة ، والياسمين . والياقوت) بوضوح على أنهن إماء . وفعلاً كن كذلك حقاً ، أو بالأحرى كن معتقات[80] ما زلن يحملن أسماء مواليهن السابقين ، كما فعلن عندما كن يخدمنهم في بيوتهم[81] . ومن جهة أخرى ، كان هذا المولى السابق في أغلب الأحيان هو الضامن لهن ، إذ لا واحدة منهن كانت تستطيع أن تنخرط في الطائفة لو لم يكن لها ضامن معروف جداً بالمدينة : فكان ثمن الزينات المتداولة بأيدي هؤلاء النساء ، والاطلاع الخطير الذي سرعان ما كن يكتسبنه على حياة فاس الباطنية ، يستلزمان أن تكون قيمتهن الأخلاقية مضمونة . فمن كان يا ترى قادراً على ذلك أكثر من المولى الذي عشن عنده ومنذ ولادتهنّ أحياناً ؟ ولم يكن هذا الضامن كافياً دائماً ، إذ كان لا بد من جهة أخرى أن تكون طالبة الخدمة معروفة من واحدة أو عدة خاطبات مثبتات . فكان لمبدإ العلاقات الشخصية ، الراسخ بفاس بهذا القدر ، تأثير بالنسبة لهذه الطائفة أكثر من أية طائفة أخرى .

كانت معلمة كل جماعة تساعدها ثلاث أو أربع نساء ماهرات في المهنة

---

(80) منذ إلغاء الرق واضمحلاله تدريجياً ، فإن الزنجيات الحالكات السواد الموسومات بعلامات في وجوههن قد عُوِّض شيئاً فشيئاً بنساء بيض ، جلهن خادمات قديمات ، من أصل بدوي ، لا توجد من بينهن أية امرأة من أصل فاسي . وبما أن هذه الحرفة ليست حرفة امرأة حرة كان من العار أن تزاولها امرأة فاسية .

(81) لم تقتصر علاقاتهن على هذا ، بل إن السيد أو ورثته هم الذين كانوا يرثونهن إذا متن ، لا أبو المواريث ، طبقاً لقانون الولاء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(صانعة ج صانعات) ومتحليات بضمانات أخلاقية خصوصية ، بالإضافة إلى عدد غير محدد من العاملات (متعلمات) معظمهن على درجة من البلادة ، بحيث لا يرتقين أبداً إلى الدرجة العليا . وكان عدد أكبر الرباعات يصل إلى أربعين زنجية ، وأقلها من خمس عشرة إلى عشرين فقط[82] . كانت للمعلمة على مستخدماتها سلطة واسعة غالباً ما كانت تتجسد في اتخاذ عقوبات بدنية ؛ فلم تكن العاملات ولا المتعلمات يستطعن الولوج في رباعة أخرى بدون إذنها الصريح أو بدون إذن المحتسب ، وكان ذلك نفس الشيء ، لأن المحتسب في الخلافات القائمة بين معلمة وعاملة ، كان دائماً يؤيد المعلمة . وبالتالي فقد توطد تضامن متين بين مختلف المعلمات : فلم تكن أية واحدة منهن تحاول إغراء مستخدمات زميلاتها . بالإضافة إلى أنهن كن يتمتعن باعتبار لا ينكر ، يتناسب وثرواتهن وعدد مستخدماتهن .

لم يكن يقلّ سنُّ أية امرأة من هؤلاء النساء عن الخامسة والعشرين ، ويجاوز معظمهن الثلاثين . كما أن أية واحدة منهن لم تكن متزوجة ، وهذه قاعدة مطردة في الطائفة ؛ فاذا اتفق لإحداهن أن تزوجت ، فإنها تنقطع فوراً عن مزاولة حرفتها . وكان ممنوعاً عليهن أيضاً ربط العلاقات بالرجال من غير زواج ، لكن ألسنة السوء تؤكد بأن المغامرات الغرامية من نوع آخر لم تكن غير معروفة عندهن ؛ إلا أنهن على العموم كن مشهورات بحسن السلوك ، معروفات بالتدين . ألم يكن يشاركن التجار في شراء الرداء الذي يهدى كل سنة لتغطية ضريح المولى إدريس ؟ ألم تكن أغنياتهن كلها مختصة بالتسبيح لله أو بمدح رسوله ؟ وسنرى أخيراً أنهن لم يغفلن قط تقديم هدية إلى المولى إدريس عندما كن يتسلمن عربون الزواج أو عندما كنّ يتقاسمن أرباحهنّ . كانت كل واحدة منهن تسكن في بيتها ، لا يأتين عند المعلمة إلا لحاجيات خدمتهن أو من أجل استقبالات ودية .

---

(82) عدد جماعات الخاطبات حالياً هو ست جماعات ، ولا تضم أية واحدة منها أكثر من سبع او ثماني نساء . وهذه حجة أكيدة على أن الاحتفالات العرسية فقدت الكثير من روعتها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كن يتعيشن مبدئياً من حرفتهن لا غير ، فكان كل شيء يسير على ما يرام إبان حفلات الزواج ، لكن عندما كانت تحل البطالة الشتوية ، كان الكثير منهن بدون موارد ، لا سيما العاملات (المتعلمات) ؛ فكان بعضهن يتعاطين حينئذ أعمال التطريز مثلاً ، في انتظار عودة الربيع والأعراس ، وكانت الأخريات يلتجئن بضعة أسابيع أو شهور الى منزل سيدهن القديم ، على أن يساهمن في الأشغال المنزلية كذي قبل ؛ كما كانت أخريات يحصلن على استضافة ثمانية أيام في أسرة زبونة ، وثمانية أيام في أسرة أخرى ، ويقضين فصل الكساد كيفما تيسر لهن . كانت الأسر تقبل هذه الضيافة دون كبير امتعاض لأنها كانت تُكسبها أكثر عناية الخاطبات .

كان نشاطهن الرئيسي يباشر، كما رأينا ذلك، بمناسبةالأعراس. كان لهن دور في بعض الاحتفالات العائلية الأخرى . فكن ينظمن في اليوم الموالي لسابع يوم ولادة أول طفل عرض الوليد (برزة) ، وعلى الأقل في الأسر الكبيرة[83] .

وبمناسبة (الختان) كان يقع استدعاؤهن غالباً لقراءة دعوات مباركة يعرفنها وحدهن ، ويتسلمن أجرة متناسبة مع كرم العائلة . فضلاً عن أن بعض الجماعات كانت تكري ملابس الختان . وبعد مرور يومين على الحفل ، وتحت ستار الرجوع لاستعادة هذه الملابس ، كن يقمن بزيارة ويتسلمن بعض الهدايا علاوة على مقابل الكراء . وأخيراً بمناسبة العودة من الحج والوفيات ، كن يستدعين أحياناً لقراءة الصلوات على النبي .

وكن يشاركن كذلك في الاحتفالات الرسمية : فلدى الدخول الرسمي للسلطان إلى فاس ، وعندما كان عامل جديد أو وزير جديد يتقلد مهامه ، كن يصنعن دُمى (أبيضيات) مزينة كالعرائس بحلى حقيقية تعرض على العاهل أو

---

(83) لقد اختفت هذه العادة تماماً . كان رب البيت يكافئهن كما يجب ؛ وكن يستلمن علاوة على ذلك بعض النقود من المدعوات اللاتي كن قد ساعدنهن في تزيينهن .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشخصية الكبيرة ، عند مروره ، فيتوصلن بمنحة مالية ، جزاء لهن ، ويستدعين إلى قضاء ثلاثة أيام أو أربعة بالقصر .

وكان نشاطهن في الأعراس يباشر بثلاث كيفيات مختلفة :

أولاً : كانت المعلمات كما أسلفنا ، يُستشرن في غالب الأحيان لاختيار الزوجين ؛ وكان في وسعهن الإدلاء بمعلومات مفيدة لكثرة ما يعرفن من الأسر .

ثانياً : كن يكرين الملابس والحلي الضرورية للعروس . كانت كل الجماعات تملك ملكاً خاصاً الملابس الأساسية ؛ ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للحلي واللوازم اللباسية الأخرى ، لأن جل المعلمات لم يكنَّ غنيات حتى يقتنين كل ما كان لا بد منه . كنَّ إذن يكترينها من بعض الأسر البارزة ، كآل لحلو ، وبنيس ، ومكوار وغيرها كثير ؛ وكان الكراء لمدة شهر ، مقابل عربون . كانت الخاطبات يتصلن عادة بعدة مقرضين ، لأن هؤلاء وهم قليلو الاهتمام بالتعرض إلى المخاطر الكبرى ، كانوا يرفضون التخلي عن كثير من الأشياء النفيسة . وفعلاً ، ففي حالة سرقة (وكان هذا شيئاً نادراً ، لكنه ممكن الحدوث) لم تكن الخاطبة الرئيسة تعوض سوى نصف ثمن الشيء الضائع[84] . وتقوم الخاطبات بدورهن بإكراء هذه الأشياء لأسرة العروس ، لكن باليوم ، لا بالشهر ، ومن ثم يأتي ربح لا يستهان به .

ثالثاً : كانت « النكّاكف » ينظمن حفلات الزفاف ، كما أسلفنا القول ، غير مقتصرات على التخفيف على العائلات من الاهتمام بتهييء العروس وتأثيث غرفة العرس ، بل حريصات على أن تكون جميع الشعائر محترمة بدقة ، حسب الرتبة الاجتماعية للزوجين . ولم تعد بعد المعلمات وحدهن المسؤولات ، في هذا المجال الثالث لنشاطهن ، كما هو الشأن بالنسبة للمجالين الأوليين ؛ فكن يكتفين بإعطاء تعليماتهن وتسليم الملابس والزينات

---

(84) لقد تطورت أحياناً هذه العادة ، حيث إن المقرض يتحمل الآن جميع المخاطر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المتفق عليها لنائباتهن ، ولا يظهرن إلا نادراً في الاحتفالات ؛ وكن يفضلن المكوث في منازلهن لتوزيع العمل ، وللقيام بأنفسهن بحراسة الأشياء النفيسة التي لم يكنَّ يستعملنها .

لم تكن المعلومات التي تعطيها الخاطبات من أجل قران تكافأ مباشرة ؛ كانت تستوجب للتي أدلت بها غذاء فاخراً ، وهدايا وصداقة (زبانة) الأسرة المعنية بالأمر ؛ كانت تكسبها بالأخص الاعتبار والمراعاة المشوبة بالخوف .

كان ثمن كراء الملابس والحلي يختلف حسب جودة السلع[85] وحسب الرتبة الاجتماعية والحالة المالية للزبناء أيضاً ؛ كان يتراوح عادة بين 100 و 200 ريال ، ويؤول بكامله إلى المعلمة . كانت هذه الأخيرة تفرض دائماً دفع العربون قبل الحفل بعشرين يوماً تقريباً ، وتبعث بقسط منه في الحين إلى زاوية مولاي ادريس .

كان معظم الأرباح التي تحققها الخاطبات يأتي من جمع التبرعات أثناء حفلات الزفاف . كان تبرعان في ليلة « القوالب الكبار» وواحد في حفل التعاهد، وآخر عند تسليم الهدايا[86]؛ بالإضافة إلى أن الخاطبات الأربع اللائي كن يحملن العروس على أكتافهن (دورة) يستلمن من 10 الى 20 ريالاً . وكان تبرع آخر خلال «ليلة الدخول» بمناسبة الترحيب بالعروس (غرامة الحليب وسلامة البوسة). وكان حفل «السراويل» يستوجب هدايا جديدة للخاطبات : هدية من الزوج ، وهدايا من النساء اللواتي بُشرن بذلك[87] . كما أن تقديم الهدايا من الزوج إلى امرأته كان يأتي ببعض المال[88] ، وكذلك تزيين الشعر ، في « نهار حل الرأس » . وأخيراً عندما كانت الخاطبات ينهين

---

(85) لم تكن الخاطبات يطالبن بأي ثمن كراء ، عندما كان يتعلق الأمر مثلاً بأسرة شريفة توجد في ضيق مادي .

(86) كانت كل مدعوة تعطي ريالاً أو اثنين .

(87) هؤلاء كن يعطين من ريال واحد إلى أربعة ريالات حسب إمكانياتهن .

(88) كانت العطايا هذه المرة رهيدة أكثر ، تتراوح بين قرش وريال .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عملهن ، بعد مرور سبعة أيام ، كان الزوج يسلم لهن هدية أخيرة تدعى « غرامة سبع أيام » .

وفضلاً عن هذه التبرعات الإجبارية ، كانت المعلمة تتوصل دائماً تقريباً قبل الزواج بهدايا عينية ، كمناديل مطرزة ، وسكر ، وعسل ، وشموع ، وحناء ؛ وغالباً ما كانت المستخدمات ، خلال الاحتفالات يأخذن هدايا أخرى من أسرة الزوج . وأخيراً ، كان من العادة أن تهدي الأسر المخزنية ملابس إلى المعلمة ومناديل (خرقات) إلى المتعلمات .

كانت الهدايا العينية تعود إلى قابضتها ؛ أما الهدايا المالية ، فكانت تجمع في صندوق مشترك (قبض) يوكل بحراسة المعلمة ؛ فكانت توزعه مرة أو مرتين في السنة ، أمام اثنتين من مستخدماتها ، غير غافلة عن وضع حفنة من الريالات جانباً لضريح المولى إدريس . كان نصف المبلغ المقسوم يعود إلى المعلمة ، والنصف الآخر يوزع على المستخدمات . ومعلوم أن لمساعدات المعلمة (صناعات) الحق في ضعف ما تأخذ الخادمات (المتعلمات) . من الواضح أنه ، في نهاية فصل مليء جداً ، لا بد أن يكون المبلغ الذي سيوزع جسيماً ، فلا غرابة أن تكون بعض المعلمات غنيات حقاً .

كان زبناء الخاطبات محدودين تقريباً في مدينة فاس ، لأن أهل فاس الجديد والقصبات ، وكلهم تقريباً من أصل بدوي ، كانوا لا يحتفلون بأعراسهم على الشكل الفاسي ، وحتى لو أرادوا ذلك كان جلهم غير قادرين عليه لفقرهم المذقع . أما بالنسبة إلى القصر ، فلم يكن العبيد منعدمين فيه لتنظيم الأعراس الملكية . كانت إذن البورجوازية الفاسية هي التي تستعمل مصالح الخاطبات ؛ وكان يحدث أن تستحضر أسرة فاسية انتقلت إلى مكناس ، أو الرباط أو سلا أو مراكش ، الخاطبات من فاس للاحتفال بزفاف . كان ذلك نادراً ، لأن المعلمة كانت تشترط ، زيادة على الأجور والهدايا المعتادة ، أن تعفى الجماعة كلها من كل نفقة أثناء مقامها خارج فاس ؛ وكان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القليل من الناس يستطيعون تحمل مثل هذا الترف .

هكذا كانت أولئك النساء اللائي كان لهن تأثير حقيقي في الأسر الفاسية ، وبالرغم على أصلهن الوضيع لم يكن محبوبات جداً لشراهتهن الكبيرة ، كما أنهن لم يكن مبجلات إذ كيف كان بإمكان فاسي أن يقدر امرأة بدون ثقافة ، كانت خادمة منذ عهد قريب ؟ لكنهم لم يكونوا يستطيعون التخلي عنهن لكونهن مطلعات أكثر من غيرهن ، على التقاليد العرسية ، ساهرات على احترامها ، ينجين العائلات من كثير من المشاغل المادية . فكانوا يخشونهن بالأخص لكونهن يعرفن المجتمع الفاسي تمام المعرفة ، لا تنقصهن الأسلحة للدفاع عن أنفسهن وحتى للهجوم . فلأن تتفق معهن امرأة كان ذلك بالنسبة لها الأمل في اجتناب ضرة أو طلاق ، لأن الخاطبات ، وهن يتصلن بالرجال ، لم يكن يترددن في وعظهم . لكن الويل للمرأة التي لم تكن تحسن استهواءهن ، إذ كان في استطاعتهن أن يوصين زوجها بطلاقها أو بالتزوج ثانياً . كن ـ وما زلن ـ تخشاهن العائلات التي أدركت لها بنت أو عدة بنات الزواج ، لأن ميلهن إلى الغيبة ، أو حتى النميمة ، كان معروفاً جيداً .

ولما كان للخاطبات سلطة يستعملنها هكذا ، كن يتجنبن بعناية الخوض في المغامرات الغرامية ، حتى لا يوجهن السلاح ضدهن لو قبلن دور الوسيطات ؛ ومع ذلك فان ألسنة السوء تقول إنهن إذا كن يرفضن خدمة (إيروس) فإنهن أقل صرامة إزاء (أفروديت ليسبوس) ، والله أعلم ! .

لا بد أن نتمنى أن يقوم كاتب فاسي يوماً مّا بتشخيص هؤلاء الخاطبات في مشهد رواية أو كوميديا ؛ فسوف تكون له مادة غزيرة مع هؤلاء النساء الغريبات اللائي يعشن عازبات منقطعات لطقوس الحب ، في بساطة وخشونة ، ومع ذلك يحافظن على عادة ثابتة متشددة ، وهن إماء قديمات ، يفرضن استبداداً صارماً على المنازل البورجوازية بفاس ، طوال أفراح الأعراس . سوف ينطقهن الكاتب بلغة وقار مصطنع ومتدين تتخللها تعجبات وألفاظ تقنية ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وسيصفهن جشعات، مترقبات كل فرصة للاغتياب والثرثرة، يحسنّ الحديث إلى الرجال أحياناً ، وهديهم أحياناً إلى الصراط المستقيم ، مولعات بالأعياد ، وصراخ الزغاريد ، وجمهور النساء المتزينات ، مشبعات بشرفهن المهني ، كجميع الاختصاصيين بفاس ، يخشاهن الناس ويكرهونهن أحياناً ، ولكنهن لا يعوضن[89] .

(89) لقد نقصت أهمية الخاطبات منذ أن تزايد بسرعة عدد المتطورات . ومن المحتمل أن تطور الفتيات سيقضي عليهن نهائياً ، وأننا سنشاهد ، بفاس وبتوس معاً (انظر في هذا الصدد هـ . دومونتيلي، نفس المرجع ، هنا وهناك) ، تغريباً لحفلات الزفاف ، وتبسيطاً يجعل تدخل الخاطبات شيئاً فشيئاً عديم الجدوى . وهذا التطور هو الآن في طريق الإنجاز .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع

الأولاد

يشجع الإسلام ، كالمسيحية ، على إنجاب الأولاد ، فكانت العائلات الكثيرة الأطفال إذن هي القاعدة في جميع أوساط فاس[1]. وكان الزوجان العقيمان يعرفان بأنهما مصابان بعلة من العلل أو بلعنة غير طبيعية ، وغالباً ما كانت النساء اللواتي لا أولاد لهن يذهبن لشرب ماء عين محاذية لضريح مولاي إدريس ليصبحن حوامل ، ويجتنبن هكذا الطلاق أو مجيء ضرة .

يمكن القول إذن بأن جل الزوجات الشابات كن ينتظرن ولداً ابتداء من أول سنة لزواجهن . وبمجرد ما يحملن يصبحن موضوع عناية خاصة ، كان يكفيهن ، لاسترعائها ، استعمال العبارة الطريفة الشائعة : « إنني بين روحين » (راني بين روحين)[2] .

---

(1) يمكن القول حالياً بأن تحديد النسل لم يطبق بفاس ، ما عدا من طرف بعض المتطورين اللذين يعملون على تحديد عدد أولادهم أقل مما يعملون على الإبعاد بين الولادات ، وذلك حتى لا يفرضوا كبير عناء على زوجاتهم . كانت الرغبة الدائمة لمن يتزوجون هي أن ينجبوا أولاداً ، وأولاداً كثيرين .

(2) انظر عن الولادة وما يحيط بها من حفلات ، أوبان ، المقال المذكور، ص. 428 -429 . وقد حظيت من جهة أخرى بالتمكن من تصفح محاضرة لأحمد الصفريوي بعنوان : شعائر الولادة (وثائق غير منشورة لأصدقاء فاس) ودراسة للسيدة ماص (الطفولة الصغيرة بفاس والرباط)، دبلوم للدراسات العليا غير منشور .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطفولة الصغيرة : ـ كانت المرأة في حالة المخاض يحيط بها جمهور من القريبات ، والصديقات ، والجارات والمتطفلات ، وتساعدها قابلة[3] . وللتخفيف من آلام الوضع والتعجيل بالولادة، كن يلجأن إلى أدوية امرأة مسنة ، كما يوجد ذلك هنا وهناك عبر العالم ؛ فكانت المريضة مثلاً تشد بيديها على حبل موثوق بمسمار مثبت في الجدران (حبل للأ فاطمة الزهراء)[4]، ولإنزال غشاء الجنين كن يدعون النفساء إلى النفخ في قنينة واستنشاق مسحوق طابة لتعطس ، وما إلى ذلك . . .[5] وفي حالة صعوبة الولادة العسيرة ، كن يلجأن إلى أطفال الكتاب المجاور الذين يمسكون قماشاً وضعت في وسطه بيضة من أطرافه الأربعة ، ويتجولون في أزقة الحي وهم ينشدون : « امرأة تتوجع من ولادتها ، اعتقها يا مولانا ، بحق آيتي طه وياسين وبالقرآن الحكيم »[6] .

كانت القابلة تتسلم الوليد في خرقة بيضاء ، ومن هناك المثل القائل بخصوص السيء الحظ : « لا شك أنه استلم في خرقة سوداء» . وبمجرد ما تنتهي النظافة ، كانت الحاضرات يسرعن لمشاهدته ويضعن عليه قطعة نقدية ، قائلات « تبارك الله ! » كان الأب يُخبر فوراً فيذبح ديكاً . وكانوا يرحبون بالوليد البكر إذا كان بنتاً ، ويعتبرونها من حسن الطالع[7] .

وابتداء من يوم الغد ، كانت أفراح الولادة تبدأ بشاي يقدم إلى النساء

---

(3) معناه حرفياً : التي تقتبل . كانت لكل أسرة قابلتها الرسمية ، وهي عادة أرملة من أصل وضيع ، كانت تكتفي بمزاولة حرفتها ، وليس لها لا سلطة الخاطبات ، ولا جشعهن ، ولا تأثيرهن . كانت تتوصل بهدية يوم الولادة (بشارة) وتجازى في سابع يوم ، حسب موارد الأسرة ، فضلاً عن هدايا عَينية ، وتساهم في جميع الولائم المنظمة بمناسبة الولادة (السيدة ماص ، المرجع المذكور)؛ وكانت تتسلم زكاة الفطر بمناسبة عيد الفطر ، أي القمح الممنوح للفقراء (الصفريوي ، المرجع المذكور) .

(4) السيدة ماص ، المرجع المذكور .

(5) نفس المرجع .

(6) م . الزغاري ، المسيد ، ص.2 .

(7) أوبان ، المرجع المذكور .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اللواتي كن يأتين في ملابس فاخرة ، حاملات هدية نقدية (زرورة) . كانت العائلات الكبرى تستحضر مغنية ، وتكتفي العائلات الأخرى بالغناء فيما بينها على إيقاع الطبلات ، وعلى كل حال كانت تحدث ضجة كبرى.يقول مثل فاسي : إن تجمعات النساء شبيهة بتجمعات الضفاضع ، إذ أنها تجري بالضجيج[8]. ومنذ ذلك الحين إلى اليوم السابع كانت النفساء والطفل يزورهما العديد من النساء ، ولمعظم هؤلاء الزائرات نوايا خالصة وتهانئ كثيرة بحسن الطالع ؛ لكن قد يحدث أن تكون من بينهن من يحاولن الإساءة باستعمال « العين الشريرة » ، الأمر الذي من أجله كن يكثرن من الأدعية الكفيلة بإبطال تأثيرهن السيء .

وفي اليوم الثالث كان الولد يطلى بالحناء ، وهي عشبة مانعة للعفونة ونافعة ، وقد رأينا ذلك بصددالزواج[9].وفي اليوم الخامس كان موكب يحمل جهاز الوليد الذي يهديه أهل النفساء : فكانت تلك مناسبة لإقامة حفل جديد وأغنيات جديدة .

وأخيراً ، كان اليوم السابع (السابع أو نهار السمية) هو الأكثر احتفالاً . يجتمع الرجال باكراً في فناء الدار ليشاهدوا الأب وهو يذبح كبشاً قائلاً : « بسم الله والله أكبر ، على سمية فلان (ـ اسم الولد ـ). » وكانوا يقولون أحياناً : « إني أسميك فلاناً ، ابن فلان » . ولم يكن الاسم يختار قبل الولادة قط ، خشية أن يسبب مصيبة ، وكان هذا الاختيار خاضعاً لقواعد متغيرة جداً حسب العائلات . وكان الأب ، بعد ذلك ، يقدم لأصدقائه طعاماً تقليدياً (عقيقة) والنساء يعدن إلى المسرح عشية للحفل المدعو تهليلة (تطهير): كان الولد يغسل لأول مرة ثم ، بعد إلباسه ملابس جميلة ، كن يجتزن به في شكل موكب عتبة البيت الذي ولد فيه ويطفن به في الدار كلها لتقديمه إلى حيز المكان ؛ وأخيراً كان يوضع في مهده ، والشموع موقدة على رأس السرير .

---

(8) أحمد الصفريوي ، المرجع المذكور .

(9) الكتاب 7 ، الفصل 3 ، ص . 514 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان كل ذلك مصحوباً بالغناء والرقص (تحضيرة) .

كانت هذه الأيام السبعة تشكل أول فترة من حياة الوليد ، ثم كانت تفتح فترة جديدة لم يكن الطفل يغادر خلالها مسقط رأسه . وفي يوم الأربعين ، يحمله موكب من النساء الى ضريح مولاي إدريس ، وهناك كانوا يقصون له شعره ، دون أن يهملوا ذبح أضحية وتسليم هدية إلى المقدم . كانت هذه الحفلة تشكل تقديم الولد إلى ولي المدينة . وقبل إعادته إلى أمه ، كانوا يذهبون به ليقدموه إلى أقربائه . والحاصل أن ذلك يكون أول اتصال للولد بحياة الحاضرة .

وأخيراً ، وفي تاريخ غير محدد ، كانوا يحملونه إلى الحمام ليستحم فيه لأول مرة ، وكانت الأسر الغنية تنظم به حفلاً .

نرى إذن أن الـوليد ، بعد أن أُعطي اسماً يحمله طول حياته ، كان يقدم بالتوالي إلى الجن المقيمين بالمكان الذي سيعيش فيه ، ثم إلى الولي حامي المدينة ، وأخيراً إلى الأهل والأقارب ، وهكذا كان يندَمج تدريجياً في الوسط الذي سيعيش فيه سنوات طوالاً ، إن شاء الله . ونشير كذلك إلى أن معظم الحفلات التي أعطينا عنها نظرة وجيزة منذ قليل ، كانت وقفاً على النساء .

وفعلاً كانت الطفولة الأولى كلها خاضعة للنساء ، لم يكن للرجال دخل فيها إطلاقاً[10] ، حتى إنه غالباً ما كانت النساء يقلن عن الرجال : « ما عندهم

---

(10) وبخصوص هذه النقطة ، وغيرها كثير ، فإن المتطورين بصدد تغيير العادة نفاس . فسرعان ما تيقنوا بأن الكثير من العوائد السلفية كانت قليلة الاتفاق مع مبادئ الصحة العصرية . لذلك فقد أخذ العديد منهم على عاتقهم العلاجات التي ينبغي أن تعطى للوضع ، معلنين الكفاح ، في كثير من الحالات ، ضد جميع نساء أسرتهم ، من جدات، وقريبات ، وخادمات عجائز ، وأحياناً حتى ضد أزواجهم . يهتمون خصيصاً بتغذية الطفل ، وكثيراً ما يلجؤون إلى هيئات مثل « نقطة الحليب » التي يعرفون أنهم سيجدون بها ما يليق بالرضع . وقد آتى تشبثهم أُكُلَه ، حيث إن النساء اللاتي يلجأن من تلقاء أنفسهن إلى الطرق العصرية للرضع كثيرات الآن ، ويحملن رضيعهن إلى المستوصف ؛ كما أن تنمية مدارس البنات الإسلامية ساهمت في هذا التطور بكيفية واسعة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كبدة في أولادهم»[11]. وهذا تصريح في غاية الإطلاق ، لأن الآباء سواء بفاس أو غيرها من الأماكن ، كانوا يحبون أطفالهم ، لكنه تصريح حقيقي بمعنى الكلمة أنهم لم يكونوا ينشغلون كثيراً بهم في الحياة اليومية ، تاركين للنساء مهمة تربيتهم وتكوينهم . ولم يكن الأب يهتم بابنه اهتماماً فعالاً إلا عندما يدخل إلى المدرسة ؛ أما البنات فكن دائماً يدرن في فلك أمهاتهن ونساء المنزل .

وإذا كان الطفل الفاسي يترعرع في وسط هؤلاء النساء المتباينات كثيراً سواء من حيث السن أو الوضعية، ولكنهن يعشن مجتمعات طوال اليوم بما فيهن الأم، والجدات، والخالات، وبنات العم، والإماء بالنسبة للأغنياء، والجارات بالنسبة للفقراء ، فإنه لم يكن يتمكن من اتخاذ العوائد المنتظمة التي نجتهد في إعطائها لأولادنا منذ سنهم الباكر . إلا أن الكل كان مجمعاً تماماً أو تقريباً على تلقينه احترام اللياقات « والقاعدة » ، ولو تطلب الأمر عقوبات بدنية . ومن جهة أخرى ، فبمجرد ما كان الطفل يبلغ السن الكافي لإدراك ما يجري حوله ، كان يكسب أيضاً حساً دقيقاً للملاءمات الطبيعية والمخالفات المواتية . وهذه تربية تختلف عمقاً عن تربيتنا ابتداء من المواقف والحركات إلى الانشغالات الأخلاقية ؛ لكنها متكيفة جداً مع غاياتها ، لأنها كانت تنمي في الطفل على جميع أنواع المظاهر ، الشعور بالانتماء إلى مجموعته ، وتقدم له الطرق للتصرف الحسن إزاءها .

المسيـــد : ـ كان التعليم يلقن خارج الدار ، ما عدا في حالات استثنائية . كان الصبيان يذهبون إلى الكتاب (المسيد)[12] وإن كانوا لا يذهبون إليه كلهم لأن التعليم كان قليل الانتشار نسبياً في الأوساط الفقيرة ،

---

(11) مدام ماص ، المرجع المذكور .

(12) انظر عن « المسيد » بفاس پيريتي ، المرجع المذكور ، ص. 309 وما بعدها . وكذلك الدراسة الممتازة لصديقي السيد محمد الزغاري « المسيد » في مجلة التعليم العمومي للمغرب ، عدد 159 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حيث كان الآباء غالباً ما ينقصهم تقليد فكري ولا يملكون خاصة المال الكافي لأداء تكاليف التمدرس . وعلى العكس من ذلك يمكن القول إن جميع أبناء الأسر الموسرة كانوا يختلفون إلى الكتاب بكيفية متفاوتة ؛ بحيث إن شباب فاس ، على العموم وبقدر ما يمكننا أن نحكم عند انعدام المعلومات الإحصائية ، كان متعلماً جداً بالنسبة لمجموع المغرب ، وحتى بالنسبة لمدن أخرى من مدن المملكة الشريفة . فكان عدد الكتاتيب ، في المدينة وحدها ، 120 كتاباً ، منها 24 في عدوة الأندلس و96 في عدوة القرويين وقصبة فيلالة[13] .

لا فائدة في وصف قاعة الدرس ، والأدوات المدرسية والطرق التربوية «للمسيد» ، لأن جميع كتاتيب العالم الإسلامي منظمة بنفس الكيفية ومعروفة منذ عهد قديم . لذلك سوف أكتفي ببيان بعض التفاصيل الخاصة بفاس .

وأغرب من هذا كله أن معلمي القرآن (فقيه ج فقهاء) لم يكونوا فاسيين ؛ فبينما كانت العادة تقتضي أن يكون الحلاقون وكثير غيرهم من أهل الحرف مدنيين منذ عهد طويل ، كان معلمو الشباب كلهم تقريباً يستخدمون من خارج فاس من بين جبالة وفيلالة . حقاً إنه كان يعترف لهم بتدين وورع ، لكنهم مع ذلك لم يكونوا سوى قرويين خشنين ، تهذبوا قليلاً أو كثيراً بفضل بضع سنوات من الدراسة بفاس . ورغم هذا الأصل المتواضع ، كان معلمو القرآن محترمين من لدن التلاميذ بطبيعة الحال (كانت القضبان الموضوعة دائماً في متناول المعلم تساهم في ترسيخ الاحترام في هذه الأدمغة الفتية) ، وكذلك من لدن أولياء التلاميذ ، لا سيما الآباء الذين يكنّون الاحترام الواجب لخدام الدين وملقني العلم ؛ ولم يكن يغضبهم أن يروا أبناءهم خاضعين لسلطة عنيفة أحياناً ولكنها صارمة ، من شأنها أن تعادل بنجاح التسامح الطبيعي لربات البيت .

---

(13) انظر القائمة المفصلة عن هذه الكتاتيب ، عند بيريتي ، المرجع المذكور ، ص. 309 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلا أن هذا الاحترام لم يذهب إلى مكافأة الفقيه بسخاء . فكان كل واحد من التلاميذ يدفع له ، بموجب شبه عقد تقليدي[14] من 0.25 إلى 0.50 بسيطة حسنية كل يوم أربعاء[15] ، وذلك ما كان يؤمن له ربحاً يتراوح بين 5 و10 بسيطات حسنية في الأسبوع . بالإضافة إلى أنه كان يستلم هدايا نقدية أو عينية بمناسبة الأعياد المدرسية والأعياد الدينية ، وكل ذلك لم يكن يغنيه .

كان الأب هو الذي يقدم ابنه إلى المعلم الذي اختاره ، عندما يبلغ الطفل ست سنوات تقريباً من عمره . لم يكن يسجله ، بل يسلمه إلى الفقيه مستعملاً العبارة التقليدية : « ها هو ابني ، وهو ابنك منذ الآن فصاعداً تسهر على تربيته . اضربه ، وإذا قتلته أنت دفنته أنا »[16] .

من البديهي أن المعلمين لم يكونوا يعبؤون باتخاذ هذا التصريح حرفياً لكنهم لم يكونوا يدخرون وسعاً في العقوبات البدنية : وهي عبارة عن مجرد ضربات بالقضيب على الرأس أو الكتفين بالنسبة للأخطاء الطفيفة ، وجلد باطن الأقدام بالنسبة للمخالفات الأكثر خطورة . وكان يوم الثلاثاء يعتبر من هذا القبيل مشؤوماً بكيفية خاصة[17] .

لم تكن مدة الإقامة بالكتاب محددة ، إذ كان الغرض المقصود هو حفظ الكتاب المقدس عن ظهر قلب ؛ فكان البعض في تحصيل ذلك أسرع من البعض الآخر ، كما أن الكثير كانوا يتوقفون في الطريق ويغادرون الكتاب بعد خمس سنوات أو ست أو حتى في أقل من ذلك .

---

(14) كان معلم القرآن يسمى : الفقيه المشارط (الفقيه المتعاقد) (مذكرة حول التعليم) .

(15) أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 277 . نتذكر أن الأربعاء كان يوم سوق بفاس (انظر ما سبق ، الكتاب 5 ، الفصل 4 ، ص 389 ، هامش 6). كان المعلم في البادية يؤجر يوم السوق ، وقد ثبتت هذه العادة العريقة القروية في المدينة الكبيرة .

(16) الزغاري ، المرجع المذكور . كان آباء التلاميذ ، وعلى الأقل في بداية الحماية ، يستعملون نفس العبارة عند تقديم أبنائهم إلى المدرسة الفرنسية .

(17) نفس المرجع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت الحياة الدراسية متسمة بشتى التسليات[18] ، يُحتفل بالأعياد الدينية قبل كل شيء : فكان عيد الأضحى مناسبة لولائم الصبيان (عشيشة قديرة) التي تنظم عند الأسر ؛ وكان سابع المولد النبوي يقضيه الأطفال في الكتاب أو في مسجد مجاور وهم يمرحون ويولمون ؛ وكانت عاشوراء تُحمل فيها الشموع إلى المعلم ، ويسهرون في الكتاب المضاء بالأنوار ، ويحفظون فيه منذ الفجر درساً قصيراً ليبدؤوا السنة على أحسن حال .

وكانت أيضاً أعياد خاصة بالكتاب ، أحدها يسمى الختمة ، عندما يحفظ أحد التلاميذ الحزب الأول من القرآن[19] .

كان الفائز يصحبه رفاقه إلى منزله ، وهو مرتدٍ ملابس مطرزة بالذهب ، ومحمول على الأكتاف كالعروس . وإذا حفظ تلميذ القرآن كله ، أقيم احتفال يدعى « حبينا »[20] . وبعد تناول الأطعمة والاستماع إلى أناشيد المغنيين الدينيين ((المسمعين))[21] ، يبسطون سفرة بيضاء وضعت في وسطها لوحة بطل الاحتفال ما زال مكتوباً عليها آخر نص حفظه ، محفوفة بإطار من رسوم فنية . كان الحاضرون يلقون قطعاً نقدية على اللوحة إلى أن تغطى : كان ذلك يوفر أكبر ربح للفقيه[22] .

إن أساليب التربية في الكتاب تبدو لنا بدائية ، حيث إننا نشك في أن يكون تعليمٌ هو عبارة عن مجرد تقوية للذاكرة بهذا القدر مكوّناً حقاً ؛ إلّا أنه لا بد من الاعتراف بأن كل الذين مروا من الكتاب قد انطبعوا به انطباعاً عميقاً واحتفظوا له بذكر جيد . إنهم نسوا ضربات القضيب على باطن الأقدام ،

---

(18) الزغاري ، المرجع المذكور .

(19) إننا نعلم أن القرآن مقسم إلى 60 قسماً (حزب) موحدة الطول ، وذلك تسهيلاً للتعليم .

(20) يسمى هكذا لأن إحدى القصائد التي كانت تنشد بهذه المناسبة كانت في مدح حبينا سيدنا محمد (الزغاري نفس المرجع) .

(21) انظر عن هؤلاء المغنيين ، أ. شوطان ، الموسيقى المغربية، ص. 108 .

(22) نفس المرجع ؛ وأوبان ، المرجع المذكور ، ص. 278

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والأصوات المتنافرة الأنغام التي تحفظ بأعلى صوت نصوصاً مختلفة ، ليحتفظوا فقط بذكر الحفلات البالغة الرونق بالنسبة للمخيلات الصبيانية ، وتلقين الحقيقة الدينية ، والمعلم العجوز الذي كانوا يسمونه «احتراماً ، « نعم آس»[23]، والذي يعطي دروساً في الأخلاق والاستقامة في نفس الوقت الذي يُحفِّظ فيه القرآن الكريم .

مؤسسات البنـــات : ـ كانت البنات يلازمن الدار ، على العموم ، وتسهر على تربيتهن كلّ من أمهاتهن ، ومرضعاتهن ، وجميع نساء المنزل . ومع ذلك كانت هناك دور للتربيةالنسوية على نوعين : معامل التطريز (دار معلمة) ، ومدارس بمعنى الكلمة تدعى مدارس البنات .

كانت المعامل[24] عادة تحت إشراف امرأة واحدة ، أرملة أو مطلقة من أصل محترم ، محتاجة إلى كسب قوتها . كانت تجمع عشر بنات صغيرات ، أو اثنتي عشرة من أسر فاضلة ، فتعلمهن التطريز وآداب اللياقة . ويتعلق الأمر هنا بمؤسسة حرة صرفة ، لا نستطيع أن نعطي عنها أي رقم ولو تقريبي .

كما كانت هناك مدارس حقيقية للبنات ، مماثلة لمدارس الصبيان ، لكنها أقل عدداً . كان عددها حوالي خمس عشرة مدرسة في أوائل القرن العشرين[25] موجودة في الأحياء البورجوازية وحدها تقـريباً . كانت بنات الطبقات الفقيرة لا يختلفن إلى المدرسة ، وقليل منهن يختلفن إلى معامل التطريز .

---

(23) هو اختصار « نعم يا سيدي». وقد أصبحت هذه العبارة اسماً علماً للفقيه من كثرة استعمالها للاستجابة إليه فيقال (« ذهبت عند نعم آسي . . وقال لي نعم آسي . . . وفعل نعم آسي . . . ») .

(24) انظر في هذا الصدد ما دام ش. برونو ـ دافيد ، مطروزات الرباط ، ص. 3-12 ؛ وف. بونجان ، اعترافات بنت الليل ، هنا وهناك .

(25) أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 278 ، وبيريتيي ، المرجع المذكور ، ص. 312 الذي يضع قائمة لها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وسواء هنا أو هناك كن يتلقين تكويناً خلقياً واجتماعياً أكثر منه فكرياً . وحتى إذا كن يذهبن إلى المدرسة ، حيث كان اجتهادهن أقل من اجتهاد الأطفال ، لم يكن يتجاوزن قط مرحلة التعليم الأولي .

الختـــان : ـ كان الختان حادثة مهمة في حياة الأطفال ، ويجري في تاريخ غير محدد ، فيما بين السنة الثانية والسابعة أو الثامنة من العمر . ويحمل الطفل إلى المسجد المختار و (غالباً ما كان زاوية المولى إدريس) . كانوا يضعونه على فرس أو بغلة ، بعد أن يلبسوه ملابس جميلة مطرزة بالذهب ، غالباً ما كانوا يكترونها لأجل المناسبة ؛ ثم يتحرك الموكب على صوت المزامير والطبول ، ويرجع بعد انتهاء العملية ، متبعاً نفس الاحتفال . وكان القيام بهذه الشعيرة مناسبة لاحتفال عائلي .

كان حلاق الأسرة هو الذي ينجز العملية . لقد رأينا آنفاً[26] أن الحلاقين كانوا يتدخلون في الأعراس والاستقبالات ، محتلين في الحياة الفاسية مكانة كبيرة تستحق أن نتوقف عندها هنيهة[27] ، لكن دون أن تكون لهم أهمية الخاطبات .

الحلاقـــون : ـ كان الحلاقون (حجامة) يشكلون ، مثل سائر أرباب المهن ، طائفة يديرها أمين[28] ، وتضم حوالي أربعين معلماً . كان يساعد كل واحد منهم عامل إلى ثلاثة عمال ، ومتعلم إلى ثلاثة متعلمين ، أي في المجموع 140 شخصاً تقريباً . كانوا كلهم فاسيين منذ عهد قديم ، ويزاول الكثير منهم الحرفة خلفاً عن سلف[29] ، بينما يدخل الآخرون إلى الحرفة عن

---

(26) انظر ما سبق ، ص. 508 -517 .

(27) لقد جمعت في عين المكان المعلومات التي ستأتي ، وذلك خلال بحث قمت به في ربيع 1945 . انظر كذلك موليراس ، المرجع المذكور ، ص. 431 ؛ وأوبان ، المرجع المذكور ، ص. 328.

(28) كان ذلك الأمين ، في دولة مولاي عبد العزيز ، هو المعلم العباس الفاسي .

(29) تضم حالياً هذه الطائفة بعض الغرباء ، وكانت قديماً مخصصة للفاسيين وحدهم ؛ غير أن جميع المعلمين المشهورين ما زالوا ينتمون إلى المدينة الإدريسية ، وما زال الاستخدام الوراثي معمولاً به ولا يقبل الغرباء إلا بتركيات جدية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طريق العلاقات[30] .

كانت دكاكين الحلاقين مجتمعة خاصة في أحياء وسط المدينة ، حيث كانت المعاملات التجارية وحيث النشاط كثير ، كما كانت توجد في الشارعين الكبيرين بفاس الطالعة الكبيرة والطالعة الصغيرة . ولم يكن منها بعدوة الأندلس كلها سوى خمسة (واحد بالصفاح ، وأربعة بالنخالين) ، وهذا دليل آخر على نقص عدوة الأندلس بالنسبة لعدوة القرويين . وكانت عدة أحياء ، كسويقة ابن صافي ، والبليدة ، ورأس الجنان ، والمخفية ، خالية منها تماماً . كانت هذه الدكاكين مؤثثة فقط بمقاعد ، وقد علقت على جدرانها المواسي والمقصات[31] . وفيها كان يجتمع العاطلون ، بالرغم على ضيق المكان وفقره ، ليتبادلوا الأخبار والقيل والقال ، أو لقراءة جريدة من جرائد المشرق .

كان الحلاقون يعملون أيضاً في المنازل ، لأن فنهم لم يكن مقتصراً على حلق الشعر واللحية ، ولكنه كان يمتد أيضاً إلى عمليات أخرى متنوعة لا يستطيعون إنجازها في دكاكينهم . كانوا ، على غرار حلاقنا فيكّارو وأضرابه ، يضعون المحجمات ، ويشرطون ويفصدون[32] ، وينزعون الأسنان ،

---

(30) لقد أصبح أحَد مخبري حلاقاً في الظروف التالية : كان يذهب إلى الكتاب وهو ابن صانع . فاتفق يوماً أنه تشاجر مع شريف شاب وأشبعه ضرباً ؛ فكانت الفضيحة كبيرة إلى درجة أنه لم يتجرأ على العودة إلى المدرسة . فاقترح عليه حلاق صديق لأبيه أن يأتي عنده ليتعلم الحرفة ، وكان قد رآه مضجراً لا يلوي على شيء . فأحب المهنة ، وأخيراً خلف الذي أنعم عليه .

(31) فضلاً عن المواسي الست التي كان الحلاق يحتاج إليها لمزاولة حرفته ، كانت عنده قرابة عشرين يضعها رهن إشارة الزبناء الذين كانوا يستعيرونها منه للذهاب إلى الحمام .
لقد تغير جداً أثاث دكاكين الحلاقين، إذ أنه يتضمن الآن مرايا وأرائك على غرار الدكاكين الأوروبية التي توجد بها مجموعة من العطور المستوردة .

(32) كانوا يفصدون دوماً مرة في الربيع ، في القفا بالنسبة للرجال ، وفي الذراع بالنسبة للنساء والأطفال .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويعرفون بعض الأدوية التجريبية ، ويجيدون بعض العمليات الجراحية البسيطة ؛ كما كان البورجوازيون الأنيقون يستدعونهم ليلفوا لهم العمائم حول رؤوسهم أيام الأعياد ، وغالباً ما كانوا يلجؤون إليهم لذبح دجاج وليمة . وأخيراً كانوا المنظمين للأفراح والخاتنين[33] .

هكذا لم يكن الحلاق الفاسي مجرد حرفي مثل الآخرين ، ولكن بحق صديق متواضع للأسرة ، يُلجأ إليه في عدة مناسبات . وكان لا يأخذ في مقابل ذلك إلا أجرة تافهة . كان للزبناء الرسميين شبه اشتراك يؤدونه أسبوعياً أو شهرياً ولا يمثل شيئاً كثيراً . بل كان الحلاقون يعملون أحياناً مجاناً : إذا وقعت أسرة في ضيق وكانوا قد خدموها مدة طويلة رأوا ذلك واجباً عليهم ، ثم إنهم كانوا يعلمون أنهم سيقبضون أجرتهم إن عاجلاً أو آجلاً . لقد رأينا أن الأعراس كانت بالنسبة لهم نعمة غير متوقعة[34] ، وكان نفس الشيء بالنسبة لعمليات الختان ، وقص شعر الطفل لأول مرة ، والرجوع من الحج ؛ كانوا لا ينسونهم في الاستقبالات ، وتصلهم بعد الدراس حصتهم من الحبوب ، وكذلك بعد جني الزيتون ؛ وفي وقت أداء الزكاة كانوا يعدون من جملة أصحاب الصدقات .

كان الحلاقون يعرفون ، كالخاطبات ، فترة أقل نشاطاً في الشتاء ، لقلة الأفراح من جميع الأنواع في ذلك الفصل . وكان زبناؤهم الرئيسيون هم الفاسيون الموسرون كما هو الحال بالنسبة للخاطبات . ولم يكن يتم لهم الولوج إلى القصر أكثر منهن[35] : ذلك أنهم كانوا يُعتبرون فقراء ، فلا

---

(33) لم يكونوا يطالبونهم بإجلاس الضيوف والقيام بالخدمة فحسب ، ولكن يستشيرونهم مسبقاً فيما يشترون . فإذا أراد فاسي أن يستقبل جماعة كبيرة، استدعى حلاقه فبين له عدد الأكباش ، والدجاج ، والحمام ، التي لا بد أن تُشترى ، حسب عدد المدعوين ، والدرجة الاجتماعية للمضيف ، والرونق الذي أراد أن يعطي للحفل . ولو كان (هاربا كُون) فاسياً لاستشار حلاقه .

(34) انظر ما سبق ، ص. 517 .

(35) كان حلاقو السلطان ، الذين لا يعملون بالمدينة ، يؤخذون كلهم تقريباً من مكناس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يساهمون في « الهدية » المقدمة إلى العاهل من طرف مختلف الطبقات الاجتماعية للمدينة ، ولكن كانوا يأتون في هيئة كسائر الطوائف لتحية السلطان لدى دخوله الرسمي إلى المدينة .

كانوا ينظمون كل سنة ، في يوم أربعاء من فصل الخريف ، موسمهم الطائفي بضريح سيدي علي بوغالب[36] ولِيّهم . كان المعلمون الرئيسيون (المعلمين الكبار) يحددون تاريخ الموسم ويعلنونه بواسطة مناد عمومي ، ليتصلوا بأكثر عدد ممكن من الناس ، بما فيهم القرويون العابرون . وفي عشية الموسم مساء ، كان كل معلم يحمل طابقاً من إعداده أو مالاً لشراء ما يتطلبه الحفل ؛ وكانوا يستحضرون مغنين وأناساً قادرين على قراءة **دلائل الخيرات**[37] قراءة جيدة . كان أعضاء الطائفة يدخلون إذ ذاك إلى جناح الضريح المخصص للرجال ويقرؤون الدعوات التقليدية ؛ ثم يحتفلون مع ضيوفهم طوال الليل ، وفي الصباح الباكر ، من يوم الغد كانوا يقيمون بصحن الضريح ويختنون جميع الأطفال الذين يعرضون عليهم ، حتى منتصف النهار . لم يكن المعلمون يقبلون أي أجر ، بينما العمال والمتعلمون يرخص لهم باستلام هدية نقدية (حلاوة) . كان عدة مئات ، وأحياناً عدة آلاف من الأطفال يمرون بين أيديهم ذلك النهار . وكان عملهم ينتهي في آخر الصباح ، لكنهم كانوا يمكثون في عين المكان العشية كلها لمراقبة الجراح[38] .

---

(36) انظر عن هذا الولي ، الذي كان في حياته حلاقاً جراحاً ، سلوة الأنفاس ، جزء 2 ، ص 17 - 24 .

(37) هو مجموعة من الصلوات على النبي ، من تأليف الإمام الجزولي ، وعنوانه الكامل هو : دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار ، وانظر عن الجزولي محمد بن شنب ، مادة الجزولي ، في دائرة المعارف الإسلامية ، جزء 1 ، ص. 1062

(38) كما كان يحدث أن يستدعيهم إلى سيدي علي بو عالب أحد زبنائهم ، قدم إلى هناك للتمس من الولي شفاء خارقاً للعادة ، لأنهم كانوا يستطيعون أن يسهّلوا تحقيق الكرامه المنتظرة ، لكونهم الأبناء الروحيين للولي . وكان حلاق عجوز لذلك العهد مشهوراً خصوصاً بنجاح تشفعاته . وقد أخذ هذا الجانب من نشاط الحلاقين يتقلص مع تطور علم المداواة العصري . ورغماً عن ذلك فإنهم يحتفظون بقسط كبير من خصائصهم التقليدية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإذا كان الحلاقون يشبهون الخاطبات في كونهم يشاركون مثلهن في عدة حفلات عائلية، ويعدون كأجراء يؤدون خدمة معينة في مقابل مبلغ معين أقل منهم كأصدقاء من نوع خاص ، تربطهم بالأسر أواصر شخصية ، فإنهم كانوا مع ذلك بعيدين كل البعد من أن يباشروا تأثيراً بهذا القدر على المدينة ولعل مرد ذلك إلى أن التقاليد التي كان عليهم أن يحتفظوا بها كانت قليلة جداً ، ولأنهم لم يكونوا قط المحافظين ولا المحتفلين بشعيرة معقدة ، لكن ليس هذا سوى تعليل ثانوي . فالمهمّ ، في نظري ، هو أنهم لم يكونوا يعرفون حقاً الأسر ، لعدم مشاركتهم في الحياة النسوية التي لم يكونوا يطلعون عليها أكثر من سائر رجال الحي . في حين كانت الحياة العائلية ترتكز طبعاً على النساء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الخامس

الحَيَـاة العـائـلـيـة

لا يمكننا أن نتحدث عن حياة عائلية موحدة ، إذ كان لكل واحد من مختلف الأوساط الاجتماعية حياته الخاصة ، وكانت تقاليد خصوصية تتغير من أسرة إلى أخرى داخل نفس الوسط .

كانت نساء الشعب بحكم قوة الأشياء يعشن عيشة أكثر حرية من نساء البورجوازية ، لعدم وجود خدم عندهن ، واشتراكهن في غالب الأحيان مع عائلات أخرى في نفس المنزل . كما أن نساء التجار كن خاضعات لقواعد أقل صرامة من نساء الأسر العربية أو الشريفة أو المخزنية[1] . إلا أنه يمكننا أن نستخلص بعض القواعد الأساسية ، وهي بالتالي مشتركة بين جميع الأوساط المدنية بشمال إفريقيا ، قبل اتصالها بالحضارة الغربية .

كانت للأم ، قبل كل شيء ، المسؤولية التامة في تربية الأطفال من الجنسين ، ما داموا في صباهم ، وفي تربية البنات إلى أن يتزوجن ؛ تساعدها في ذلك قريباتها وجاراتها في الأوساط الشعبية، وقريباتها وإماؤها في الأوساط الموسرة . وكان الزوج لا يتدخل إطلاقاً ، ولا يلجأ إليه إلا في حالات استثنائية .

---

(1) انظر عن الحياة السوية بفاس ، أ.م. كْواشون ، المرأة البورجوازية المتوسطة الفاسية ؛ وج. ج. طارو ، المرجع المذكور ، (الفصل 9 ، النساء والحب) ؛ وعن الأوساط الشعبية، ف. بونجان ، المرجع المذكور ، هنا وهناك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن جهة أخرى ، كانت النساء يخرجن أقل ما يمكن ، إذ كان مجالهن هو المنزل . لا ينبغي أن يبالغ في هذا الاحتجاز الذي كان نسبياً ورسخ في العوائد حتى إنه لم تكن تتصور كيفية أخرى للحياة ؛ غير أنه من الأكيد أن النساء كن يقضين حقاً أياماً كاملة دون أن يخرجن من منزلهن ، وأنهن كن لا يخرجن وحدهن إلا نادراً في الأوساط البورجوازية على الأقل . كان كل ذلك يعطيهن انطباعاً غامضاً جداً لحرية يشتقن إليها ، أو إلّا أن يأخذنها أخذاً .

كان لنساء الشعب ما يشغلهن في المنزل ، إذ كان على عاتقهن العبء الكامل للأشغال المنزلية ؛ كما كن يقضين الوقت الباقي في غزل الصوف أو التطريز ، ليضفن الموارد الأخرى إلى ربح أزواجهن الهزيل . فكن لذلك منشغلات بجد على العموم . فبعد إعداد الغذاء ، والغسيل ، ومعالجة الأطفال ، والغزل أو التطريز بضع ساعات ، لم يكن يبقى لهن بعد ذلك وقت طويل للثرثرة في الصحن أو السطح .

وكان لنساء البورجوازية والأسر الكبيرة انشغالات من نوع آخر : كان وجود خادمات عديدات يعفيهن تقريباً من كل الاهتمامات المنزلية والعلاجات المادية للأطفال ، لكنهن كن يحتفظن في هذا المجال بدور المراقبة . وكانت لهن ، من جهة أخرى ، التزامات اجتماعية كثيرة وصارمة في هذا المجتمع المتمسك بالشكليات ، كالاجتماعات ، والزيارات ، والحفلات العائلية والإعداد للاستقبالات التي يُقيمها الزوج ، والاهتمامات بالزينة . كان بعضهن يتعاطين أعمال الخياطة في مقابل أجرة ، ولا سيما الطرز ، موفرات بذلك بعض الموارد الشخصية ، بكيفية خفيفة ، لأن مثل هذه الأعمال لم تكن تتلاءم ومرتبتهن الاجتماعية . وبعد الانتهاء من هذه الأشغال ، كانت تبقى أمامهن ساعات طوال من الفراغ يقضينها في المذاكرة بينهن في الدار ، وفى لعب الورق ، والتعاطي للموسيقى ، أو في السطح عند آخر النهار ، عندما تميل الشمس إلى الأفق ، وذلك هو الوقت الذي كان السطح محجوراً لهن .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد وصف عدد من الكتاب[2] المنظر الساحر لسطوح فاس في الأصيل ، وهي مليئة بنساء في ملابس متعددة الألوان ، تتناسق ظلالها الباهتة التي تلطفها « المنصورية » مع عذوبة العشي ، يتحدثن من دار إلى دار ، ويتسلقن أحياناً الجدران الصغيرة المنصوبة بين السطوح المتجاورة. ويقال في هذا الصدد إنه يمكن لمن يعرف جيداً سطوح فاس ، أن يقطع مسافات طويلة في المدينة دون أن ينزل إلى مستوى الأرض . وفي ليلة الأعياد ، تغطى جميع السطوح بحشود من النساء ـ الأزهار ، يراقبن ظهور هلال العيد[3] . وكثير من الرجال يشاهدون هم أيضاً الغروب اللامع ، متسلقين التلال المحيطة ، دون أن تفوتهم الفرصة لإلقاء نظرة عابرة على العديد من الحسناوات النائيات . ويتفق حتى أن بعض الخاطبين يتجهزون بمنظار ، وهم متلهفون لرؤ ية ملامح زوجتهم في المستقبل من قبل . تلك هي ساعة التسلية ، ساعة الحياة في الهواء الطلق وفي العشي الحلو.

كانت الفرص المتاحة للخروج متعددة نسبياً ، حتى بالنسبة لسيدات البورجوازية ، كقضاء مسائل شخصية ، إذ كانت النساء يتصرفن بحرية في ممتلكاتهن ، وزيارات عند القريبات أو الصديقات ، حيث كن يقضين عادة أياماً كثيرة ؛ وولائم أو حفلات عائلية ، وزيارات المقابر يوم الجمعة ، حيث كن يذهبن عادة مع الأولاد ويثرثرن وهن جالسات على القبور[4] ؛ وزيارات أضرحة الصالحين ، وخاصة زاوية مولاي إدريس[5] ، وضريح سيدي أبو جيدة يوم الأربعاء على بعد بضع مئات من الأمتار خارج الباب الذي يحمل نفس

---

(2) وخاصة لوتي ، المرجع المذكور ، ص. 192 -193 ، وتشارمز ، المرجع المذكور ص. 175 وما بعدها .

(3) انظر ما يأتي ، الكتاب 8 ، الفصل 2 ، ص. 588 .

(4) لقد اضمحلت هذه العادة منذ 1900 تقريباً ، إذ أن باشا فاس ارتأى ، بإيعاز من بعض الأزواج المتشككين ، أنها قد تشجع على الفحور .

(5) كانت هذه الزيارات أحياناً كوسيلة للنساء اللاتي كن يسأمن في الدار ويرغبن في القيام بجولة (محمد الفاسي وديرمينغم ، حكايات فاسية ، ص . 60) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأسم[6] ، والاغتسال في الحمامات .

هل كانت زيارات أضرحة الصالحين تظهر تقوى حقيقية ؟ لا يسعنا تأكيد ذلك ، لأن نساء فاس كن بصفة عامة متطيرات أكثر منهن متدينات ، مع اعتبار جميع الاستثناءات الفردية ، لقلة ثقافتهن عادة ، ولعدم تمكنهن من الاختلاط بالرجال في الحفلات العمومية . وهذا مانع خطير في دين تكتسي فيه أعمال الإيمان المشترك أهمية بهذا القدر . والحاصل أنهن كن بعيدات عن المذهب والشعائر ، بقوة الأشياء . كان الفرض الوحيد الذي يتشبثن به هو الصيام[7] : فكان أول صيام الطفلة مناسبة لحفل عائلي يقام يوم 26 رمضان ، عندما كانت تبلغ السابعة أو الثامنة من عمرها ؛ فكانت المدعوات يجتمعن في السطح ، عند صلاة العصر ، ويؤتى بالطفلة وهي في تمام الزينة ، فيشرعن في الغناء على إيقاع الطبلات ، إلى غروب الشمس ، ثم يدخلن إلى الدار فتفطر الطفلة في أبهة بشرب اللبن ، ويختتم النهار بحفلة عشاء . وفضلاً عن الصوم ، كانت بعض العجائز يذكرن اللّه بسبحاتهن . ولا تذهب هذه الأعمال إلى أبعد من ذلك .

كان نسك نساء فاس موجهاً بالأحرى إلى الصلحاء والجن ؛ إلى الصلحاء لكونهم شفعاء عند اللّه أقل منهم أشخاصاً ذوي طاقة خارقة للعادة وقادرين على مساعدة الناس حيث لا يكون مفعول للوسائل الطبيعية[8] ؛ وإلى

---

(6) لم يكن سيدي أبو جيدة فحسب ولي النساجين ، ولكن أيضاً حامي النساء : فكان الزوج الذي تؤثر عليه زوجته يسمى : « خدام سيدي أبو جيدة » . وقد تُركت هذه الزيارة سنة 1908 ، لعدم استقرار البادية ولو قريباً من الأبواب (مارتان ، الكدّان ، ص. 147) . ومنذئذ ، طفقت النساء يذهبن يوم الأربعاء إلى ضريح سيدي بو غالب ، حيث كن يستمعن إلى الروائيين وإلى التنبؤ بالمستقبل (ميشو- بلّير ، وصف فاس ، ص. 272).

(7) انظر أ. م. كُواشون ، المرجع المذكور ، ص. 9 .

(8) كان سيدي عبد الدائم يؤمن انقياد الأزواج ، وسيدي حنين الفاسي يهدىء صراخ الصبيان لدى فطامهم ، وسيدي المهدي يؤدب الأطفال العنيدين ، وسيدي البصري يقوي ذكاءهم ، وللاّ يدونة تشوقهم إلى العمل إلخ . . . ، أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 314 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجن بصفة خاصة حيث كن يعتبرنهم كمرافقين مستترين ، وكشبه سكان روحيين مختلطين كامل الاختلاط بالسكان العاديين ، قادرين على القيام بحيل خبيثة للإخوان الإنسيين أو على مساعدتهم ، حسبما كونهم على استعداد تام أم لا .

إن الأمر محتمل مع ذلك بالنسبة للجن ، إذ أن القرآن يعترف بوجودهم ؛ لكن نساء فاس كن يلجأن كذلك إلى السحر والعرافة ، فكن يتصلن من أجلهما بشرذمة يستغلون سذاجة العامة ، كطائفة كُناوة[9] وعرافي سوس[10] و (الشوافات)[11] وحتى أحبار اليهود الشيوخ[12] . كان هؤلاء وأولئك يبيعون لهن « حروزاً » ومسحوقات سحرية ورُقى ناجعة لتحقيق رغباتهن[13] .

---

(9) انظر ما يأتي ، الكتاب 8 ، الفصل 4 .

(10) انظر عن « الطالب السوسي » ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 6 ، ص 193 . كان السحرة ينتقلون من مدينة إلى مدينة ، وكانوا يستأجرون امرأة لتخبر العائلات بقدومهم. أ ـ م
كُوانشون ، المقال المذكور ، ص. 7 .

(11) كن زنجيات ، إماء قديمات مثل الخاطبات ، يوفقن على أي حال بين الإسلام وبعض شعائر الأرواح التي كن يحتفظن بذكراها . كن يعالجن الأمراض التي تسببها الجن ، ويتكهن بالمستقبل . وكن في اتصالات تجارية ـ إن صح التعبير ـ مع كُناوة الذين كن يوصين بتوسطهم في الحالات الخطيرة ، وكذلك مع بعض التجار الذين كانت بَضائعهم ناجعة ـ حسب قولهن ـ لتجنب هذا الداء أو ذاك . كانت أسر عديدة تضع فيهن ثقة مطلقة . وقد أدى تأثيرهن مضافاً إلى تأثير الخاطبات والإماء الخادمات ، إلى أن جميع نساء فاس تقريباً كن يمزجن كلامهن، في بعض الأحيان ، بعبارات مأخوذة من لغات إفريقية .

(12) محمد الفاسي وديرمينغم ، حكايات فاسية ، ص. 237 ، هامش 1 .

(13) نفس المرجع ، هنا وهناك . كانت بعض الآيات القرآنية تستعمل طبعاً كطلاسم،منها الآية 256 من السورة 2 (البقرة) ، والسورة 72 (الجن) والسورة 112 (الإخلاص) والسورة 113 (الفلق) . كان جل هذه العوائد يستعمل لغايات غرامية . كانت المخطوبات مثلاً يلجأن أحياناً إلى (عشاء الفال) حتى تكون لهن فكرة عن زوجهن في المستقبل . وكانت الفتاة ، عملاً بتعليمات « طالب » ، تلطخ الجانب الأيسر من وجهها باللون الأحمر والأسود ، وتعد طابقاً من الكسكسو بيدها اليسرى ، ثم تذهب إلى سبع حمامات ، وسبع طواحن ، وسبعة أفران للخبز ، وسبعة جداول للماء ، لتستدعي جن هذه الأماكن لتناول العشاء . وكان نساء=

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهكذا فإن العالم الذهني لنساء فاس ينبغي أن يعتبر مختلفاً بعض الاختلاف عن عالم الرجال : كانت تختلط فيه المعتقدات الجاهلية ، والخرافات التي جاء بها العبيد من إفريقيا السوداء ، وبعض طرق عزائم اليهود ، مع تقديس الصلحاء المسلمين ، ومع عوائد خارجة تماماً عن الإسلام . فسواء كن عجائز أم شابات ، غنيات أم فقيرات ، كان لجميعهن تصور مماثل تقريباً للعالم الذي كن يرين فيه العمل المستمر لقوات خفيفة .

* * *

كان لكل واحد من الزوج والزوجة وسيلتهما الخاصة في العيش وأفكارهما واعتقاداتهما . فلم تكن حياتهما المشتركة منظمة كحياتنا ، من جراء هذه الفوارق الهامة[14] . قد يكون من عدم التبصر المجازفة هنا ببيانات عامة ، إذ أن الطبائع ، وسن الزوجين والتقاليد العائلية ، كانت تُلوّن بدرجات كثيرة سلوكهما ، وكان للوضعية الاجتماعية طبعاً حصتها الوافرة في التأثير . إلاّ أنه يمكننا إعطاء بيانات صالحة في معظم الحالات .

كانت المرأة تشتغل بالحياة الداخلية للمنزل : المطبخ ، والأشغال المنزلية ، وغسل الملابس ، ومعالجات الأطفال ، كان ذلك ميدانها الخاص

= الدار يجتمعن ، يوم الخميس في منتصف الليل ، بباب المنزل ويتلون في الظلام عبارة الترحيب الموجهة إلى الزوار المستترين عن الأنظار . كان الكسكسو جاهزاً ، فيجلس الضيوف الغير الطبيعيين على المائدة. وبعد انتهاء الوقت المناسب للفراغ من تناول الطعام كان جميع الحضور يصعدون إلى السطح ، وهنالك توقد نيران ويقذف فيها « الطالب » باحتفال كبير، بشتى العقاقير باسم الفتاة التي تستشير الغيب . وكان يصف زوج المستقبل حسب الأشكال التي يكتسبها اللهيب (وكان من قبل قد أخذ عنه جميع المعلومات الضرورية)، فكان يستلم جائزة مهمة بعد انتهاء الحفل . (أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 314 ، نقله ل. هارّيس ، المرجع المذكور ، ص. 179 -180) . وكانوا أحياناً يناجون النجوم (أ ـ م. گواشين ، المقال المذكور ، ص. 8) .

(14) وهنا أيضاً بدأ احتكاك الحضارة الغربية يعطي أكله . يمكننا أن نذكر بعض الفاسيين الحديثي العهد بالزواج تبنوا منذ بضع سنوات ، عدداً معيناً من العوائد الأوروبية ، كالذهاب معاً إلى السينما ؛ لكن هذا التطور ما زال بطيئاً بسبب سلطة العادة الفاسية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذي لا يتدخل فيه الزوج إلا لتقديم انتقادات أو تهنئات ، لكن دون الدخول في التفاصيل . كانت للزوج اليد العليا على النفقات التي كان يراقبها عن كثب ، إذ هو الذي ينفق . كما كان يتكلف بالتموين والشراءات بصفة عامة ، لأن زوجته لم تكن تستطيع الخروج إلى الشارع باستمرار للاتصال بأصحاب الدكاكين ، ولأن الخادمات لم يكنَّ يوحين دائماً بالثقة الكافية لتكليفهن بمثل هذه المهام . وكان الزوج يقوم بدور المقتصد في عدة أسر ، وغالباً ما كان ذلك باتفاق تام مع زوجته ، يطلعها عما يقوم به لا بالنسبة للمنزل فحسب ، ولكن أيضاً بالنسبة لمسائله الخاصة ؛ ومع ذلك يبدو أنه بقدر ما يمكننا أن نأخذ فكرة عن أشياء دقيقة إلى هذا الحد ، أن وحدة النظريات والعمل القائمة في عدة منازل غربية كانت نادرة أكثر بفاس ، من جراء التكوين بالذات المغاير للرجل والمرأة .

وهنا يطرح مشكل سلوك الزوجين . فلأن يكون هناك أزواج تخونهم زوجاتهم ، ولأن تكون الأخبار الفاضحة تغذَّى بفاس بقدر ما تغذَّى في أنحاء أخرى من العالم ، لا أحد يستطيع أن ينازع في ذلك . سيقول المتفائلون إن المغامرات كانت أصعب وبالتالي أقل منها في أماكن أخرى ، وذلك بسبب مكوث النساء في المنزل المفروض عليهن بالعادة . وسيجيب المتشائمون بأن الاحتياطات لا تفيد في شيء وأن جاذبية الصعوبة تعوض ـ وزيادة ـ الحواجز الموضوعة في طريق العشاق . والشيء الوحيد الذي يمكننا أن نقوله ، هو أن المغامرات الشاذة ، وعلى الأقل في الظاهر ، كانت تحتل مكانة في هذا المجتمع الذي كان الجنسان يعيشان فيه منعزلين أكثر منها في المجتمعات الغربية .

* * *

لم تكن الحياة الزوجية سوى أحد مظاهر الحياة العائلية ، إذ كان من النادر ، لا سيما في الأوساط البورجوازية ، أن يعيش زوجان منعزلين ؛ فكان كل منزل يؤوي أسرة ، أي رب المنزل مع زوجته أو زوجاته ، وبناته غير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المتزوجات ، وكذلك أبناؤه مع نسائهم وأولادهم ؛ ويكمل الأسرة خدم أو عبيد ، بعدد متفاوت حسب اليسر .

كانت لرب المنزل مبدئياً سلطة مطلقة على أهل البيت كلهم . وفعلاً كان الكل يُكنُّ له كبير الاحترام ، ولكن ، في حالة ما إذا أراد أن يطغى ، كانت العادة تضع حداً لطغيانه . هذا ، وقد كان في غالب الأحيان ، يكتفي بدور المشرف على النفقات العائلية ، والحكم المحترم من أعضاء الجماعة ، إذ لم تكن المناقشات تنعدم ، لا سيما عند النساء .

إن هذه المجموعة البشرية الصغرى ، الخاضعة لسلطة شخص واحد خضوعاً تاماً والمقيمة في منزل واحد ، لم تكن تمثل مع ذلك التماسك الذي نتصوره بطبيعة الحال ، إذ كانت الفوضى كامنة وراء واجهة من النظام . ففي معظم الأسر الفرنسية ، مهما كانت الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها ، كان تناول الطعام مناسبة للاجتماع تكتسي طابعاً يوشك أن يكون مقدساً ، لا يطاق أي تأخير عنه . ولم تكن البورجوازية الفاسية نفسها تعرف هذه العادة ، وبالأحرى العمال[15] . كان الرجال ، في غالب الأحيان ، يتناولون الطعام في حجرة، والنساء والأطفال في حجرة أخرى، والخدم في حجرة ثالثة. مع أنه لم يكن من النادر أن يضطر الأبناء إلى الأكل جانباً إذا استدعى الأب ضيوفاً . ومن جهة أخرى ، كان كل واحد يأتي في الساعة التي تلائمه: فإما أنه كان يجلس للطعام عندما يكون الآخرون قد أكلوا نصفه ، وإما أنهم كانوا يقدمون له الطعام على حدة . وكان شاي المساء بعد العشاء « يجمع العائلة كلها ، وهو الوقت الوحيد للحياة العائلية الكاملة »[16] . وغالباً ما كان الشاي يطول في

---

(15) كانوا يتناولون ثلاث وجبات في اليوم ، بصفة عامة: الأولى بعد صلاة الصبح (وهي عبارة عن حساء في غالب الأحيان) ، والثانية بعد صلاة الظهر ، والثالثة بعد صلاة العشاء . كانت أهم وجبة عند البورجوازيين هي وجبة الغداء في الظهر. وكان العديد من الصناع، بالعكس من ذلك ، لا يتناولون إلا أكلة خفيفة في الظهر في مكان العمل ، ويتناولون وجبتهم الرئيسية في المساء . (انظر أوبين ، المرجع المذكور ، ص. 313) .

(16) نفس المرجع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سهرة تتناول فيها امرأة الكلمة أحياناً لتقص حكاية[17] ؛ فكانت تبدؤ ها في أبهة بعبارة شائعة تسترعي الانتباه وتخلق الجو الملائم[18] ، ثم تشرع في الحكاية التقليدية ، مثل الحكايات التي جمعها محمد الفاسي وديرمينغم في مجموعتها الشهيرة[19] .

كان يحدث طبعاً أن تكون الخلية العائلية مضطرة إلى التفكك ، عندما تتضخم الأسرة حتى لا تستطيع الدار أن تؤويها ، أو عندما كان أحد الأبناء المتزوجين يجد الفرصة ليتخذ له منزلاً خاصاً ، ولا سيما لدى وفاة رب الأسرة . عندئذ ، كان أحد الأبناء ، وهو البكر عادة ، يصبح رب المنزل ، فيذهب إخوانه المتزوجون ليسكنوا في مكان آخر .

---

(17) كانت بعض النساء معروفات في المدينة كلها بموهبتهن في الحكاية ، لكنهن لم يكن يستعملنها إلا ليلاً ، لأن العادة كانت تمنع أن تروى القصة في النهار ، تحت طائلة « أن يكون لهن أولاد قرع » ؛ ما عدا إذا استطعن بكيفية خارقة للعادة أن يعددن إحدى عشرة جائزة في السقف (محمد الفاسي وديرمينغم ، **حكايات فاسية** ، ص. 16) .

(18) ها هي العبارة شبه الشعائرية كما يذكرها محمد الفاسي وديرمينغم في **حكاياتهما الفاسية** : (إنني أحترم طريقة كتابة الكلمات التي استعملاها وكذا ترجمتها) : « كان حتى كان ، حتى كان الله في كل مكان ، ما تَخْوَى منه لا أرض ولا مكان ، حتى كان الحبق والسوسان ، في حجر النبي عليه الصلاة والسلام ، حتى كان ، إلخ . . » .

(19) **حكايات فاسية** ، **وحكايات فاسية جديدة** .

الفصل السادس
الموت

إذا حضر أحدَهم الموتُ حثوه على النطق بالشهادة ؛ وإذا اشتد النزع ، استدعوا طالباً لتلاوة بعض آي القرآن حتى يخفف الله ختام أوقات عبده . وفي نفس الوقت كان رجال الأسرة والأصدقاء يجتمعون في مسجد أو زاوية للدعاء لنفس الغاية[1] .

وبعد الموت مباشرة ، كان أحد أعضاء الأسرة يذهب لإخبار (الصحافة) المكلفين بالجنائز[2] . كانوا يحددون معهم ساعة الدفن ومكانه ، وذلك في أقرب وقت ممكن ، لا سيما في حالة مرض مُعدٍ . وكان من النادر ألاّ يوارَى ميت في قبره في ظرف أربع وعشرين ساعة . وكان أنسب الأوقات هو منتصف النهار عند صلاة الظهر وصلاة العصر ، ونادراً عند غروب الشمس .

---

(1) أ ـ م . ڤواشون ، المقال المذكور ، ص. 37 .

(2) كان أهل فاس وحدهم الذين يلجؤون إلى (الصحافين) . ففي فاس الجديد ، وقصبة فيلالة ، وأوساط المدينة التي ما زالت بعدُ شبه قروية ، بما فيها الفيلاليون وغيرهم ، كان رجال العائلة والأصدقاء هم الذين يدفنون الميت . لقد جمعت المعلومات التالية حول (الصحافين) أثناء تحرٍّ قمت به سنة 1945 ، لدى أمين الطائفة : انظر أيضاً ميشو ـ بلّير ، وصف فاس ، ص. 314 وما بعدها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان رئيس طائفة (الصحافة) يمكث باستمرار بباب سوق الحناء المفضي إلى سوق الفخارين ، وبمجرد ما كان يُخبر ، يعين اثنين أو ثلاثة من الصحافين وعدداً مماثلاً من الحفارين[3] من أجل الدفن . وفي هذه الأثناء ، كانت العائلة تشتغل بغسل الميت ، إما باستحضار الغسالين[4] أو بقيام أهل الدار بهذه المهمة .

وفي الوقت المعين ، كانوا يأتون من أحد المساجد المجاورة بمحمل الأموات[5] . وفي وسط صراخات الألم للنساء ، يتقدم بعض الأصدقاء لحمل الجثة إلى عتبة المنزل ، حيث كان (الصحافون) يتكلفون به ، فيحمله اثنان بينما يبقى الثالث مستعداً لينوب عن صاحبيه عندما يحسان بالتعب . وكان الرجال المؤلفون للموكب ، أثناء المسير ، يقرؤون في لحنين جماعيين عبارات دينية مثل : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، « ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

كان الموكب يتوجه مباشرة إلى المقبرة ، إذا تعلق الأمر بناس فقراء ؛

---

(3) كان (الصحافون) والحفارون ، حسب ميشو- بـلير (المترجم المذكور) يشكلون طائفة واحدة ، إلا أن معلوماتي في هذه النقطة لا تتطابق مع معلوماته . ففي 1945 على الأقل كان الحفارون يشكلون طائفة صغيرة مؤلفة من ستة معلمين بأمينهم الخاص ، لكنهم كانوا يعملون باتصال وثيق مع (الصحافين) . وكان لهم، مثلهم ، مقرهم بباب سوق الحناء ، حيث كانت أدواتهم مرتبة في حجرة صغيرة . ولم يكن الحفارون يقفون قديماً في سوق الحناء ، ولكن قرب سوق العشابين ، في زقاق حي فندق اليهودي الذي ما زال يحمل اسمهم (الحفارين) .

(4) كان عدد الغسالين نحو العشرة ولم تكن لهم طائفة . كانوا قوماً فقراء لا يكسبون عيشهم جيداً ، حسب المثل الفاسي الذي يقول : « الحفار لابد من إغنائه . والصحاف لابد من إعطائه ما يليق به ، والغسال تفاوض معه» . ولم يكن بالإمكان أن يُحمل إلى المدينة من كان يموت خارجها قبل الدفن : فكان يغسل في مكانين ، قرب باب محروق بجوار ضريح سيدي بلقاسم ، وفي مقبرة باب فتوح قرب ضريح سيدي درّاس بن إسماعيل .

(5) كان النعش (أو المكب) يعوض بالنسبة للنساء بتابوت يستعمل فقط لحمل الجثمان إلى المقبرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فإذا تعلق الأمر بشخص متدين أو هام ، كان الموكب يمر دائماً بمسجد تختاره الأسرة ، هو جامع القرويين أو جامع مولاي إدريس ، دائماً بالنسبة للجنائز الكبرى . كان الإمام بعد الصلاة العادية ، يدنو من النعش[6] ويقرأ دعاء خاصاً ، وكان هذا الاحتفال يدوم وقتاً قصيراً جداً .

ثم كان الموكب يستأنف سيره نحو المقبرة[7] متبعاً نفس الاحتفال كذي قبل . وكان القبر قد حفره الحفارون . كان إما مجرد حفرة مستطيلة قليلة العمق ، على عرض الجسم بالذات ، أو كانت أوسع من ذلك . فتملأ جوانبها بالآجر المعد لعمل البناء المتواضع على العموم الذي سيشيد فيما بعد[8] .

كانت الجثة توضع على حصير (سجادة) بجانب الحفرة ؛ ثم إن العميان الذين كانوا يستدعون بالمناسبة يرتلون سورة ياسين ، كما كان يحدث أن يأتي الفقهاء لقراءة الدعوات . وبعد انتهاء هذه الواجبات ، كان أحد (الصحافين) ينزل إلى القبر ليتسلم الجثة ، فيضع تحت رأسها الكفن المثني على شكل وسادة ، ويدير الوجه إلى اليمين . كان الذي يساعد (الصحاف) على وضع الجثة في القبر يتلو هذه الكلمات الشعائرية : « أنا وإيّاك في حماية النبي » . إذ ذاك ، وبينما الأقرباء يتقبلون تعازي الحاضرين ، كان أحد أعضاء الأسرة يدفع في عين المكان الأجرة (للصحافين) والحفارين ،

---

(6) كان يوضع تحت الثريا الكبرى بالقرويين وقرب القبة التي فيها ضريح مولاي إدريس . وقد أعد ، في الجوامع الهامة ، موضع خاص يسمى جامع الجنائز ، ولا يُحمل إليه الجثمان إلا عند خطر القذارة .

(7) ليس في المقابر العمومية (باب محروق وباب عجيسة خاصة) مصاريف لشراء الأرض . والأمر بخلاف ذلك في المقابر المحاذية للزوايا ، فلابد من دفع واجب شراء الأرض فيها . وكانت قيمة ذلك تتراوح بين 50 و 200 ريال في أوائل القرن العشرين . (ميشو بلّير ، وصف فاس ، ص. 315) . ومن جهة أخرى ، كانت كثير من الأسر البورجوازية لها مقابر خصوصية ، (روضة) على أرضية تملكها .

(8) في هذه الحالة كان يأتي الحفارون وعددهم ثلاثة : المعلم ، ومساعد وسقاء لبل الأسمنت . والبناء بمعنى الكلمة يقوم به البناؤون .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيذهبون فورا إلى حال سبيلهم[9] .

نلاحظ أن مراسم الجنازة تختلف جداً عن مراسم الولادة أو الزفاف . فلها طابع إسلامي محض . فالطفل الذي يولد ، والزوجان الملتحقان بالحياة الزوجية ، سوف يحسبون حسابهم في هذه الدنيا ، ليس فقط مع السلطة الإلهية ، ولكن مع السلطات الخفية التي تخالط حياة الإنس ، ومن هناك مراسم الولادة والزواج المعدة لاكتساب عطف الجن أو على الأقل حيادهم . أما المؤمن الذي يموت فلا يبقى له حساب إلا مع ربه . فلا تأثير للجن عليه ؛ لهذا فإن المراسم الدينية بمعنى الكلمة هي الوحيدة التي تصحب الجنائز .

وسيلاحظ كذلك كم تختلف هذه المراسم عن المراسم المسيحية : كل شيء يدعو المسيحي المشرف على الموت إلى أن يلقي نظرة أخيرة على حياته وأن يتوب من خطاياه ما دام الوقت باقياً . إن الجنائز المسيحية مطبوعة بعلامة الخوف ؛ وما الصلوات على الموتى سوى توسل طويل إلى الله ليرحم . أما الصلوات الإسلامية ، فهي بالعكس تشف بالهدوء والثقة : فما دام المؤمن قد نطق بالشهادة ، فلا حاجة إلى الخوف على سلامته ، لشدة ما يتغلب الإيمان على الأفعال .

كما أن شعائر الموتى لا تكتسي نفس الطابع كما هي عليه في البلاد المسيحية : فمن المعلوم أن المقابر ليست مُسَوَّرَة وبالإمكان التجول فيها بكامل الحرية . ليس من النادر بفاس أن يصادف فيها مجرد متجولين ، وحتى الدباغون ينشرون فيها جلودهم إذا كانت جدران المدابغ وسطوحها غير

---

(9) لم يكن هناك سعر محدد للصحافين ، ولم يكونوا يقبضون أجرة مبدئياً ، ولكن صدقة ، تماماً كالعُمي الذين كانوا يتلون القرآن العظيم . فكان إذن كل واحد يعطي حسب إمكانياته ؛ ولم يكن من النادر ، في الجنائز الكبرى ، أن يعطي الحاضرون صلة للصحافين ؛ كان المبلغ المتوسط ، حوالي 1940 من 10 إلى 15 ريال . ولم يكن الأداء دائماً بدون مناقشة . كانت جميع المبالغ التي يقبضها الصحافون تسلم إلى أمين الطائفة الذي كان يوزع في المساء حصيلة النهار على جميع أعضاء الطائفة بالتساوي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كافية[10] ؛ وكانت النساء قديماً يزرنها يوم الجمعة ، مع الأطفال والجواري ، ويتناولن فيها الشاي وهن يتحدثن . فلا شيء يُذكر بيوم الموتى وزياراتنا الحزينة لمقبرة أجدادنا . ليس هذا حكماً مسبقاً على المشاعر الكمينة في صميم الأفئدة ، لكنني أستطيع القول إن الموتى بفاس يحتلون مكانا أقل في فكر الأحياء مما هو عليه في فكرنا .

---

(10) هذا صحيح خاصة بالنسبة لمقابر باب الحمراء ، وسيدي علي مزالي وباب عجيسة .

الفصل السابع
التسليات

لفاس ، بالمغرب ، سمعة مدينة متقشفة : فالجدران القاتمة ، والأزقة الضيقة ، وثقل هواء مشبع في غالب الأحيان بالرطوبة ، كل ذلك يساعد على إعطاء هذا الانطباع للضيف العابر . ويشعر بذلك أيضاً[1] الفاسيون الذين سافروا وتمكنوا من القيام بالمقارنات ؛ لأنهم يحسون ، منذ طفولتهم ومهما كانت وضعيتهم ، بالعادة الاجتماعية تضغط عليهم ، وهي أطغى من جميع الأحكام المكتوبة ومن جميع القوانين . ليس معنى هذا أن التسليات كانت منعدمة فيها قبل الحماية[2] ، لكنها كانت خاضعة ، كغيرها « للقاعدة » ، القهرية . كانت متسمة بطابع المنتظر ، وطابع المماثل دائماً ، وطابع المنظم

---

(1) انظر روني ـ لوكلير ، المغرب الشمالي ، ص. 161 .

(2) لقد تكاثرت التسليات منذ قدوم الفرنسيين . إن أجهزة الراديو متعددة عند الخواص ، وهناك مقاهٍ أكثر عدداً يختلف إليها الناس أكثر من ذي قبل ، وعلى الأقل الشباب ، والكثير منها مجهز بمكبرات الأصوات المدوية . وتوجد بالمدينة « قاعتان للسينما » ، وأصبح البستان العمومي لبوجلود ومقهى المرينيين من قبيل العوائد ، يملك الكثير من الفاسيين الموسرين سيارتهم . وأخيراً ، بقطع النظر عن الملاح الذي كان موجوداً قبل الحماية ، فإن المدينة الجديدة تقدم لأهل فاس ، في أيام فراغهم ، مناسبات للتجول وتمنح عدة جمعيات رياضية للشباب المسلمين : مدرجات ، وملاعب للقوى ، ومسابح ، وملاعب لكرة المضرب ، الخ . . . فالملاهي أكثر عدداً وتنوعاً من ذي قبل . ورغم ذلك تبقى فاس مدينة متعجرفة ، بينما كانت مراكش لها دائماً سمعة البهجة حرة طليقة وقد احتفظت بذلك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مسبقاً الذي يمنع الشخص من التفتح تحت وقع الأمر المفاجئ .

التسليات اليومية : ـ لقد رأينا فيما سبق أن وتيرة الحياة الاقتصادية كانت بطيئة إلى حد ما : فلا شيء من الحركة المضطربة المتواصلة لكبريات مدن الغرب ، بل مجهود مقدر بحذر يترك للجميع ، أغنياء كانوا أم فقراء ، ساعات من الراحة اليومية . فإذا كانوا يستيقظون باكراً ، فإنهم كانوا يتوقفون عن العمل ابتداء من منتصف العشي ، فتبقى الأمسية حرة .

كانت العامة تختلف إلى بعض المقاهي التي كانت في نفس الوقت مكاناً لتدخين الكيف[3] ؛ وهي ضيقة ، مظلمة ، قذرة ، يديرها جزائريون[4] في غالب الأحيان ، وبعيدة عن أن تكون لها نفس الأهمية الاجتماعية التي لمقاهينا في الغرب ، ولا حتى لمقاهي المدن الإسلامية في الجزائر وتونس .

لهذا كان الناس المساكين يفضلون الذهاب ، إذا كان الجو جميلاً ، إلى بوجلود ، وباب فتوح أو باب عجيسة ، وهي الأبواب الثلاثة المسلوكة ، ليقفوا في حلقة بعض مسلي الجماهير ، أو حول مشعوذ ، أو عراف ، أو مرقص قردة أو حيات ، أو ممثل بالإيماء ، أو مسايف بالعصا ، وبخاصة حول قصاص . كان جل هؤلاء غرباء عن فاس يترددون من مدينة إلى مدينة لكسب معاشهم وهم في حالة فاقة . إلا أنه كان من بينهم بعض الفاسيين ، من

---

(3) كان استعمال « الكيف » (وهو مخدّر من القنب) كثير الانتشار بفاس في الأوساط الشعبية . انظر ل. هارّيس ، المرجع المذكور ، ص. 133 ؛ وش . دوفوكو ، المرجع المذكور ، ص. 34 ، هامش 2 . وقد يكون شارب « الكيف » أحد أشخاص الكوميديا الفاسية لو كُتبت : هو شخص معروف في المدينة مخبل وغريب الطبع . ويتناول هذا المخدر عدد كبير من الصناع ، وعندما شكلت وكالة التبغ ، أخذت تصنع « كيفاً » غير مؤذ لا يُرضي المتعودين عليه . لذا ، نشط تهريب « الكيف » جداً بين المنطقة الإسبانية وفاس .

(4) انظر ما سبق ، **سكان فاس** ، ص. 199 ؛ وليناريس ، **رسالة غير منشورة بتاريخ 25 ديسمبر 1894** : يشير ليناريس إلى أن الحكومة الشريفة ، بعدما أمرت بإغلاق المقاهي وأماكن تدخين (الكيف) لأسباب سياسية (كان ذلك بعد وفاة مولاي الحسن بقليل) احتج أصحاب المقاهي الجزائريون وأيّدهم نائب قنصل فرنسا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصناع أو قليلي الدخل ، يتحولون في المساء إلى مهرجين ، مضيفين هكذا شيئاً إلى أجرتهم الزهيدة ، دون أن يفوتهم السرور بأن يراهم الناس أو ينصتوا إليهم .

القصاصـــون : كان جل القصاصين (فـداوي . ج فداويـة أو فداوة)[5] يُعرفون باسم قصاصي الغزوات . كانوا ينشدون ، على إيقاع دف ، غزوات العرب في قديم الزمان . كان جل المستمعين (وعددهم نحـو الخمسين في الشتاء ، وحتى مائتين في الفصل الجميل) مطلعين على الحكايات ، فيصححون أخطاء الراوي أو يلقنونه إذا اتفق أن خانته ذاكرته ؛ لكنهم كانوا يشعرون بسرور كبير وهم يستمعون مرات متعددة إلى رواية الانـطلاقات على الأفـراس ، والمبارزات ، والخيـانات ، والإقـدامات ، متهدهدين أو متأثرين بالعبارات الرتيبة المتكررة دوماً[6] .

وكان القصاص الأكثر تفوقاً الذي يجمع حوله حفلاً حفيلاً هو قصاص باب عجيسة ، أبا إدريس الفداوي . كان يقوم كل يوم ، بين صلاة العصر والمغرب ، عند مخرج باب عجيسة على تلال المقبرة الصاعدة نحو قبور بني مرين[7] ؛ وفي ظل الأسوار الصهباء كان يروي يوماً بعد يوم قصة طويلة يعرف كيف يجعلها حية ، وأحياناً مؤثرة[8] . ومع ذلك فإن أبا إدريس ، وهو خراز

---

(5) انظر عن القصاصين ، ميشو- بلّير ، وصف فاس، ص. 272 . وفضلاً عن تجربتي الشخصية ، فقد استفدت كثيراً من المعلومات التي تفضل تلميذي القديم وصديقي ، السيد أحمد الصفريوي ، فزودني بها .

(6) لنتذكر عبارات الإلياذة أو المفاخرة ، أو أبسط منها ، الجمل الشائعة في خرافاتنا .

(7) كان أبا إدريس يحكي أثناء الفصول كلها . فإذا كان الطقس رديئاً ، انحاز كل من القصاص والمستمعين إلى الأسوار فتسير الحكاية سيرها رغماً عن الريح والبرد القارس والمطر .

(8) تروى في شأنه الحكاية الآتية : ذات مساء ، بعد غروب الشمس ، دخل أحد الصناع إلى منزله ، وبمجرد ما وصل إلى الباب صاح بزوجته في لهجة من الغم الشديد : « مات اليوم أعظم الرجال، قالت المرأة: «ومن هو يا ترى» وقد فوجئت بهذا النبأ ـ هو معروف» (وكان أحد الأبطال الذين يحكي أبا إدريس مغامرتهم المأسوية) . قالت : «معروف ؟ إنك تحكي علي حماقات » فأجاب « كيف ! ألا تهتمين بمعروف ؟ إنك طالق » فطلقها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حرفة ، لم يكن يعرف لا القراءة ولا الكتابة . كان قد استمع إلى حكايات رائعة فطفق يرويها بدوره بموهبة عجيبة ؛ حتى يقال إن شهرته قد بلغت إلى مولاي عبد العزيز الذي رغب في أن يستمع إليه وتستمع إليه نساء القصر (وقد همّ بأن يفقأ عينه من أجل ذلك) ؛ لكن ابا ادريس امتنع من مغادرة باب عجيسة للالتحاق بدار المخزن ، وتدخل الناس لدى العاهل ليتركه لأهل فاس .

كانت ذخيرته تشمل ثلاث قصص كبرى : قصة عنترة التي تدوم عاماً ، وقصة الإسماعيلية التي تدوم ستة أشهر ، وقصة سيف ذي اليزن ، وهي حكاية عجيبة على شاكلة ألف ليلة وليلة ، تدوم أربعة اشهر . وكان يدرج بين قصتين كبيرتين قصة قصيرة لا تستغرق أكثر من جلستين أوثلاث جلسات . وقبل نهاية العشية ، كان أحد المستمعين يجمع التبرعات ويسلمها إلى أبا إدريس[9] .

وكان أيضاً بإمكان الصناع والفقراء أن يتعاطوا لعبة الورق[10] ، وهم يتحدثون فيما بينهم ، أو أن يتجولوا في مسالك مدار فاس مع كناريهم المغرد[11] .

كانت تسليات البورجوازيين أكثر تنوعاً ، إذ كانوا يتعاطون لعبة الورق ، مثل الصناع ، كما يلعبون الشطرنج[12] أيضاً ، وذلك منذ قرون[13] ؛ بالإضافة

---

(9) مات أبا إدريس ، وخلفه صاحب مقهى في الهواء الطلق ، قد جمع شيئاً فشيئاً كل حكايات المعلم ، وهو يبيع القهوة للمستمعين ، لكنه لم يحصل على موهبته .

(10) يتعلق الأمر بالورق الإسباني . كانت الألعاب الأكثر استعمالاً ، والتي تسمى « الرندة » ، و « شكامبة » و « التريس » ، تطابق المعركة و « التعبيدة » والماتيل ، مع بعض التعقيدات الإضافية (أوبين ، المرجع المذكور ، ص. 331) .

(11) انظر أحمد الصفريوي ، كاناري عزور .

(12) يروي موليراس (المرجع المذكور ، ص. 460 -461) أنه لعب الشطرنج ، بفندق التطوانيين ، مع بائع ثياب غني يسمى محمد بن عبد القادر بنيس .

(13) يشير ليون الإفريقي (قسم 2 ، ص. 129) إلى لعبة الشطرنج بفاس . كان الفاسيون ماهرين فيها : ألم ينتصر أحد زملائي بالثانوية الإسلامية بفاس ، وهو مولاي أحمد الأشبيهي ، على =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى أنهم كانوا مولعين بالعلب الموسيقية والحاكيات ، منذ أن أرسلتها إليهم أوروبا[14] .

ألم تكن المذاكرة هي التسلية المرغوب فيها أكثر ؟ إن أهل فاس قوم يألفون ويحبون المحادثة في المساء مع الأصدقاء : كانت الجواري يُحضرن ما يلزم لصنع الشاي ، وكان ابن الدار ، إن وجد هناك ، يُهيؤه دون أن ينبس ببنت شفة ، بينما يتحدث أبوه بصوت خفي مع الصديق أو الأصدقاء الذين يستقبلهم ذلك اليوم ، كانت المحادثة تجري بدون رابط ، تختلط فيها الحالة السياسية ، والأخبار المحلية ، والنكات الساخرة ، والأخلاق ، والدين ، متقطعة بفترات صمت هادئة أو بصوت الحناجر وهي تحتسي الشاي الحار .

وكانت الاستدعاءات للغذاء أو العشاء[15] متكررة ، كانت توجه في الليلة السابقة أو حتى في الصباح ، لكن لا تُقدَّم إطلاقاً . كان الغذاء يشتمل على بعض الأطباق من اللحم بالخضر ، متفاوتة العدد حسب أهمية الاستقبال ، والكسكسو باللبن ، والفواكه ، والحلويات بالعسل ؛ وكانت الجواري يُدرن الطست قبل الأكل وبعده ، حتى ينظف كل واحد يديه وفمه . وكان الشاي يقدم إثر الطعام وتُدار مبخرة ليطيب كل واحد ثيابه . كان كل ذلك يتم وفق قواعد اللياقة ، وفي غاية الدقة والأدب .

هذه كلها مُتع في الداخل . أما متع الهواء الطلق ، فكانت أقل اجتذاباً

اللاعب الشهير إليخين ، الذي لم يتعرض إلى هذه الخيبة سوى مرتين أثناء جولته في المغرب ؟

(14) انظر موليراس، المرجع المذكور ، ص. 181 . كان للأنجليز الاحتكار التام تقريباً في بيع الحاكيات بفاس . وأدركوا فوراً أنهم سوف لا يبيعون منها إلا إذا استطاع الفاسيون أن يستمعوا إلى الموسيقى التي تروقهم . لذلك سجلوا في عين المكان أغنيات وألحانا جوقية ، فكانت النتيجة هي المنتظرة ، ولم يكن رضى النساء أقل من رضى الرجال .

(15) إنني أستعمل كلمة « عشاء » عمداً ، إذ كانوا يستدعون لا لتناول الطعام ، ولكن لقضاء الليل ، نظراً للصعوبة التي كانوا يجدونها في الالتحاق بمنازلهم ليلاً ، بسبب إغلاق أبواب الحي (انظر أوبين ، المرجع المذكور ، ص. 332)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لهؤلاء السكان الفاترين . إلا أن بعضهم ، ولا سيما الشبان ، كانوا يذهبون للصيد في ناحية واد فاس بعالية المدينة وسافلتها[16] ؛ وكان آخرون يمارسون المسايفة بالعصا ، والمصارعة ، وكان هنالك حتى موضع مخصص للاعبي الكرة[17] . وأخيراً فقد أشرنا فيما سبق[18] إلى جمعيات الرماية التي كانت موجودة بفاس . لم يذهب كل ذلك إلى بعد كبير ، لذلك لا يسعنا ذكر الافتنان بالرياضة[19] .

البغاء والحياة الغرامية :ـ كان البغاء نادر الظهور ، منعزلاً في الأحياء الفقيرة ، ويكاد يكون معيباً في المدينة التقية البورجوازية . ليس معنى هذا أن الفاسيين كانوا أعفَّ من غيرهم ، لكن احترامهم للياقات ، والسهولة التي كانوا يجدونها عند الإماء والمغنيات وبعض الأرامل أو المطلقات ، والسن الباكر الذي كانوا يتزوجون فيه ، وكراهيتهم للعفوية والسوقية ، كل ذلك كان يقصيهم عادة عن المومسات الحقيقيات .

كانت هؤلاء من نصيب القرويين العابرين ، والعمال الفصليين ، والجنود ، وعدد معين من الصناع . كن يعشن ، وهن أيضاً قرويات ، في الطابق الأول ببعض الفنادق ، بجوار الأبواب الرئيسية للمدينة[20] . كن يكترين

---

(16) نفس المرجع ، ص. 339 .

(17) توجد بسلوة الأنفاس (جزء 2 ، ص. 42 و 43) إشارة إلى ملعب الكرة برأس القليعة .

(18) انظر ما سبق ، الكتاب 4 ، الفصل 3 ص. 254 ؛ والكتاب 5 ، الفصل 3 ، ص. 364 .

(19) لقد تغيرت الأشياء كثيراً منذ إقامة الحماية . فأصبح الشباب الفاسي مولعاً أكثر فأكثر بالرياضات والحياة في الهواء الطلق ، وأخذ عدد الهواة يتزايد بدون انقطاع ، لاسيما منذ حوالي عشر سنوات ، في الكشفية من جهة ، وكرة القدم وكرة السلة والسباحة، وألعاب القوى ، في درجة أدنى ، في الميدان الرياضي بمعنى الكلمة .

(20) يذكر مارتان (الكدان ، ص. 625 ، وهنا وهناك) اثنين منها ، أحدها مباشرة قرب جامع الأندلس ، في طريق باب فتوح ، والآخر في أسفل درب اللمطي ، قرب قنطرة بين المدن . كان بعضها أيضاً قرب باب عجيسة ، كما كانت قصبة تامدرت وقصبة بوجلود مكانين للبغاء . وكذا بعض مناطق حي مولاي عبد الله بفاس الجديد الذي أصبح منذئذ الحي الرسمي للبغاء (ميطرودو لاموط ـ كابرون وطرينكًا ، المرجع المذكور ، ص . 27) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غرفتهن من صاحب الفندق الذي كان يطالب بإضافة دفع واجب قدره 0,25 بسيطة حسنية عن كل زائر . كان بواب الفندق يُستعمل كخادم ويوفر لهن ، مقابل مال ، الكؤوس والصينيات اللازمة لإقامة الشاي . كن مستقلات بعضهن عن بعض ، فلا شيء يشبه « ماخوراً » .

وكانت مومسات أخريات ، فاسيات في غالب الأحيان ، يعشن في دور خصوصية[21] . تكتري منازلهن عجائز يقمن بدور وسيطات وربات الماخور . وكان يحدث أن تذهب هؤلاء النساء إلى منزل الرجال في بعض « المصريات » الخفية .

كن جميعهن تحت مراقبة مقدم الحي الذي يعشن فيه ، وكان هذا الأخير يقتطع العشر للمومسات التابعات له كما أسلفنا[22] ؛ وإذا امتنعن من الأداء تعرضن للإزعاجات أولاً ، والى مضايقات خطيرة إذا أصررن على موقفهن .

كم كان عدد هؤلاء النساء ؟ لا تسمح أية علامة بإعطاء أدنى بيان عنه . والذي يبدو يقيناً ، هو أن عددهن كان ضعيفاً باعتبار عدد السكان . كم كان الفرق كبيراً مع بغاء مراكش المنتشر في كل مكان ، لإرضاء آلاف المتجولين الوافدين كل يوم من البادية على مدينة الجنوب الكبرى ! .

عندما كان البورجوازيون يريدون مغامرة غرامية ، وجهوا أنظارهم نحو المغنيات ، وهن النساء الوحيدات ، مع الخاطبات ، اللائي كان في استطاعتهم ان يروا وجوههن . كما كان في وسعهم أن يفكروا في الأرامل والمطلقات العديدات اللواتي كن يعشن وحدهن ، مشكلات ما يمكن أن يسمى « عالم الغانيات » بفاس . كان التصريح عادة مسبوقاً بإرسال قالب

---

(21) يشير مارتان، المرجع المذكور، إلى وجودها بزنقة الياسمينة، وزنقة الفواح، وقرب فندق العطار . وكانت هذه الدور طبعاً تحدث ضجة وتتسبب دورياً في احتجاجات الناس المستقيمين بالحي .

(22) انظر ما سبق ، الكتاب 4 ، الفصل 2 ، ص. 128 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سكر[23]؛ وإن لم يكن للراغب محلّ مناسب ، وجد بسهولة صديقاً مراعياً يُعيره حديقة أو مقصورة ملائمة للمغامرة يقضي فيها بضع ساعات : فإذا كانت المبادئ الأخلاقية صارمة ، فإن تطبيقها كان يترك المجال للتوفيقات[24]. وأخيراً كان العديد من الرجال ، وليسوا فقط من الطبقات الشعبية ، جريئين إلى درجة أنهم كانوا يقتربون من النساء في الزقاق عند الخروج من الحمام أو عند كل مناسبة أخرى ، فيعرضون عليهن اقتراحاتهم بدون مراوغات[25]؛ لأن الفاسيين ، وهم قوم عمليون ، لا يحبون ضياع الوقت في تغزل معقد فيتعرضون تواً إلى المهم ؛ لم يكونوا يدخلون دائماً على المسائل الغرامية التهذيب الذي كانوا يحسنون إدخاله على عدة مظاهر أخرى لحياتهم .

التسليات الغير العاديـــة : ـ وهناك تسليات أخرى خارجة عن العادة ، كان أكثرها جرياناً هو حقّاً الأفراحُ العائلية التي سبق أن أشرت إليها . كانت ثلاثة عناصر تعطيها القيمة : الأناقة ، والموسيقى ، والطبخ ؛ ويمكن أن تضاف إليها ، بالنسبة للمسنين ، المحادثة ، لأن اجتماعات الأسرة كانت تعطيهم فرصة أخرى للقاء من جديد وللمذاكرة .

سوف لا ألح على التزين ، كانت النساء أكثر اهتماماً به من الرجال ، كما هو الشأن في أماكن أخرى ، مع هذا الفارق وهو أنهن لم يكن يتزين إلا ليسترعين إعجاب النساء الأخريات ، لا ليرضين الرجال . ورغم ذلك ، فإن أناقة الرجولة لم تكن لفظة وهمية بفاس : كان التنسيق الجيد للعمامة ، ورقة المعطف وبياضه ، وشكل النعال ولونها ، كل ذلك يميز الذين يحسنون لباسهم الأنيق بالأخص . وكان في الطبقة الفقيرة بالنسبة للرجال والنساء على حد سواء ، ما يقابل « لباسنا ليوم الأحد » .

---

(23) لوتي ، المرجع المذكور ، ص. 195 .

(24) انظر ڤيير ، المرجع المذكور ، ص. 209 وما بعدها .

(25) انظر في هذا الصدد مشاهد عديدة نموذجية في الرواي الآنفة الذكر من تأليف ف. بونجان ، **اعترافات بنت الليل** .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموسيقـــى : ـ كان أهل فاس يحبـون الموسيقى حبـاً جماً ، وبالضبط موسيقاهم ، أي الموسيقى الأندلسية[26]. كانت وقفاً على أربعة أجواق أو خمسة تتألف من ستة موسيقيين على الأقل . كان رئيس الجوق مع واحد أو اثنين من أصحابه فقط لا يشتغلون إلا بالموسيقى ، أما الآخرون ، وهم صناع أو أصحاب دكاكين ، فكانوا يجدون فيها ملهاة تروقهم وفرصة لتحسين أرباحهم المعتادة . كان لكل جوق تقاليده الخاصة ، ومقاطعه المعروفة عند رئيس الجوق وحده في جميع تشعباتها . وكان المعلم الشيخ (وهكذا كان يسمى رئيس الجوق) لا يفشي سره إلاّ في آخر لحظة إلى مَن اختاره ليكون خلفاً له . كان الجوق الأكثر اعتباراً هو الذي يستطيع أن يعزف أكثر عدد من المقاطع . لقد شاخ هذا الفن الرفيع الملون الموروث عن إسبانيا المجاورة ، كعدة أشياء أخرى بفاس، وَبَلِي دون أن يتجدد. إن عدد مقاطعه تتناقص ببطء، وربما جودتها كذلك، فلم يبق سوى بقايا ما زالت ساحرة، لكنها بدون قوة[27] .

كانت العامة لا تحتقر الموسيقى الأندلسية ، ولكنها لا تستطيع إلا نادراً أن تسمح لنفسها ، على غير العادة ، بأن تستأجر جوقاً ، فكانت تلجأ في أغلب الأحيان إلى موسيقيي المواكب من الطبالين والغياطين[28] الذين كان

---

(26) انظر عن الموسيقى الأندلسية ، أ . شوطان ، **الموسيقى المغربية** ، ص. 107 -153 ؛ وأوبين ، المرجع المذكور ، ص. 343 -344 .

(27) حاولت مصلحة الفنون الأهلية ، التي أنشأها الماريشال ليوطي ، أن تحيـي هذا الفن المحتضر ، فأحدثت بفاس ، بإيعاز من منشطه م. پروسپير ريكار ، وبمساعدة الباحث في الموسيقى المجرب م . اليكسيس شوطان ، معهدا للموسيقى الأندلسية أدى خدمات كبرى ، موقفاً على الفور تقهقراً زاحفاً . إلا أن رؤساء الأجواق المسنين أظهروا تقاعساًوعدم كفاءة في التجديد . ومن المؤمل ، كلما زاد تأثير الشباب ، أن تستعيد الموسيقى الأندلسية بهاءها العتيق ، في شكل جديد . ولابد أيضاً من الإشارة إلى تأثير الموسيقى الشرقية التي يتذوقها الشباب الفاسي الآن جداً ، والتي تشهرها الأسطوانة ، والراديو ، والسينما الناطقة .

(28) انظر عن هؤلاء الموسيقيين ، ميشو ـ بلّير ، **وصف فاس** ، ص. 323؛ وأ .شوطان ، المرجع المذكور ، ص. 165 -168 . كما أن صديقي أحمد الصفريوي أفادني عنهم بمعلومات قيمة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فنهم أقل تهذيباً ، لكن نفسهم طويل لا ينفد ، فكانوا يحدثون الضجيج على الأقل وينجزون أحياناً ما هو أحسن[29] . كان أمينهم ، لأنهم كانوا يشكلون طائفة[30] ، يقيم بدكان في درب الكزولي ، بحي زقاق الرمان . كان يُبحث عنه هناك لاستخدام الموسيقيين .

كما كان هناك أشياخ[31] ينشدون قصائد من الملحون ويصحبونها بلحن يسمى « ڤريحة » (خلافاً للموسيقى الأندلسية المسماة « آلة »)[32]؛ كان منهم نحو خمسين بفاس ، لا يستطيع سوى بعضهم أن يكسبوا معاشهم من فنهم . وكان يوجد من بينهم كذلك ممثلون بالإيماء ومضحكون يقدرهم أهل فاس من جميع المستويات كل تقدير ، رغماً عن فكاهاتهم الإباحية أو من أجلها .

وأخيراً كانت بفاس مغنيات[33] أدركت بعضهن الشهرة . كن يشكلن طبقتين متميزتين : «المغنّيات» و« الشيخات »[34] . كانت الأوليات ، وهن

---

(29) أتذكر أني سمعت ، في إحدى ليالي رمضان الباردة ، عزفاً منفرداً صافياً كالبلور ومؤثراً جداً « لغياط » يعزف من أعلى صومعة . كان ذلك تعبيراً لروح قلقة ، ومحتدمة ، وآسفة ، ومجردة . كان فناناً بسيطاً ، ولكنه فنان بالتأكيد .

(30) وبمعنى أدق طائفة ثنائية ، لأنهم كانوا ينقسمون إلى مجموعتين ، إلى طبالي فاس ، وطبالي الجبل . كان الأولون ، وعددهم نحو العشرين ، ينتمون إلى المدينة ويقيمون عادة كل أيام الجمعة جلسة موسيقية في ضريح المولى إدريس ، وكان الآخرون ينقسمون إلى عدة مجموعات يدير كل واحدة منها شيخ ، حسب قبيلتهم الأصلية : كان هناك مجموعة بني حسن ، ومجموعة بني وليد ، ومجموعة التسول ، ومجموعة صنهاجة ، ومجموعة الحياينة . كان لكل واحدة لواؤها الخاص لا يُنشر إلا في مناسبات خاصة ، (كاقتبال الملك أو شخصية كبيرة ، أو موسم ولي) . كان هؤلاء جبالة لا يقيمون جلسة موسيقية في ضريح مولاي إدريس . ومن جهة أخرى كانت هذه المجموعة أو تلك تؤمن لنفسها خدمات راقص شاب . وسواء كانوا جبليين أم فاسيين ، فإن الطبالين كانوا يخصصون حصة كبيرة للارتجال .

(31) انظر عنهم ، أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 344 .

(32) انظر عن هذا النوع من الموسيقى ، أ . شوطان ، المرجع المذكور ، ص. 153 -165 .

(33) انظر عنهن أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 345 ، وڤيير ، المرجع المذكور ، ص. 206 وما بعدها . ومن جهة أخرى جمعت بعض المعلومات الإضافية لدى مغنية قديمة أصبحت خاطبة ، في ربيع 1945 .

(34) تجدر الإشارة إلى وجود « الحضارات » وهن مغنيات مسنات متخصصات في الأغاني الدينية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أكثر عدداً بكثير[35] المغنياتِ من الـدرجة الثانية ؛ كان تفوقهن ناتجاً عن فتنتهن على الأقل بقدر ما هو ناتج أكثر من صوتهن . كانت « الشيخات » يشكلن أربع جماعات أو خمس ، في كل واحدة ستة أشخـاص على الأقل[36] . وكانت قائمتهن ، وهي متنوعـة جداً ، تشتمـل على أغنيات أندلسية[37] ، وقصائد من الملحون ، وحتى أغنيات جزائرية . وكانت نجم الفرقة[38] تغني بانفراد ، على إيقاع دف صغير (داب) وتصفيق صاحباتها اللائي كن يستأنفن اللّازمة معاً[39] . كانت الشيخات يشاركن في عـدة احتفالات عائلية (زفاف ، وسابع يوم الولادة ، إعذار ، إلخ . . .)،وكن مطلوبات جداً من بورجوازية المدينة . كان رب المنزل ، يُهدي فوراً إلى زاوية مولاي إدريس ، وقد سبق له أن دفع لهن العربون ، ويجازيهن على خدماتهن بمبلغ قليل من المال ، وهو خمسة ريالات أو ستة ، لكنه كان يستضيفهن لمدة عدة أيام أحياناً ، وفي كل جلسة كان يتم جمع تبرعات من الضيـوف لفائدتهن . وأخيراً كانت العادة تقتضي ، عندما كن يرقصن ، أنهن يجثون أمام كل ضيف فيلصق على جبينهن قطعة نقدية ؛ فكانت المنافسة تساعدهن على تحصيل حتى 80 إلى 100 ريال في المساء الواحد ، لشدة ما كان شغف البورجوازيين الفاسيين[40] عظيماً بهنّ . ومن جهة أخرى كانت المغنيات

---

(35) كن يشكلن حوالي ثلاثين جماعة .

(36) كانت مجموعة الحاجة زينب التي غالباً ما كانت تشتغل عند السلطان ، تضم ست عشرة عازفة (متعلمات) .

(37) لقد أورد أوبان (المرجع المذكور) ترجمة أشهر هذه الأغنيات (وهي : يا أسمي التي تذكر بالفردوس المفقود . . .) .

(38) كانت أشهر المغنيات في بداية القرن العشرين هي خدوج السبتية ، والحاجة بريكة بنت ابن علال ، التي يورد أوبان حكايتها ، وكذا الحاجة زينب الأنفة الذكر .

(39) كان الكثير منهن لا يعرفن سوى اللازمات ؛ وكانت أخريات بالعكس يحفظن تدريجياً قائمة « المعلمة » .

(40) يقدر أوبان ، حسب ما استقاه من معلومات ، أن بريكة كانت تقبض من 3000 إلى 4000 ريال في السنة . كانت المبالغ المحصل عليها تقسم إلى قسمين ، كان النصف منها يؤول للمعلمة ، والنصف الثاني يقسم بين المتعلمات . ومع ذلك لم تكن المغنيات غنيات ، إذ كن مبذرات . تقول السنة السوء إنهن كنّ في الغالب ميالاتٍ إلى شرب الخمر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشهيرات يخترن زبناءهن ولا يذهبن إلا عند الأغنياء والمرموقين من الناس ؛ كن مطلوبات أحياناً حتى من مراكش ، بينما لم تكن أية مغنية غريبة لتقدم على أن يستمع إليها بفاس .

الطبخ :- لم تكن الاستقبالات بالتالي تجري بدون أكل فاخر . فإذا نظم أحد الأغنياء الفاسيين احتفالاً جميلاً بجوق ممتاز، لم يكن يستطيع أن يقدم لضيوفه أقل من غداء جيد . كانت الأسر العظمى تملك في المنزل خادمة طباخة ، ولكن في حالة احتفال كبير يستدعى إليه عدة مئات من الأشخاص ، كان لا بد من مدها بالمساعدة . فكانوا يلجؤون من أجل ذلك إلى خدم إضافيين (طباخ ، مُؤنثه طباخة)[41] وكانوا من الجنسين . كان الرجال قليلي العدد ، حوالي عشرة ، لكنهم كانوا يديرون الطائفة[42] ، وهي الطائفة الوحيدة المختلطة بفاس ، حسب علمي . كانت النساء كلهن زنجيات معتقات ، وعددهن نحو خمسين[43] ، كن يشتغلن تحت مسؤولية أمين الطائفة الذي لم يكن يتردد في توبيخهن وضربهن عند الاقتضاء . كن خرافيات للغاية ، لا يشعلن مواقدهن إطلاقاً قبل إحراق شيء من البخور الطيب (الجاوي ، والشب ، إلخ . .) ، ودون تلاوة بعض العبارات التعوذية . وكن يغنين أغنيات سودانية وهن يشتغلن في عملهن ، ولا ينقطعن عن الحديث والحكايات .

كانت المهمة الوحيدة للطباخين والطباخات هي تهيئ قائمة طعام معدة مسبقاً ، بتوابل معينة ؛ وكانوا في الغالب يأتون بأدواتهم . كان الرجال يؤجرون عيناً ، فيأخذون بعض الأطباق ويتسلمون كذلك قطعة أو قطعتين من

---

(41) جمعت المعلومات التالية ، خلال تَحَرٍّ شخصي ؛ ومن جملة من سألتهم أمين الطباخين ، الحاج محمد كُنون ، وهو يعمل الآن في فندق أهلي بقصبة بوجلود أنشئ حديثاً .

(42) كان أمين الطباخين يعين من طرف المخزن ، لأن طائفتهم بدون شك كانت كثيراً ما تستدعى لتعمل بالقصر حيث كانوا يحتاجون إلى قوم ثقات .

(43) حسب أمين الطائفة ، كان ظهير شريف يمنع النساء الحرات من مزاولة الحرفة ، لا لكون الأمر يتعلق بشغل من عمل الرق ، ولكن حتى لا يكون الطبخ من إنجاز نساء تكون لهن روابط بفاس ، وقد يغتنمن حرفتهن لبلوغ ثأرهن .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثياب[44]! وكان يحق للطباخات أن يأخذن سلب الدجاج فيبعنه ، وأجرة قليلة مناسبة للعمل المطلوب منهن . وكانت الحرفة مربحة في الصيف والخريف ، لكن ، نظراً لأن البطالة تكاد تكون شاملة في الشتاء ، كان لجميعهم ، رجالاً ونساءً ، حرفة أخرى[45] .

كانوا كلهم يعرفون التشكيلة العادية للأطعمة المستعملة بفاس ، لكن كل واحد منهم كان له طبقه المفضل الذي يحسنه بكيفية خاصة . وكان أكبر تنوع يسود طبعاً في القوائم ، حسب الوسط الاجتماعي للمضيف وأهمية الحفل : كان يسير من الطابق البسيط للحم الضأن المشوي باللوز ، المتبوع بالكسكسو بالدجاج ، إلى ولائم المخزن الفاخرة التي كان يُقدم فيها نحو عشرين طبقاً متتالية[46] .

ورغم أن هذا الطبخ مغاير لطبخنا وغريب عن ذوق الأوروبيين، فإنه مع ذلك لا يقل لذة ورقة، وإن كانت المقومات الأساسية قليلة العدد، وهي: الضأن ، والدجاج ، والحمام ، والكسكسو ، والدقيق ، واللوز ، والليمون الحامض ، وتوابل مختلفة ، والعسل ، والسمن ، والزيت ، والبيض ، واللبن ، والسمك نادراً ، وقليل من الخضر ، وقليل من الفواكه ، ولحم

---

(44) كانت الأشغال المنجزة لفائدة المخزن استثنائية . فكان الطباخون يقبضون جائزة نقدية ، قد حددها حتى مولاي حفيظ .

(45) كانت النساء يغزلن الصوف أو يغسلن الثياب في فصل الكساد .

(46) إليكم قائمة أطعمة قدمت في بلاط مولاي عبد العزيز : البسطيلة (فطيرة مورقة مصنوعة بالحمام) ـ تفاية (لحم الضأن المشوي المصنوع باللوز) ـ المروزية (لحم مشوي بالتوابل والعسل واللوز) ـ الدجاج المعمّر (دجاج محشو بالكسكسو أو الأرز مع الزبيب واللوز) ـ دجاج مشرمل (دجاج مقطع بالبصل والمعدنوس) ـ دجاج مفند (دجاج بالبيض) ـ قمامة (لحم مطبوخ جيداً بالبصل والعسل والتوابل) ـ الصويري (دجاج أو لحم ضأن بالزعفران) ـ كسكسو مدفون بالدجاج (كسكسو بالدجاج مع البصل والزعفران) ـ كسكسو مسوس (كسكسو بالسكر والقرفة) ـ الروز بوفلفل (أرز بالفلفل) ـ الروز المكوي (أرز مبخّر) والروز المحلبي (أرز باللبن) ـ والسفّة (سميد) ـ الحلاوي (وهي حلويات متنوعة) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطرائد المنعدم تقريباً . بهذا الزاد القليل ، كان الطباخون الفاسيون ، وهم ورثة تقاليد أندلسية حسب جميع الاحتمالات ، قد استطاعوا أن يشكلو قائمة من الأطباق متنوعة بقدر كاف ، وأن يحققوا تجانسات مدهشة للتوابل لكنها لذيذة ، وأن يشكلو فناً حقيقياً للطبخ كان أهل فاس يعتزون به عن جدارة ويعطي برهاناً آخر عن حضارتهم العتيدة[47] .

كانوا هكذا ينظمون استقبالات بمناسبة أهم أحداث الحياة العائلية أو الأعياد الدينية ؛ كما كانت هناك مجرد استقبالات حبية واستقبالات رسمية ، تقدمها خاصة الشخصيات المخزنية على شرف ضيف عابر ، أو سفير أوروبي ، مثلاً[48] . وحسب المجاملة الشرقية ، فإن المضيف لم يكن يساهم في الغذاء ، حتى يراقب حسن تنسيقه ويسهر على ألّا يفوت أحدَ ضيوفه شيء .

فأناقة اللباس وسحر الموسيقى ورقة الأكل الفاخر ، وتهذيب المجاملة ، كل ذلك كان يتضافر على أن يجعل من هذه الاجتماعات شيئاً متمماً ، ومرضياً للحواس والفكر معاً . وإننا لندرك مدى السرور الذي كان أهل فاس يجدونه في ذلك .

وفي الفصل الجميل الذي كان هو « فصل فاس » ، كثيراً ما كانوا يذهبون إلى البادية ليقضوا فيها النهار ، يتناولون الأكل ويتنزهون ، ذلك ما يسمى هناك « النزاهة »[49] . كانت بساتين المدينة ، داخل الأسوار أو عند

---

(47) لقد شرع بعض فرنسيي فاس في جمع أهم وصفات الطبخ الفاسي واستخلاص موجز طبخي منها . وفعلاً ، فإن مثل هذا الموضوع يستحق أن يخصص له مؤلّف ، يكون طبعاً مبنياً على تجربة طويلة .

(48) كان الوزراء ، في هذه الحالة ، يبدون غالباً اللياقة في أن يقدموا إلى ضيوفهم الرفاهيات المعتادة عندهم : كخوان ذي ارتفاع عادي ، وكراسي ، وسكاكين ، وملعقات ، وشوكات ، وقد يستعيرونها منهم لانعدامها بفاس ، (الكونت دوبويسوري ، المرجع المذكور ، ص. 65) .

(49) عادة « النزهة » قديمة بفاس : يشير إليها ليون الإفريقي (القسم 2 ، ص 111)، وكذا المؤلف=

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قدمها ، المسرح المعتاد لها[50] ، فيكلفون « زرزاية » بأن يحملوا إليها الحصر والزرابي واللحافات التي كانوا يضعونها في ظل أوراق الشجر . وفي وقت الأكل ، كان الخدم يأتون حاملين على رؤوسهم أطباقاً ما زالت حامية . وكان جوق من العازفين أو المغنيين يُستدعى أحياناً لتنشيط الاحتفال، فيقضون النهار في عفوية لطيفة . وإذا أبصروا صديقاً عابراً أو حتى غريباً يبدو عليه أن الفرح اجتذبه ، استدعوه عن طيب خاطر[51] .

الأعياد والحفلات العمومية : ـ وأخيراً كانت الأعياد الدينية والحفلات الرسمية تتيح لأهل فاس نوعاً أخيراً من التسلية . كانت المدينة كلها تساهم في الأولى بنفس الحماس الديني[52] ، ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للحفلات الرسمية . فالبورجوازيون لم يكونوا يتذوقون كثيراً هذه الأفراح المفروضة ، لأنها كانت أولاً تتطلب منهم ثمناً غالياً ، ولأنها كانت ثانياً تزعجهم في عوائدهم ، دون أن تحمل لهم أي تعويض .

كان تبوُّءُ سلطان جديد العرش ودخوله الرسمي إلى فاس ، ووقوع حدث سعيد في الأسرة الشريفة ، مناسبة حتماً لتقديم هدية إلى العاهل ؛ وكان الأعيان طبعاً يتحملون أثقل عبئها . فإذا أُعلن عن مجيء سفير أجنبي ، كان ذلك ينبئ عن « مؤونة »[53] قد تدوم طويلاً . وإذا كانت مجرد رسالة من

المجهول في تاريخ الدولة السعديه (ص. 30. وعلى باي (المرجع المذكور، ص. 194-195).
كانت النزهة في البادية التي استدعي إليها هذا الأخير .

(50) لقد اتسع كثيراً مجال « النزهة » ، منذ أن ساد الأمن وانتشر استعمال السيارة بين أهل فاس ، يذهبون الآن قصد التنزه إلى صفرو ، وعلى ضفتي سبو ، وفي سهل سايس ، أو حتى في الحبل جهة إيمورار كندر أو إفران . وقد أعطى الفرنسيون المثال .

(51) حدث لي نفس الشيء في أول إقامتي بفاس ، وكان ذلك في يوم رائع من شهر فبراير . كنت ذلك اليوم ضيفاً على فاسيين لم يعرفوني وقد تفضلوا باستدعائي إلى نزهتهم ، عندما لاحظوا أني أنظر ـ بدون تحفظ ـ إلى ما كان يجري في بستانهم .

(52) انظر ما سبق ، الكتاب 8 ، الفصل 2 .

(53) انظر عن هذه الكلمة ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 2 ، ص 170 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السلطان تخبر بانتصار على قبيلة متمردة ، كان من اللازم أن يعطلوا ، ويزينوا بالأعلام ويدفعوا الأجرة للاجواق في الأسواق الرئيسية ، ويقدموا هدية إلى رسول العاهل : ومن ثمة زيادة في نفقات ونقصان في الربح[54] . ومن جهة أخرى ، كان لا بد من الصعود إلى باب دكاكن ، وباب ساكُمة أو مشور باب بوجات ، في الغبار وسط الازدحام . ولم يكن جَمال المشهد ليعوض دائماً هذه المضايقات .

أما سوقة فاس الجديد والتصبات والأحياء الدائرية ، فكانوا على العكس من ذلك يحبون كثيراً هذه التسليات المجانية ، ويزدحمون عند مرور العاهل أو الأسرى الذين تأتي بهم « المحلة » الشريفة ، ويحضرون أفواجاً تظاهرات الطوائف الصوفية[55] ، أو عقوبات اللصوص والثوار[56] . وكان هؤلاء السوقة ، وهم هادئون عادة ، يصابون في مثل هذه الأوقات بهياج جماعي قد يؤدي بهم إلى ارتكاب أبشع العنف[57] . كانت الأنظار تلمع بوميض تائه ، والصدور تلهث ، والمشية تسرع ، وكان صراخ أول من تثور أعصابهم يحفز الآخرين ؛ ولم تكن النساء أقل تحمساً ، وإن كن يقفن في المؤخرة بعض الشيء . فكان إذ ذاك هذا الجمهور الجاهل كأنه رفعه موج من الهمجية ، آتٍ من أعماق التاريخ ، وقت أن كانت الوحوش تمرح في شِعْب إدريس(*) .

وفي نهاية مطاف هذه النظرة الإجمالية عن الحياة الاجتماعية لمسلمي

---

(54) انظر الرسالة المؤرخة في 33 مارس 1898 ، التي يذكر فيها نائب قنصل فرنسا أن مولاي عبد العزيز يخبر سكان فاس بالانتصار الذي أحرزه على قبائل الشاوية الثائرة ، وذلك يترتب عنه حتماً البطالة والمسرات ، تحت طائلة الغرامة وحتى السجن .

(55) انظر ما سبق ، الكتاب 8 ، الفصل 4 .

(56) انظر عند لوكَلي (موت الروكي ، ص203 -205) رواية النكال بأصحاب بو حمارة .

(57) هكذا تفسر الاحداث الدامية لابريل 1912 .

(*) لقد أخرجت ذكرى « أيام فاس الدامية » المؤلف عن تظاهره بالاعتدال فراح يتفنن في شتم مواطنينا بما ينبيء عن كامن الحقد والاحتقار. (مترجم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فاس ينبغي أن نجمع هذا المقدار من البيانات المتفرقة ونحاول تمييز الظاهرة في عموميتها الكاملة .

فأول علامة تعريفية ، تفرض نفسها بادئ ذي بدء وتبرز معززة من التحليل ، هي وجود عادة قوية كانت تنظم تقريباً جميع أعمال الحياة الاجتماعية . ليست هذه ظاهرة شاذة في بلد إسلامي ، ولكنها كانت تتجلى هنا بحدة غريبة[58] . كانت هذه العادة تتحكم في جميع أعمال الحياة الفردية ، وجميع العلاقات الاجتماعية ، وذلك منذ قرون . وفعلاً ، إذا تعذر القول ، عند انعدام الوثائق ، في أي عهد يمكن اعتبار هذه العادة قد نشأت ، فلنا اليقين في أنها كانت سائدة بكامل قواها في أوائل القرن السادس عشر ، عندما كان ليون الإفريقي يعيش بفاس . فالوصف الذي خلفه لنا عنها يمكن أن يطبق ، نقطة نقطة تقريباً ، على فاس في بداية القرن العشرين . والفارق الوحيد الهام ، هو أن الخلاعة كانت أكثر انتشاراً في وضح النهار على عهد الوطاسيين : كان الأشرار الذين يحدثنا عنهم ليون[59] يشكلون عصابة حقيقية معترفاً بها رسمياً تقريباً ، إذ كانوا يستفيدون من وضعية عسكرية خاصة ، وكانت الخمر تباع جهاراً[60] . إن الإصلاح الديني الذي كان سيفضي بعد سنوات قليلة من مجيء الدولتين الشريفتين لم يكن قد أعطى أكله بعد ، ولم يكن قد أرغم الفسقة على التستر . ولكن فيما عدا ذلك ، سواء تعلق الأمر بحفلات الزفاف أو الإعذار أو الأطعمة ، أو الاعتقادات الخرافية ، والمغنيين ، والمهرجين ، أو النزهات في البادية ، فكل ما يرويه ليون يمكن أن يقال أيضاً في دولة مولاي حفيظ .

كانت هذه « القاعدة » موجبة ومدققة خاصة في الأوساط البورجوازية ،

---

(58) إن عادة سلا وحدها ، في المغرب ، هي التي يمكن مقارنتها بعادة فاس ، وربما تجاوزتها شدة في بعض النقط . وفي تونس ، لا بد من الذهاب إلى صفاقس للعثور على شيء مماثل .

(59) القسم 2 ، ص 84 -87 .

(60) القسم 2 ، ص 109

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكنها كانت تمتد أيضاً إلى العائلات الأكثر تواضعاً ، ولو بأقل حدة : كان الغرباء المقيمون بفاس يتركون شيئاً فشيئاً عوائدهم القديمة ليتكيفوا مع العادة الفاسية ؛ وحتى المارّون بها ، كالحمالين البربر ، كانوا يخضعون إلى عدد معين من الأحكام القرنية ، بمجرد ما كانوا يصلون إلى المدينة الإدريسية . وباختصار ، إن الشخصية الفاسية كانت قد اكتسبت ، على مر القرون ، قدراً من القوة ، وقدراً من المتانة ، إلى درجة أنها أصبحت منيعة على المستوردات الخارجية[61] .

إن قاعدة اجتماعية بهذا المقدار من الدقة مطبوعة حتماً بالشكلية . فيكفي ، في عدة حالات ، أن تكون المظاهر سليمة حتى يكون جميع الناس مسرورين ، ما عدا « أَلْسِيسْت » (المتشائم) المولع بالمطلق . ومن ثم جاء النمو الحتمي للنفاق : فليس من الصدفة أو النزوة الفردية إذا كانت ترجمة « تارتوف » (المنافق) لم يمكن تمثيلها بفاس[62] . كانت هذه الرواية تكشف عورة عدد مفرط من البورجوازيين حتى إنهم لا يمكنهم إلّا أن يؤيدوا منعها ، وعلى الأقل في صميم أفئدتهم . ولا يتعلق الأمر هنا فقط بالنفاق الديني ، ولكن بكل أنواع النفاق . وما الحكاية التي أوردتها بصدد الربا[63] إلا دليل عن ذلك . وهي الانتقام الوحيد للأفراد تجاه واجب اجتماعي ضاغط بإفراط ، لأن نموذج الثائر المتمرد ، الكثير الوجود في المجتمعات الغربية ، كان منعدماً بفاس . كان الشواذ الوحيدون المسموح لهم هم المتوهمون المعتدلون الذين جعل منهم الرأي الشعبي أولياء ، وأحياناً أثناء حياتهم[63] . أما الباقون فلم

---

(61) كان لا بد من نحو عشرين سنة من الحماية حتى يبدأ التأثير الغربي يُحَسُّ به جلياً بفاس ، ومع ذلك فإن التعييرات الأولى لم تمس سوى عوائد سطحية .

(62) ترجم قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس هذه المسرحية سنة 1928 ، وكانوا يتهيئون لتمثيلها بلباس مغربي ، فإذا بتدخلات فاسية قوية جداً حملت السلطة الفرنسية على منع هذا التمثيل . ولم يقع حتى الآن

(63) انظر ما سبق ، الكتاب 5 ، الفصل 6 ، ص 448 .

(64) يوجد وصف هؤلاء الأشخاص « على الهامش » في جميع مجموعات المناقب . وتتضمن **سلوة الانفاس** العديد منهم . ويمكن حتى أن يشاهد في كتاب الكونت دوبويسوري الآنف الذكر صورة امرأة وسط كانت تتجول في الأزقة دون أن تحدث أية فضيحة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تكن لهم سوى وسيلة للتخلص من القاعدة الاجتماعية ، ألا وهي الانصراف . لكن النفاق كان هناك ليحجب النقائص الفردية ، منقذاً في نفس الوقت تماسك الهيكل الاجتماعي .

وهناك علامة أُخرى مميزة هي أن المحافظين على هذه العادة لم يكونوا دائماً من سكان المدينة ، كما قد يُظن ذلك ، ولكنهم أحياناً غرباء ، مثل معلمي الكتاتيب الجبليين الذين كانت أفضل أُسر المدينة تسلّم إليهم أبناءها ؛ أو حتى إماء قديمات ، مثل الطباخات والخاطبات . فكأنَّ أهل فاس كانوا يخشون أن يسهروا بأنفسهم على حسن تنسيق أخلاقهم ويفضلون أن يستأجروا على ذلك مرتزقة هم أقل ميولاً إلى المجاملات . وعلى كل حال ، فإن هؤلاء الغرباء قد أصبحوا ضروريين . فلْنفكر فيما عسى أن يكون لا مصير الاقتصاد فحسب ، ولكن أيضاً مصير الحياة الاجتماعية بفاس ، في حالة ما إذا اقتضى تقلب القدر أن تغادر جميع طوائف الأجانب المدينة : فمن يا ترى يخبز ؟ وكيف يتم الزواج ؟ ومن يحسن تلقين القرآن للأطفال ؟ .

كما يلاحظ أن تماسك أهل فاس لم يكن يبعد الحواجز العازلة . لا يمكن التحدث عن المعارضة ، كما هو الشأن في المجتمعات الغربية ، وعن صراع الطبقات ؛ لكن يجب أن نقتنع بأن سهولة وألفة العلاقات بين الصانع والتاجر الغني ، كانتا تسيران جنباً إلى جنب مع أخلاق متباينة تماماً ، فالليلقات كانت تختلف جداً من وسط إلى آخر . وكان للناس المساكين ، كما هو الشأن في كل مكان ، مجاملات أقل تعقداً من مجاملات الأرستوقراطيين ، لأن التهذيب كان قد عودهم أقل على تمالك أنفسهم . وكانت ردود فعلهم أكثر عفوية ، وانقيادهم إلى الحركة الجماعية أكثر سهولة .

وكان التناقض كبيراً أيضاً ، في كل طبقة اجتماعية ، بين حياة الذكور وحياة الإناث ، ويتفاقم ذلك كلما وقع الاقتراب من الطبقات المسيرة .

فالرجال ، والنساء ، والعلماء ، وأصحاب المخزن ، والتجار ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأصحاب الدكاكين ، والصناع ، والعمال اليدويون ، والعمال الفصليون ، كل ذلك كان يمثل جماعات تسلك سلوكاً حسب آداب خصوصية ، في وسط التجانس الفاسي .

ومن جهة أخرى ، يندهش المرء عندما يلاحظ أن هذه المدينة ، التي هي وليدة الإسلام ومؤلفة في الأصل من عناصر اعتنقت الإسلام منذ قديم ، بقيت متشبثة بعوائد وشعائر جاهلية أو شبه إسلامية : فالاعتقاد في الجن ، والعفاريت ، والسحر ، والشعوذة ، أصبح جزءاً لا يتجزأ من حياة فاس ، يقع العثور عليه في كل لحظة ، سواء تعلق الأمر بالحب ، أو الأطفال أو الطبخ أو معالجة النظافة . هل كان ذلك بقية رصيد بربري عتيق متجدد على الدوام ؟ أم هو تأثير العبيد السود ؟ كلها تفسيرات صالحة ، لكنه يمكن أن يُرى فيها كذلك بكيفية أعم الموقفُ المعتاد للبشر أمام رموز الحياة وشكوكها ، ذلك الموقف الذي يصبغه الدين والأخلاق بشتى الألوان ، ولكنه يثبت دائماً في أفئدة الناس . ومن هذا الجانب ، فإن فاساً إنسانية لا غير .

وأخيراً فإن عامة النسق اللوني رمادي سوداوي ، فالمرح ، واللامبالاة ، والنزوة ليست من القسمات الفاسية ، لأن القاعدة الصارمة لا تساعد على العفوية ، إنها تلبس الناس لباساً موحداً وتجعلهم ينتبهون دائماً إلى أدنى حركاتهم . يعيشون في فاس محترسين بدون انقطاع ، قلقين من أنفسهم . هناك مدن أخرى مقنَّعة بهذا القناع من التحفظ أو التحسب ، كلْيُون بفرنسا ، وعدة مدن في الشمال يُكسبها ذلك حسن الهيئة ، ولكن يسلُبها الفتنة ، لأنها أماكنُ لا يضحكون فيها إلاَّ إذا كان من اللائق أن يضحكوا ، ولا يبكون فيها إلاَّ إذا كان من اللائق أن يبكوا . وعلى التمادي فإن تحفظاً بهذا القدر يُتعب ؛ لا يُخفي العديد من أهل فاس أنهم يملون أحياناً حاضرتهم : فمن يستطيع منهم مغادرتها غادروها لوقت ما ، يذهبون ليتفتحوا في مكان آخر ، ولكنهم ولو أقاموا بعيداً عنها ، فإنهم يتركون أفئدتهم بفاس الرمادية ، المُجبرة ، اللائقة ، وينتهي جلّهم بالعودة إليها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثامن

عوائد الملاّح

إطار الحياة الاجتماعية : ـ لما كان يهود فاس منطوين على أنفسهم، مالكين شخصياً جزءاً من حياتهم الاقتصادية ، متشبثين كثيراً بدينهم ، فمن البديهي أن تكون لهم مؤسسات اجتماعية خاصة .

كانت بيئة الحياة الاجتماعية مختلفة إلى حد مّا مع بيئة الفاسيين المسلمين ؛ وكانت المنازل أحياناً مشيدة حسب نفس التصميم العام للمدينة ، أي فناء محاط بحجرات مستطيلة في ثلاثة جوانب على الأقل، ولكن نظراً لضيق المكان الذي فيه اليهود ، كان حجم الأفنية أصغر ، والحجرات أضيق ؛ على أن كثيراً من الدور كانت تبتعد عن هذا التصميم النموذجي : فالعديد منها ينقصها الفناء لربح حجرة أو حجرتين، ولم يكن من النادر وجود دُور ذات شُقق . وعلاوة على ذلك ، وهذا فارق هام ، كانت في الجدران نوافذ مفتوحة على الخارج وذات شبابيك بصفة عامة . وهكذا لم يكن الملاح يعرف الألفة الغيورة التي للمنازل الإسلامية . وأخيراً كانت جدران الدور الخارجية مبرقشة بألوان براقة ، كالأزرق ، والأصفر ، والوردي، والأحمر القاني ، التي كانت تشكل مفارقة مع الرتابة القاتمة لجدران المدينة .

كما كان اللباس موحياً هو الآخر . فزيُّ الرجال[1] مفروض عليهم

(1) انظر عن زي الرجال ، برونو ومالكة ، نفس المرجع ، ص. 239-241 ، هامش 3 و 4 و 5 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالعادة الإسلامية[2] : أي طاقية سوداء جاثمة على القفا[3] ، ومعطف أسود ، ورجلان في نعال بدون جوارب . كانت مختلف أجزاء اللباس وتفصيلها تُذَكِّر عن قرب بالأزياء الإسلامية[4] ، لكن زينة النساء كانت من نوع آخر ؛ فكن يخرجن سافرات الوجوه ، مغطيات شعرهن بمنديل ذي أهداب « معقود في شبه تاج شبيه بحنطوز المسلمات ، مع شبكة لإمساك الشعر »[5] . وكان خمار ذو أهداب أيضاً يغطي أكتافهن ، ويلبسن قميصاً يغطي القسم الأعلى من جسمهن وإزاراً يغطي القسم الأسفل ، وينتعلن خفافاً عريضة في الأعلى أضيق من نعال المسلمات . وكن يرتدين داخل المنزل فستانات ذات ألوان براقة « مزينة بشرائط ومطرزة بالذهب ، وسترات من الجوخ مزينة كذلك بشرائط من ذهب ، وواقيات الصدر مطرزة ، وحزامات من الحرير »[6] وربما وجب البحث عن أصل هذا الزي في إسبانيا ؛ وعلى كل حال ، فإننا نرى أنه لم يتأثر البتة بزي النساء المسلمات ، ويمثل تشابهاً مع الزي النسوي لأوروبا .

كان الأثاث أيضاً يشهد بذوق يهود فاس ، وعلى الأقل أغناهم ، في حب التجديد . وإليكم وصف أندري شفْريون لداخل منزل زاره بالملاح :

---

(2) لا نعرف بالضبط في أي عهد فُرض اللون الأسود على اليهود ؛ إن العادة الشعبية للملاح تعزو المسؤولية إلى مولاي اليزيد أواخر القرن الثامن عشر (برونو ومالكة ، نفس المرجع ،ص 199) . هذه علامة ولكنها ليست حجة قاطعة .

(3) أو بالنسبة لبعض الشيوخ ، منديل أزرق قاتم بنقط بيضاء (انظر أوبان ، نفس المرجع ، ص 365) .

(4) كان الرجال مهملين غالباً في أزيائهم ولو كانوا أغنياء ، ويرتدي جلهم الآن اللباس الأوروبي

(5) برونو ومالكة ، نفس المرجع ، ص. 316 ، هامش 10 ؛ وأوبان ، نفس المرجع ص 362 ؛ ودو أميسيس ، نفس المرجع ، ص 274 وفي الحالة الراهنة يضع الكثير منهم على رؤوسهم قبعات أوروبية ، وآخرون مناديل من الحرير زاهية الألوان ، موضوعة فقط على الشعر . وأما زينة الرأس التي يصفها أوبان ، فإنها لم تشاهد البتة ، ما عدا بالنسبة لبعض العجائز .

(6) انظر دو أميسيس ، نفس المرجع ، ص. 236 و 274 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« نحن الآن في غرفة الشرف ، بالطابق الثاني ، جالسون باحتفال على كراسي وأرائك مزخرفة من طراز العهد الأمبراطوري الثاني ، . . . ومناضد صغيرة متلوية ، وعدد وافر من المرايا في أطر من الذهب الأمريكي ، وصوانات من خشب أصفر ، كل هذا الأثاث حُمل من الشاطئ على ظهور الجمال . ثم علامات الدين : مصورات ملونة ألمانية ، يلمع فيها داوود وسليمان متوجين ، وكتابات عبرية بحروف مربَّعة . . . ولكن الأكثر غرابة من هذا الخليط من الزينة ، هو سرير حقيقي بْرُوطُونيـي ، سرير مقفل ذو نوافذ ، مزخرف بنقوش أزهار ، موضوع في طرف الغرفة » .

كان الفقراء مضطرين كثيراً إلى الاكتفاء بنفس الأثاث كالمسلمين الذين هم في وضيعتهم ، أي لحافات من صوف ، وصناديق ومائدات مستديرات قصيرات من الخشب الأبيض[7] .

كان يهود فاس يعيشون عيشة تقليدية في هذه البيئة الملونة بالتجديد ، وكـان للشريعة الدينية تأثير عظيم : لم يكن الغرب قد وضع عليها طابعه بعد[8] .

الطبقية الاجتماعية : ـ كانت توجد بالملاح ، كغيره من الأماكن ، طبقات اجتماعية ، لكنها أقل ما يمكن تفرقة . فكما هو الشأن في المدينة ، كان الأغنياء والفقراء يحتكون بسلام ، يكادون لا يميزون بأزيائهم[9] ،

---

(7) من البديهي جداً أن تكون ميول اليهود الموسرين إلى الأثاث الأوروبي قد نمت مع إقامة الحماية وقد شيدوا « قيلات » في المدينة الجديدة حيث يقيمون في سعة ، واشتروا أثاثاً كاملاً ، مفضلين طراز هانري الثاني أو الأثاث العصري الحالص.

(8) لقد تغيرت الأشياء جداً منذ الحماية ، إذ أن اليهود ، وخاصة منهم الشبان ، اتخذوا عدة عوائد غربية وحرصوا عليها : فالأطفال يؤمنون بالأب نويل ويحملون أسماء شخصية فرنسية ، ويذهب الفتيان والفتيات إلى المسبح والتنس ، ويتغازلون ، ويرقصون ، وتنظم العائلات حفلات راقصة خاصة ويبدو في بعض الأوقات أن الشبان الذين تهدبوا في ثانوياتنا ومدارسنا يكرون ماضيهم ، ليس فقط فيما كان يشتمل عليه من عبودية وخري ، ولكن في كليته .

(9) هذا صحيح خاصة بالنسبة للرجال . أما نساء الأسر الموسرة فكنّ يتأنقن في لباسهن أكثر من الفقيرات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويلتحمون بعضهم ببعض خوفاً من أخطار مهددة باستمرار. كانوا كلهم مهددين في حالات الاضطرابات ، ولم تكن لهم في فترة العنف وسيلة أخرى عارضة جداً غير الاتحاد . ومن جهة أخرى ، كانوا جميعاً يتعارفون ، أكثر مما عليه سكان المدينة الإسلامية ، وذلك من جراء ضيق الحي .

كانت الثروات من المنقولات على الخصوص . فاليهود يملكون معظم منازلهم[10] لكن تكتلاً في هذا القدر الضئيل من المساحة الذي كانت فيه ملكيات الجماعة متعددة ، لم يكن يصلح كقاعدة لثروات عقارية حقيقية . ومن جهة أخرى كان اليهود يملكون بعض الدور بفاس الجديد وعدداً قليلاً من الغرف بفندق النجارين . وفي خارج فاس لم يكونوا يملكون ولو شبراً واحداً من الأرض[11] .

فكان إذن متاع الاسرائيليين مؤلفاً خاصة من النقود ، والسلع ، والحلي ، وكلها أشياء يسهل حملها أو إخفاؤ ها عند وقوع أحداث خطيرة .

لم تكن الثروة العنصر الوحيد للطبقية الاجتماعية . كان آل كوهن وآل ليفي ما يزالون يتمتعون بمزايا دينية تقليدية ، دون أن يستفيدوا مع ذلك بنفس القدر من الاعتبار الذي كان للشرفاء في الوسط الإسلامي[12] . وبالعكس من ذلك ، كانت الأسر الرِّبِّينية ، وخاصة أسر الربّيين الكبار ، تتمتع بنفوذ عظيم مهما كانت درجة يُسرهم . كان علم الرِّبّيين وطابعهم الديني يفوق كل شيء آخر . ولعلهم وهم كهان ، كان لهم في الملاح تأثير أكثر من فقهاء الجامعة الإسلامية في المدينة .

---

(10) غير أنه يُذكر بعض المسلمين الذين لهم أملاك بالملاح ، كآل التازي مجبر (وهم ولا شك يهود قدامى أسلموا) الذين كانوا يملكون به ثلاث عمارات .

(11) يملك يهود فاس الآن قطعاً أرضية وعمارات في المدينة الجديدة ، وقد اكتسبوا عدة ممتلكات في البادية المحيطة . إن نوع الثروة اليهودية قد تغير بكيفية مدهلة .

(12) انظر نونو ومالكة ، المرجع المذكور ، ص. 321 و 322 - 323 ، هامش 9 و 10 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحياة العائلية : ـ كان الزواج باكراً في غالب الأحيان[13] أكثر مما هو عليه في المدينة . إن هذه العادة قد رسخت في الأخلاق إلى درجة أنها كانت تنظم مصير الزوجات غير البالغات : فلم يكن باستطاعتهن العودة إلى المنزل الأبوي ما دام لم يتم الدخول بهن . وخلال كل هذه الفترة التي قد تطول ، كان على أمهاتهن أن يهتممن بهن في بيت الزوجية .

كان الأبوان يدبّران الاتصالات وطالما دامت الخطوبة[14] التي كان يحتفل بها باكراً جداً في وقت يكون الزوجان المستقبلان ما يزالان طفلين، كان على الخاطب والمخطوبة أن يتظاهرا بعدم تعارفهما ؛ وقد كانا يتعرضان لتوبيخات كبيرة إذا لم يكونا قد تحاشيا في الزقاق بعناية . كانت الاتصالات الزوجية تتم بالعلاقات ، دون حاجة إلى وسطاء أمثال الخاطبات وبائعات الزينة بالمدينة .

كانت الأعراس تدوم[15] رسمياً سبعة أيام وسبع ليال ، ولكن نظراً للاستعدادات : (الحمام ، والحناء ، وعرض جهاز العروس ، إلخ . .) ومختلف واجبات العروسين ، كان لابد حقاً من قضاء شهر على الأقل في حياة غير عادية . كان كل شيء يجري بين الأهل والضيوف ، ولا شيء يُذكِّر بخاطبات المدينة .

كانت الحفلات بمعنى الكلمة تبدأ يوم الأربعاء مساء (ليلة الروحان). فينظم موكب من طرف الجمعية الخيرية (لهيبرا)[16] يسوق الزوج إلى منزل

---

(13) لقد جمعت قسماً كبيراً من التفاصيل التي ستأتي خلال تَحَرٍّ قمت به في عين المكان ، وتفصل م . يهودا بسمحون، الآنف الذكر ، فساعدني في ذلك أكبر مساعدة . انظر أيضاً **النصوص اليهودية العربية بفاس** ، من تأليف لـوي برونو وإلياس مالكة ، وي . د . سيماخ . **تاريخ** .

(14) كانا في الواقع يتعارفان جيداً ، حيث إن الجنسين لم يكونا منعزلين ، كما هو الشأن في المدينة ، وكان جميع من في الملاح يعرف بعضهم بعضاً .

(15) انظر بروبو ومالكة ، المرجع المذكور ، ص 332 - 343

(16) انظر عن هذه الجمعية ما يأتي ، ص 576 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العرس[17] ويتيح فرصة لمهزلة كان الشبان يقلدون فيها السلطان ، والوزراء ، والباشا ، مثلما يفعل المسلمون يوم عاشوراء[18] . وكان موسيقيون إسرائيليون يصحبون الموكب ويساهمون بعد ذلك في جميع الاحتفالات غير الدينية ، ويتولّى رِبّيٌّ إذ ذاك منح بركة قصيرة . كان بالإمكان أن يتم الدخول ذلك اليوم ، حسب الظروف ؛ وعلى كل حال لم يكن باستطاعة الزوج أن يخرج من منزله مدة سبعة أيام ، كما أن الأطعمة الغزيرة والاستقبالات كانت تتوالى لمدة سبعة أيام كذلك ، متسببة في مصاريف باهظة ، مثلما هو الحال في المدينة . كانت الأسر المثرية تستدعي الْجَفَلَى ، فكان هناك نهار الرِّبّيّين ، ونهار الطلبة ، ونهار التجار ، إلخ . . . وطبعاً لم يكونوا ينسون عامة السوقة .

كان الخميس يوم الهدايا (هدية) المعلن عنها جهراً ، كما هو الشأن في المدينة ، وبهذه المناسبة توزّع الصلات على الفقراء . وكان السبت هو يوم الاحتفال الديني : يذهبون إلى البيعة ، وبالأحرى بيعة الزوج ، حيث كانت تتعاقب الصلوات والأناشيد الطقوسية ، ويُقرأ عقد الزواج . وفي المساء يقام حفل كبير يسمع فيه جوق موسيقى ؛ ويوم الاثنين يحق للمرأة الشابة الطلوع إلى سطحها الجديد ، وكانت هذه مناسبة لاحتفال آخر يحضره المغنون ؛ وأخيراً يوم الأربعاء ، كان يحق للعريس أن يخرج من منزله ليلتحق وحده بوالدي زوجته ، فيقدمان له غداء ؛ كما كان يقوم بعدة زيارات عائلية أخرى . كانت الروعة تنقطع آنذاك ، فيتمكن الزوج من استئناف أشغاله المعتادة يوم الخميس . وبعد خمسة عشر يوماً من تمام الدخول ، كانت تقام مأدبة ويتاح للزوجة الشابة أن تذهب لترى أمها : وكان هذا الحفل يحمل الاسم الإسباني « طورنا بودا » .

ويمكن أن يلاحظ ، من خلال هذه البيانات الوجيزة ، أن الاحتفالات

---

(17) كانت العروس تمشي راجلة ، ولكن إذا كانت صغيرة جداً ، تجلس في أريكة يحملها حمال على رأسه (برونو ومالكة ، ص. 344) .

(18) انظر عن هزلية عاشوراء ، ما يأتي ، الكتاب 8 ، الفصل 2 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اليهودية بالزفاف تأثرت إلى حدّ ما بالعوائد الإسلامية : فخطبة الزواج ، والهدايا المقدمة إلى العروس خلال الخطبة ، والموكب العرسي ، والهزلية التي تصحبه ، ونشر الهدايا ، والاستقبالات التي كانت تستدعى إليها مختلف هيئات الحاضرة ، وزيارة الزوج لأبوي العروس ، وإلزامه قضاء حياة غير عادية طوال سبعة أيام ، كل ذلك كان أكثر شبهاً بما يجري في المدينة الإسلامية من ألاَّ يتأثر بها . لكن الطابع الديني للزواج كان متسماً بحفل في البيعة ، وهذا جزء عبري خالص ، وبذكريات إسبانية عتيقة كانت ما زالت قائمة في حفل «الطورنابودا» . وأخيراً فإن عدة تفاصيل ، مثل الأهمية المنوطة بتمام الدخول ، ومنع العروس من رؤية أمها قبل أن تصبح امرأة فعلاً ، لم تكن لا إسلامية محضة ، ولا يهودية محضة ، ولكنها سامية .

* * *

لم يكن اليهود يتصورون الزواج بدون إنجاب ، مثلهم في ذلك مثل المسلمين . لذلك ، وإن كان القانون يبيح أربع نساء شرعيات ، فإن العادة لم تكن تسمح بتعدد الزوجات إلا إذا كانت المرأة لم تلد في ظرف عشر سنوات من الزواج[19] .

كان أَبَوَا الزوجة الشابة يهديان جهاز الوليد ، عند دخول الشهر التاسع من الحمل : وكان ذلك فرصة لفرح عائلي[20] . وتحاط المرأة عند المخاض بقريباتها وتساعدها قابلة يهودية[21] . لم يكن الأب يحضر عند الوضع ، وإنما

---

(19) كانت جل العقود تنص بكيفية قاطعة على أن المرأة إذا كان لها عدة أبناء لا يمكن أن تفرض عليها ضرة . إلا أن روني ـ لوكلير (المغرب الشمالي ، ص. 150) يشير إلى أن تعدد الزوجات بالملاح كان شيئاً جارياً به العمل وربما نستطيع حل هذا التناقض بين المذهب والواقع بالتذكير أنه من جراء الزواجات المتخذة دوماً العديدة ووسائل الصحة التي يُرثى لها ، كانت حالات العقم أكثر عدداً من الحالة الطبيعية .

(20) برونو ومالكة ، المرجع المذكور ، ص. 287 ، والهوامش .

(21) كانت هؤلاء القابلات ، وكلهن مسنات تقريباً ، مشهورات بعملهن في المدينة كلها . كانوا يستحضرونهن أحياناً للولادة الصعبة في القصر ، أو حتى في المدينة ، عند الأسر التي كان =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان يُخبر بمجرد ما يولد الطفل . وفور الولادة والنظافة الأولى ، تُتخذ بعض الاحتياطات ضد التأثيرات الشريرة التي من المحتمل أن تحدث ، فكانت القابلة تخط في جبين الطفل علامة سحرية بسواد الدخان ، و « يعلقن فوق باب الدخول رأس ديك ، وأكاليل من العجين المشوي ، وخمسة فلافل حمراء وبعض الأشواك »[22] وفي اليوم التالي للولادة ، كان أحد أقارب المرأة يطوف في الحجرة التي ينام فيها الوليد عند منتصف الليل ، شاهراً سيفاً حتى يبعد العين الشريرة ، ويتكرر نفس الحفل يومياً إلى اليوم السابع[23] . وكانت النفساء ، في هذه الأثناء ، تتقبل زيارات عديدة .

كان اليوم السابع يكتسي أهمية رئيسية على الأقل بالنسبة للصبيان[24] ، إذْ كانوا يختنونهم ويعطونهم أسماءهم خلال حفل نصف ـ ديني ، ونصف ـ عائلي[25] .

إننا ندرك أن المخطط العام لما كان يجري بالملاح عند الزواج وعند الولادة يشابه كثيراً الوسط الإسلامي ؛ ويتعذر تحديد الحصة الحقيقية من الواقع لهذين العنصرين في الصلات المعينة مقدماً ، وتناقض مجتمعين كانا يعيشان جنباً لجنب ويؤثر الواحد منهما على الآخر بكيفية جذرية .

لها علاقة مع التجار الإسرائيليين (معلومات يهودا بنسمحون ، انظر أيضاً برونو ومالكة ، المرجع المذكور ، ص. 289 هامش 6)

(22) نفس المرجع ، ص. 290 ، هامش 15 .

(23) نفس المرجع ، ص 262 و 293 .

(24) كانت ولادة البنت أقل تقديراً جداً ، نفس المرجع ، ص . 387 ، هامش 53) من ولادة الذكر ، إضافةً إلى أن حياة الذكور ، حسب أحكام القانون ، كانت مطبوعة بحفلات طقسية أكثر .

(25) نفس المرجع ، ص . 296 - 300 . كان الأبوان هما اللذان يختاران الاسم ، ولم يكن قط اسم الأب أو الأم ، ولكن بصفة عامة اسم جد متوفى أو صالح يُجلّ خاصة . وكان الإعذار يشهره ، وكانت البنيّة تتلقى اسمها في تاريخ غير معين بحضور رِبّي ، وكان حفل عائلي صغير يطبع هذا الحدث .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت المماثلات تبقى واضحة في ميدان تربية الأطفال . ففي السنوات الأولى يخضعون للنساء : الأم ، والجدات ، والقريبات أو الخادمات[26] . ونظراً للتكديس ، كان الأطفال يعاملون بشدة أكثر مما هم عليه في المدينة ، لكن طرق الصحة والتربية كانت تكتسي عدة ملامح مشتركة .

كان أبناء الأسر المتشبثة بالتقاليد ـ وهي الأكثر عدداً ـ يذهبون قصد تعلمهم إلى مدارس تلمودية (صلاة) شبيهة جداً بالكتاتيب القرآنية : نفس المعلم من أصل متواضع ، ونفس الأماكن غير المريحة[27] ، ونفس الطريقة البيداغوجية المركزة أساساً على الحافظة . غير أنه ، ابتداء من السنوات الأولى للقرن العشرين ، كان يلاحظ بها بعض آثار يسيرة للتجديد ، إذ كان التلاميذ يدرسون نصوصهم في أوراق مطبوعة ، ولم يكونوا يطالبون بالكتابة إلا إذا تقدموا في دروسهم . ومن جهة أخرى ، كانوا لا يكتبون إلا يوم الجمعة صباحاً ، بقلم رصاص في البداية ، ثم بقصب مبري ؛ وكانوا يستعملون لهذا الغرض « ورق الرسائل من مقاس تجاري ، ذا مربعات من اللون الأزرق الفاتح ، ومداداً أسود مستورداً من أوروبا . . . »[28] .

كان الشبان الراغبون في متابعة دراساتهم يذهبون إلى إحدى المدارس العليا الأربع أو الخمس ، (إيشيبا أو ياشيبوط) بفاس ، حيث كان لهم معلم رِبّيٌ شهير[29] . وعند تخرجهم منها قد يصبحون كهنةً يحتفلون بالقداس ، أو معلمين في مدرسة تلمودية ، أو عدولاً . أما أحبار المستقبل ، فكان تكوينهم يتم عند سلفهم ، بعد تخرجهم من « إيشيبا » ويعترف بهم كأحبار بعد مدة غير

---

(26) لم يكن بالملاح عبيد ، وعلى الأقل منذ انعدام الأسرى المسيحيين ؛ ولكن كانت هناك خادمات يهوديات أو حتى مسلمات ، لأن نساء فاس الجديد الفقيرات كن يقبلن أن يخدمن في وقت عادي عند الأسر الموسرة بالملاح .

(27) كانت توجد عادة في بيعات صغيرة ، وكان عددها نحو عشرة في ملاح فاس .

(28) نفس المرجع ، ص. 239 . ومنذ 1917 أُدمجت مختلف المدارس التلمودية في واحدة يلقن فيها التعليم حسب طرق بيداغوجية عصرية ، وبأدوات مدرسية من الطراز الأوروبي .

(29) كانت كل مدرسة تضم من 15 الى 20 تلميذاً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محددة عندما يكتسبون سمعة كافية من المعرفة ، والحصول على ضمان (شبه إجازة) من معلميهم[30] .

وكان المتطورون ، ـ وكانوا يوجدون بالملاح قبل الحماية ـ يرسلون أبناءهم إلى مدرسة الاتحاد الإسرائيلي العالمي التي أنشئت بفاس منذ 1880 ، فيتعلمون فيها اللغة الفرنسية ويتلقون تعليماً ابتدائياً عصرياً[31] .

لم تكن هاتان السلسلتان من المدارس معاً كافيتين لاستيعاب جميع أطفال سكان الملاح ، وكثيراً ما كان من بينهم الأميّون لاسيما البنات .

كان الصبيان يلجون الحياة الدينية للجماعة ، في حوالي الثالثة عشرة من عمرهم ، ويحملون التميمة[32] ؛ وفي صبيحة ذلك اليوم كان الأبوان ينظمان بالمنزل العائلي اجتماعاً مساء يحضره رِبّي ومنشدون ؛ ويكون مناسبة ليُظهر فيه الشاب معرفته الدينية ، وذلك باستظهار خطبة يكون رِبيُّه قد لقّنه إياها . وكان الحلاق ، أثناء هذا الاحتفال ، يقص شعر بطل الحفل فيجازيه الحاضرون بصلاتهم[33] . وفي يوم الحفل بمعنى الكلمة كان الطفل الصغير ، وهو لابس خمار الصلاة والتميمةُ على ذراعه ، يقاد إلى البيعة من طرف الرِّبّي وأقربائه الذكور ، فيلقي خطاباً جديداً حفَّظه إياه رِبيّه عن ظهر قلب ؛ ثم يجلس على أريكة عند الخروج ، فيحمل حمالٌ الكلَّ على رأسه ويذهب الموكب المؤلف من رجال العائلة ونسائها ، وقد جاؤوا لينتظروا بباب

---

(30) يبدو أنه كان بفاس في القديم مدرسة رِبّية « حاخامية تحمل الاسم التقليدي » « بيت حميدراس » ، وقد حطمت البيعة التي كانت تؤويها أيام مولاي اليزيد فذهبت المؤسسة بذهاب البيعة (برونو ومالكة ، المرجع المذكور ، ص . 201 ، هامش 1) .

(31) لقد عرفت مدارس الاتحاد ، منذ الحماية نمواً هائلاً . فالذين يتجاوزون مرحلة التعليم الابتدائي ـ وهم كثيرون ـ يلتحقون بالثانويات الفرنسية لمتابعة دروسهم

(32) ذلك هو الحفل المدعو « تفيلّين » . انظر برونو ومالكة ، المرجع المذكور ، ص. 319 - 324 .

(33) نجد هنا ثانية الحلاق ، كما هو الشأن في المدينة ، في دوره كمساعد في الاحتفالات العائلية ، ويجازيه الضيوف ، مثل ما يجري عند المسلمين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البيعة ، وليلتحق بالمنزل على إيقاع جوق موسيقي وفي وسط ابتهال شعبي . ولم يكن الحفل ينتهي بدون مأدبة[34] .

* * *

كانت الحياة العائلية شبيهة بالحياة في المدينة : فالعائلات في الملاح أيضاً مجموعة لا بحسب الزوجين ، ولكن حول رب الدار الذي كان يحتفظ بأبنائه إلى جانبه ولو كانوا متزوجين ، ما دام التكديس لم يَعُدْ مفرطاً . ولم يكن هناك أيضاً الزوجان مستقرين تماماً ، وعلى الأقل نظرياً ، إذ كان يحق للزوج أن يطلق زوجته؛لكن هناك أيضاً كانت العادة والمصالح تفرض حدوداً لنزوة الرجال ، لأن الزوج ، في حالة الطلاق ، كان ملزماً برد الصداق الذي أتت به إليه امرأته عندما تزوّجها[35] ؛ غير أنه ينبغي الإشارة إلى أنه لا وجود في الملاح لأولئك الإماء السود اللائي كان لهنّ دور مهم في الأسر الإسلامية بفاس . ويبدو أن الالتحام العائلي بالملاح كان أقوى ، وأن تأثير الأب على أولاده كان أشد ، وأن العائلة كانت تجتمع أكثر[36] . قد يعزى ذلك إلى أن الرجال والنساء كانوا يعيشون في تفرقة أقل بكثير .

الموت : ـ إذا دنا الأجل ، دخلت الطائفة (هيبرا)[37] إلى المسرح . كان فعلاً لملاح فاس ، على غرار كل الجماعات اليهودية ، طائفة

---

(34) يقارن الموكب بموكب الإعذار عند المسلمين .

(35) لقد احتفظ يهود فاس بعادة العيشة ضمن الأسرة أكثر منها حسب الزوجين ولو نزحوا إلى المدينة الجديدة غير أن المتطورين ، وهم قدماء تلاميذ الاتحاد والثانوية ، يميلون إلى اتخاذ عوائد أوروبية في ذلك كما في الباقي .

(36) كانوا يتناولون الوجبات الرئيسية على الأقل مثلاً جماعةً . كان عددها أربعة في النهار : الفطور بعد صلاة الصباح حوالي السابعة أو الثامنة ، والغداء في منتصف النهار ، والأكلة الخفيفة وعلى الأقل بالنسبة للأطفال في العشي ، والعشاء الذي كان يقدم متأخراً ، حوالي التاسعة أو العاشرة ليلاً .

(37) انظر برونو ومالكا ، المرجع المذكور ، ص. 231 - 234 ؛ وسيماخ ، المرجع المذكور ، ص . 90

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

موضوعة تحت إشراف الحاخام سيميون بار يوحاي[38]، تضم نحو أربعين عضواً ينتمون إلى جميع الطبقات الاجتماعية ، ويتحلون كلهم بتديّـن كبير[39] . كانوا مقسمين سبعة أقسام ، بعدد أيام الأسبوع ، يمتثل كل قسم لأوامر « مقدم » يتولى الحراسة مرة في الأسبوع ، وعند أدنى إشارة يجمع فريقه في أقرب وقت للقيام بالواجب الديني المطلوب منه . كما كانت هناك طائفة للنساء[40] وأخرى للأطفال[41] . كان يدير الطائفة « شيخ » لم تكن مهامّه وراثية بمعنى الكلمة ، لكن العادة كانت تقتضي أن يختار دائماً تقريباً من نفس العائلة .

كانت الطائفة تلعب دوراً هاماً في الشعائر الجنائزية ، كما سنرى ذلك ، لكن نشاطها لم يكن يقف هناك ، إذ كانت تساهم أيضاً في حفلات الزفاف ومعظم الحفلات العائلية . وكان أعضاؤ ها أحياناً يتدخلون لإصلاح ذات البين بين الزوجين ، ويحرصون على المراعاة الصارمة لعوائد السبت[42] ، ويقومون جميعاً يوم السبت بتلاوات دينية متبوعة بشروح[43] . وهكذا يقدر التأثير الذي كان لهذه الجمعية على الحياة الخلقية والروحية للملاح . ونميل طبعاً إلى مقارنتها بجماعة القربان المقدس التي كانت مزدهرة بفرنسا في القرن السابع عشر ، والتي يبدو أن موليير فكّر فيها عندما ألف روايته « تارتوف »[44] .

كان أعضاء « هيبرا » يسرعون بمجرد ما كانوا يستدعون إلى فراش مريض في حالة خطيرة للسهر عليه وتلاوة صلوات من شأنها أن تخفف آلامه .

---

(38) انظر عن العلاقة الأسطورية لهذا القديس الإسرائيلي الكبير (القرن الثاني للميلاد) مع الطائفة ، برونو ومالكا ، المرجع المذكور ، ص . 233 ، هامش 2 .

(39) حسب ياهاس فاس ، فإن « الهيبرا » ، التي كانت تحمل كذلك اسم « غميلوث حسيديم » ، كانت تضم 70 عضواً سنة 1879 (سيماخ ، المرجع المذكور ، ص .90) .

(40) برونو ومالكا ، المرجع المذكور ، ص . 233 .

(41) معلومات م . يهودا بنسمحون .

(42) نفس المرجع ، ص. 232 .

(43) نفس المرجع .

(44) انظر راوول ألّيي ، تفسير الأتقياء للتوراة .